إشراقات نورية

من الديار المغربية

الدكتور عبد الكريم عكيوي

٢٠١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــــــــة

الحمد لله الذي أعلى مقام العلم وشرف العلماء، وأمر عباده بتدبر آي كتابه وجعله دأب الحكماء، وحث على التفكر في الآفاق وتأمل ما فيها من آيات، وندب إلى تعقل ما في الكون من علامات، وجعل العقل مناط التكليف وسبب التكريم والتشريف. والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وذريته وأهل بيته الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى التابعين لهم وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فهذا مؤلف علمي ضم جملة من الأفكار والقضايا العلمية المهمة في الفكر الإسلامي، في مجال مناهج البحث وطرق المعرفة، في حقيقة الحياة والإنسان والكون وغاية الوجود، وفي طرق بناء العقيدة ومعرفة الله تعالى، وفي الزهد والسلوك وطرق القربى إلى الله تعالى، والتربية والتزكية، وفي مناهج التفكير وطرق الاجتهاد وما يتصل بها من تدبير الخلاف، والأخلاق وقيم الجمال، وطرق بناء الحضارة وترسيخ كيان الأمة. وهذه الأفكار والقضايا جاءت مفرقة في بحوث مختلفة، أعدت في مناسبات مختلفة على امتداد عقد من الزمان. وأصلها وقفات للنظر والبحث في فكر علم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، هو رجل عيار من العيار الثقيل[1] عز نظيره في الزمن المعاصر. رجل عالم رباني، زاهد

(١) "رجل عيار " بفتح العين وتشديد الياء، إذا كان ذكيا كثير الحركة والتطواف، نشيطا في طاعة الله تعالى. و "العيار" بكسر العين بتخفيف الياء هو التقدير والوزن، ينظر لسان العرب مادة "عير". وهذا الرجل المقصود هنا جمع ذلك كله.

عفيف، صابر محتسب، متواضع حيي، داعية مربي، عاقل حكيم، قوي الحجة، معتدل التفكير، ناصح للموافق، منصف مع المخالف. استهل مولودا في قرية من قرى الأناضول عام ١٨٧٦ للميلاد، فنشأ على الخير والفضيلة في أسرته، فشرب من أمه لبن النمو الجسمي، ولبن الصفاء الروحي والتزكية القلبية. وحبب إليه والده العلم والمعرفة، فترقى في درجات العلوم الإسلامية، وحباه الله تعالى بذكاء وفطنة، فاستوعب كل ما كان يدرس في المدارس العتيقة بتركيا فلم يشف غليله، فاطلع على سائر معارف عصره في علوم الكون والحياة، وكان آية في العقل والذكاء، عميق التفكير، قوي الملاحظة، كثير التأمل في حقائق الحياة الفلسفية، وفي أحوال عصره وحوادث إبانه، فلقب ببديع الزمان واسمه "سعيد" منسوب إلى قريته "نورس" بشرقي تركيا فيقال له "النورسي".

لما بلغ مبلغ الرشد وعقل، رأى العالم الإسلامي يضطرب بسبب غفوة أهله قبل أن يداهمهم سلطان المدنية الحديثة، وبفعل الرياح العاتية التي تهب عليه من كل جانب. فقد ركدت مناهج التعليم وطرق المعرفة، ودب الخلاف والشقاق بين أصقاع البلاد الإسلامية، واجتمعت كلمة الدول الغربية على تمزيق أوصال البلاد الإسلامية التي كانت تحت سلطان الخلافة العثمانية، فتم البدء بزرع الشقاق بين الأتراك وبين العرب، حتى إذا تم ذلك تفردت الدول الغربية مجتمعة بكل طرف، فتداعت على الخلافة العثمانية حتى أسقطت الخلافة وأعلنت الجمهورية، وأدخلت سائر البلاد الإسلامية وخاصة العربية في سياسة التمزيق عن طريق فكرة الدولة القطرية والسيادة المحلية.

وكان من آثار ذلك ما انتهى إليه النورسي، بسبب فطنته وقوة تفكيره وحدة تأمله في أحوال عصره، من تواطئ خفي تولت كبره بريطانيا، يقوم على إخماد جذوة ما يحمله المسلمون في قلوبهم من آثار عقيدة التوحيد والتي تكسبهم- على رغم

ضعف قوتهم المادية – قوة معنوية قد تنتفض في أية لحظة. ولما كان القرآن الكريم أصل هذه القوة المعنوية المتبقية للمسلمين، توجهت الجهود، تحت عناوين ومؤسسات مختلفة، إلى تحقيق هدف لم يتوان أصحابه عن تحقيقه حتى يومنا هذا، وهو زرع بذور الشك والريبة حول القرآن الكريم من جهة مصدريته، ومن جهة أحكامه، حتى ينزل منزلة كلام البشر فيضعف سلطانه المعنوي في قلوب المسلمين. وكانت لذلك تجليات كثيرة في تركيا أولا ثم في سائر البلاد الإسلامية. فبعد إلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية عام ١٩٢٤ للميلاد، منعت حرية التفكير والنظر، وفرض نمط وحيد في التفكير من زاغ عنه تعرض للمحاكمة، وأعلن الإلحاد وفرضت الفلسفة المادية بقوة الحديد والنار، وحظر تدريس الدين في المدارس، ومنعت جميع مظاهر التدين وشعائره العامة، وكل ما تفرع عنه من عادات في اللباس، واللغة، ومنع الأذان بالعربية، وحظر حتى امتلاك المصحف أو تعليم شيء من القرآن. وامتدت آثار ذلك إلى جميع البلاد الإسلامية وخاصة العربية. وكان لذلك أثر في مجال العلم والمعرفة، إذ تم العمل على ازدراء العلوم الإسلامية، وأحيطت الفلسفة الغربية بهالة التقديس والإعجاب.[1]

فهذه هي خلاصة معالم المؤامرة الخارجية التي عاينها بديع الزمان النورسي، فحركت فيه نوازع الغيرة على أمته، فحمل نفسه على خدمة المعرفة الإسلامية من خلال العناية بالقرآن الكريم من جهة بيان هدايته، وسمو أحكامه، وقوة حجته مما يتأكد معه للمسلم وغير المسلم، أنه وحي جمع حقائق الحياة والكون والإنسان، وأقامها على قواعد راسخة تؤيدها العقول وتتذوقها القلوب. قال

---

(١) للاطلاع على تفاصيل هذه الخطة يرجع إلى كتاب "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين" للشيخ مصطفى صبري الذي اكتوى هو أيضا بنار الإلحاد المعلن، والحرب على الدين باسم التحديث، خاصة في بلده تركيا ثم في مصر. وكتابه هذا حافل بتفاصيل الحرب الفكرية والثقافية التي تدرو رحاها في الكتب والمجلات أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين الميلادي.

النورسي رحمه الله وهو يأخذ على نفسه العهد العظيم الذي جعله غاية حياته "لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها."[1] فانصرف رحمه الله إلى القرآن الكريم تدبرا ومدارسة ليغرف منه معاني الهداية، ولم يمنعه من ذلك كثرة الموانع التي وضعت أمامه من النفي والسجن والمحاكمة، بل كان يعتبر تلك المحن التي تعترض سبيله تيسيرا من الله له حتى تكون عونا له على المضي في خدمته القرآن الكريم، يقول رحمه الله: " إنني على قناعة تامة من أن المضايقات التي يضايقونني بها في أغلب الأوقات، والعنت الذي أرزح تحته ظلماً، إنما هو لدفعي - بيد عناية خفية رحيمة- إلى حصر النظر في أسرار القرآن دون سواها، وعدم تشتيت النظر وصرفه هنا وهناك. وعلى الرغم من أنني كنت مغرماً بالمطالعة، فقد وُهبتْ لروحي مجانبة وإعراض عن أي كتاب آخر سوى القرآن الكريم."[2] وحتى لا يضعف عزمه، ركن إلى عقيدته وإيمانه، ففتح باب الأمل موصولا بقدرة الله تعالى وأعلن ذلك مستجمعا قواه فقال: "وهكذا فإن إحدى دلائل عظمة الله وقدرته سبحانه هو أنه يخلق من شيء صغير جداً كالذرة، أشياء عظيمة عظمة الجبال. و بمثل هذا المثال أُعلن باقتناع تام وبخالص نيتي ولا أتكلف التواضع ونكران الذات، فأقول: إن خدماتي وأحداث حياتي قد أصبحت في حكم بذرة، لكي تكون مبدأً لخدمة إيـمانية جليلة"[3] وهكذا انطلق مشروعه الإصلاحي فجعل إظهار هداية القرآن للعالم كله هدفه، وإقامة الحجة على إعجاز معانيه وسمو أحكامه غايته ومقصده، فكان لا يزيد عن قوله – في وصف نفسه – إنه خادم القرآن ودلال في سوق جواهر القرآن حتى توفاه الله تعالى عام ١٩٦٠ للميلاد.

---

(١) كليات رسائل النور : سيرة ذاتية ص ٦٦ .

(٢) كليات رسائل النور : سيرة ذاتية ص ١٠ .

(٣) نفسه ص ١١.

ولم يكن بديع الزمان النورسي من أصحاب النظر الجزئي الذين لا يتجاوزون ما يسمى "نظرية المؤامرة" فيلقون اللوم كله على الأسباب الخارجية، وإنما رصد عللا كثيرة في جسم العالم الإسلامي، من ركود مناهج التعليم والركون إلى التقليد، وفشو الاستبداد، وانطفاء قوة الإيمان في القلوب، وسيطرة اليأس والعجز، وشدة الاختلاف والتفرق السياسي، والتنازع والشقاق الفكري والمذهبي. فانضاف إلى مشروعه الإصلاحي هدف آخر هو الاجتهاد من أجل مداواة هذه الأمراض الداخلية، فاعتنى بالتربية والتزكية وطرقها ومسالكها، وبالتعليم ومناهجه، وبوضع قواعد الوحدة والاجتماع وتدبير الخلاف.

ومن خلال ما تقدم يمكن جمع المشروع الإصلاحي لبديع الزمان النورسي في خمسة معالم رئيسة وهي :

١ – خدمة القرآن الكريم وإظهار إعجازه المعنوي.

٢ – بناء الإيمان وتجديده في القلوب.

٣ – التربية والتزكية.

٤ – إصلاح مناهج التعليم.

٥ – بناء الوحدة وترسيخ أسس الاجتماع.

وقد اجتهد من أجل تحقيق ذلك كله غاية الجهد، في همة عالية، وتفان عز مثله في العصر الحاضر، وانقطاع كامل وتفرغ شامل لمشروعه، وناله من أجل ذلك شتى أنواع الإذاية فذاق آلام التهم والمحاكمات، وغربة السجون وأحزان المنافي، فبقي صابرا محتسبا، عاملا في اعتدال في التفكير، وتوازن في المواقف، وحكمة وبعد نظر في التعامل مع النوازل والحوادث المختلفة التي حفل بها زمانه وبلده. وجمع خلاصة مشروعه وزبدة أفكاره في رسائل كان يكتبها على امتداد عقود من الزمان، فجمعت في كليات رسائل النور.

وهذا العمل الذي أقدم له، محاولة لتقديم معالم هذا المشروع الإصلاحي، من خلال الدراسة الاستقرائية والتحليلية لجملة من القضايا الفكرية التي استأثرت باهتمام بديع الزمان النورسي. فهذه البحوث التي جمعها هذا الكتاب تفصيل ودراسة وتحليل لقضايا تندرج جميعها في هذه المعالم الخمسة. فهي بحوث ثمانية ترجع إلى خمس قضايا كبرى وهي :

١ – منهج بناء العقيدة في النفوس وترسيخ حقيقة الحياة والإنسان، وتثبيت غاية الوجود.

٢ – منهج التربية والتزكية.

٣ – فلسفة الجمال.

٤ – ترسيخ قواعد الوحدة.

٥ – منهج إحياء الفقه الإسلامي.

فالبحث الأول بعنوان "منهج النورسي في إحصاء أسماء الله الحسنى" والثاني بعنوان "غاية الحياة والإنسان من خلال رسائل بديع الزمان" ويدخلان في القضية الأولى، فمن خلالهما تظهر معالم منهج النورسي في بناء الإيمان وتجديد مناهج العقيدة، ومناقشة الفلسفات المادية في قضايا الحياة الكبرى، ليخلص – بمنهج تحليلي واستقرائي واستنباطي يقوم على التأمل المنهجي والمحاورة العقلية والتفكير العلمي– إلى أن العقيدة الإسلامية وأركان الإيمان ضرورة عقلية، أضعف ما تكون الفلسفة المادية عن نقضها. وفي منهجه في شرح أسماء الله الحسنى يظهر بوضوح قوة استنباطه، وسعة نظره، واستيعاب فكره، فقد جعل إحصاء أسماء الله الحسنى على معنى لم يسبق إليه بهذا التفصيل والترتيب. فمن خلال هذين البحثين تظهر محاولة النورسي تجديد درس العقيدة.

ولاحظ النورسي ما أصاب المسلمين من اليأس، وسوء الخلق، وانتشار الحقد بينهم، وفشو العداوة والعصبية حتى بين أهل العلم، وركون أهل التصوف إلى الخمول والانعزال في التكايا والزوايا، فاجتهد من أجل إصلاح مناهج التزكية حتى تثمر قوة الروح وسمو النفس وجمالا في السلوك. فعمل في ذلك من جهتين: الجهة الفكرية النظرية والجهة العملية. أما الجهة الأولى فلبيان الأسس الشرعية التي قوم عليها التصوف، وبيان مقاصده وقواعده، فكان النورسي هنا أيضا مجددا لما أعطى للتصوف نفسا جديدا يقوم على القرآن الكريم والسنة، ويثمر جمال الروح والسلوك، وهذا ما تم تفصيله في البحث الثالث بعنوان "التصوف عند بديع الزمان النورسي". والجهة الثانية التي عمل عليها النورسي هي تنزيل التربية والتزكية في الحياة اليومية للمسلم حتى تحقق التربية آثارها العملية، وهو موضوع البحث الرابع بعنوان "المقاصد العملية للتربية السلوكية عند النورسي" فمن خلال هذين البحثين تظهر معالم منهج التربية والتزكية عند النورسي، ويتحرر نظره إلى التصوف.

ومن قواعده في التربية توطين النفس على محبة الجمال والبحث عنه في كل لحظة، وفي كل مكان، ولو في أحلك الظروف وسط المحنة والمصيبة. فكان رحمه الله مولعا بالجمال والحسن، وهو يصدر في ذلك عن نظرية متكاملة منسجمة حول الجمال ومفهومه، وتجلياته وطرق تذوقه وإدراكه، ومنهج ارتشافه في الرخاء وفي الشدة. وهذا موضوع البحث الخامس بعنوان "نحو نظرية إسلامية للجمال من خلال رسائل النور".

وعمل النورسي رحمه الله على وضع قواعد نظرية وعملية من أجل وحدة الأمة واجتماعها على رغم اختلاف مذاهبها، وذلك مفصل في البحث السادس بعنوان "أركان الوحدة الإسلامية وقواعدها العملية عند الأستاذ النورسي". وفي مجال

منهج الفقه وقواعد الاجتهاد حرر النورسي رحمه الله بعض القواعد واهتم بها أكثر من غيرها، لما رأى أهميتها وقوة الحاجة إليها في العصر الحاضر. فقد أكد على وجوب ارتباط الفقه بالقرآن الكريم ثم بالسنة ارتباطا قويا وفي هذا السياق قدم الموطأ أنموذجا لذلك، فكان البحث السابع بيانا لذلك وتفصيل له.

ثم كان خاتمة هذه البحوث حول قاعدة اعتبار المآل والنظر المستقبلي، تم فيه تفصيل منهج النورسي في العمل بها في الفقه أولا، ثم في سائر قضايا الحياة وخاصة في التربية وهو بعنوان "اعتبار المآل واستشراف المستقبل عند بديع الزمان النورسي".

فهذه هي البحوث الثمانية التي ضمها هذا الكتاب، ومن خلالها يمكن تصور معالم المشروع الإصلاحي وأوجه الإبداع والتجديد عند الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي.

وإذا كانت البحوث كلها مستخلصة من "رسائل النور" فحملت نفس بديع الزمان النورسي، واصطبغت بصبغة الفكر الإسلامي المعاصر في تركيا، فإنها أيضا أشربت نفس الباحث المغربي. فهي بحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، بأفكار وقضايا نورية انطلقت من تركيا، من خلال مشروع المدرسة الإصلاحية النورية، ثم انتشرت بسبب قوتها في العالم الإسلامي، فأشرق سناها في المغرب الأقصى، فتلقفها باحث مغربي فتناولها بالدراسة والتحليل، والتنظيم والترتيب. ومن هنا جاءت تسمية هذا العمل بـ " إشراقات نورية من الديار المغربية". فمن خصائص فكر بديع الزمان النورسي خاصية الشمولية والعالمية، فكان يخاطب المسلمين على اختلاف مراتبهم في العلم، ويخاطب غير المسلمين من أهل الكتاب إلى أعتى المنكرين الملحدين. ولهذا تجد في رسائل النور الارتقاء من البسيط إلى المركب، ومن الفكرة الإجمالية إلى التقريرات العلمية الدقيقة، وتجد

فيها الدليل العقلي الذي يخاطب كل عاقل من البشر، وتجد منهج الافتراض الجدلي المنهجي الذي يساير عقل المنكر ثم يرتقي في منازل السمو العقلي والفكري حتى يصل إلى النتيجة. وتميزت رسائل النور أيضا بخطاب الوحدة والاجتماع والائتلاف، والحذر من الشقاق والاختلاف، فكان النورسي يخاطب المسلمين بجميع طوائفهم ومذاهبهم، وهذا سبب انتشار رسائل النور وعناية الباحثين والدارسين بها في مختلف البلاد العربية والإسلامية. وهذا الكتاب وجه واحد من وجوه كثيرة من هذه العناية برسائل النور وما حوته من الفكر الإصلاحي والتجديدي.

وهذا العمل أيضا مظهر من مظاهر خاصية الشمول والانفتاح والسعة في الفكر المغربي الذي يفتح عقله لكل التجارب المفيدة، ويطلع بنظر الفاحص إلى كل الأفكار والاجتهادات يستمد منها النافع المفيد. فهذا العمل شجرة نبتت من بذرة اجتمع على غرسها باحثون من تركيا والمغرب، فهو إذن ثمرة التعاون المغربي التركي في مجال العلم عامة وفي الفكر الإسلامي خاصة. فالشكر موصول إلى الإخوة الأتراك الذين وفروا المادة العلمية من خلال العمل على نشر رسائل بديع الزمان النورسي والتعريف بها، وتنظيم المؤتمرات والندوات حولها، فالتقت حول مائدة "رسائل النور" نظرات وتأملات كثير من الباحثين والدارسين من مختلف بلاد العالم، وهذا الكتاب وجه من وجوه الإسهام المغربي في هذه الحركة العلمية الإصلاحية التي تروم التجديد والإحياء في الفكر الإسلامي المعاصر في اعتدال وقصد، وسعة فكر وبعد نظر، واستيعاب لكل أوجه الاجتهاد، ومراعاة للخلاف الفكري والعلمي المعتبر، ومنافسة شريفة في مجالات المعرفة.

رحم الله الأستاذ النورسي، وجزاه الله خير الجزاء على ما اجتهد وعمل، وما قدم من خدمة عظيمة لبلده وأمته وللبشرية كلها من أفكار نيرة عظيمة، اقتبسها من أنوار القرآن الكريم وهدي الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

وأتقدم بوافر الشكر إلى الإخوة الأتراك في مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم على جدهم واجتهادهم من أجل نشر الفكرة السديدة، وخدمة الثقافة والفكر الإسلامي، في توزان واعتدال، ومودة ومحبة لجميع المسلمين، وتعاون وتواصل مع كل ذي حكمة وفكر رشيد. فجزاهم الله خير الجزاء ووفقهم وسدد خطاهم.

والله الموفق إلى الصواب برحمته، وصلى الله على نبينا محمد وآله وذرياته وأهل بيته وسلم.

تم الفراغ منه بعد عصر يوم الخميس ٢٠ صفر ١٤٣٤ للهجرة

الموافق ٠٣ يناير ٢٠١٣ للميلاد

بأبو ظبي بدولة الإمارات العربية المتحدة

د. عبد الكريم عكيوي

١

منهج النورسي في إحصاء أسماء الله الحسنى(*)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيين، وعلى آله وأزواجه وذريته وأهل بيته، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن الأسماء الحسنى ثابتة لله تعالى قطعا، وذلك بنص القرآن الكريم والسنة النبوية. وقد جعل الله تعالى معرفة أسمائه طريقا إلى معرفته، لأن معرفة الله بحقيقة ذاته متعذر في الحياة الدنيا لأن رؤية ذاته تعالى هي الجزاء الأوفى الذي أعده لمن فاز برضوانه، فرؤية وجه الله تعالى تحصل به لأهل الجنة قمة السعادة وغاية اللذة وتمام النعمة، فلا يناسب الدنيا التي هي دار اختبار وتكليف. ثم لأن الإنسان على ظهر الأرض موسوم بالعجز والضعف بحكم قيد الزمان والمكان، فلا تقع رؤيته إلا على ما يحويه المكان ويجري عليه الزمان، والله تعالى فوق الزمان والمكان، فكيف يحويه المكان وهو الذي خلق المكان، وكيف يجري عليه الزمان وهو الذي خلق الزمان. ثم إن الله تعالى قد احتجب عن الظهور للأبصار في الدنيا من فرط ظهوره وشدة نوره، فهو الظاهر بآياته وآثاره الباطن من شدة ظهوره وإشراق نوره. ولهذا لم يبق في قدرة المُكَلَّفين من طريق لمعرفة ربهم تعالى إلا بأسمائه وصفاته وأفعاله وتصرفاته التي تجري عليهم. فأنزل تعالى أسماء في كتابه، وذكره بها رسوله صلى الله عليه وسلم، ونصب في الكون علامات تعرف بها وتفهم معانيها، وأمر بمعرفته من خلال أسمائه الدالة على أفعاله وتصرفاته.

(*) هذا البحث منشور بمجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية. العدد الأول. يناير ٢٠١٠ .

وأصح ما ورد في السنة النبوية في إثبات أسماء الله تعالى الحسنى والأمر بمعرفتها ما اتفق البخاري ومسلم على إخراجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)[1] وعند البخاري أيضا بلفظ: (لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر). وعند مسلم بلفظ (من حفظها دخل الجنة وإن الله وتر يحب الوتر) ولم يقع في شيء من طرقه سرد الأسماء التسعة والتسعين إلا في رواية عند الترمذي والراجح أنه إدراج من بعض الرواة اجتهادا منهم، وليس مما رفع من الحديث. ومعنى هذا أن معرفة أسماء الله الحسنى على جهة الإجمال واجب على كل مكلف، وأما معرفتها على جهة التفصيل فإنه مجال مفتوح للنظر كل بحسبه، فمن هنا يحصل التفاضل في معرفة الله تعالى، فيزداد العبد معرفة بالله تعالى كلما أضاف إلى معرفته اسما من الأسماء الحسنى.

ولهذا ألف علماء الإسلام في بيان أسماء الله الحسنى وبيان معانيها، فاتفقوا في كثير منها واختلفوا في بعضها، واختلفوا أيضا في طريقة إحصائها ومنهج ذلك بحسب فهمهم لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من أحصاها" أو"حفظها". ويعتبر النورسي أبرز من اعتنى بأسماء الله الحسنى في العصر الحاضر. فهو، وإن لم يخص الأسماء الحسنى بتأليف مستقل متمحض لها، فقد قصد إلى إحصائها وتتبعها وبيان معانيها وآثارها وفوائد الإيمان بها مما يتم به إحصاؤها عنده رحمه الله، وفرق ذلك في رسائل النور. ومنطلق النورسي - كغيره من علماء الإسلام- هو ما ورد في القرآن الكريم من إثبات الأسماء الحسنى إجمالا مع بيان بعضها، ثم الحديث النبوي في الترغيب في إحصائها مع ما ورد في السنة من أسماء الله

(١) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا. "صحيح مسلم"، كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها.

مثل"الجميل" ثم الاستئناس بما قاله علماء الإسلام المتقدمون خاصة أبو حامد الغزالي. وقد كان النورسي منهجيا في ذلك كله فلم يعتمد كليا على عالم أو كتاب وإنما اختط لنفسه منهجا خاصا سار عليه وبقي ملازما له ولم يتخلف عنه رحمه الله. وإن معالم هذا المنهج – وإن كان النورسي لم يفصح عنها صراحة في شكلها النظري– فإنها تستخرج بالتأمل والتتبع والاستقراء العلمي لرسائل النور.

وأول ما ينبغي تقريره هنا أن إحصاء أسماء الله الحسنى عند النورسي يمثّل مشروع الحياة وقضية من قضاياها الكبرى، يلازم العبد من يوم بلوغه التكليف إلى أن يبلغ غاية أمره في دار المقام حيث النعيم الغامر والسعادة الكاملة، حيث يتحقق يقينا فائدة هذا الإحصاء وغايته المرجوة. إن عملا يترتب عليه دخول الجنة، لا يمكن أن يناله العبد بعمل لحظة أو لحظات. إن إحصاء أسماء الله الحسنى مسلك للرقي في سلّم القُرْبى، وطريق للسمو في مراتب العرفان في كل لحظة من لحظات الحياة على ظهر الأرض، وفي كل ما يحف بالمكلف من الحوادث وأحوال الحياة وتقلبات الزمان.

وقبل التفصيل في منهج النورسي أرى من المناسب ذكر خلاصة جامعة لما قاله علماء الإسلام في معنى إحصاء الأسماء الحسنى. وجماع ذلك على جهة الإجمال أن قوله صلى الله عليه وسلم: "من أحصاها" أو"من حفظها" يتحقق على الخطوات الآتية:

١- تتبعها من القرآن الكريم والسنة النبوية واستخراجها منهما مع عدها حتى تستوفى كاملة.

٢ - الإحاطة بمعانيها مع اعتقادها والإيمان بها. وذلك يحصل بمداومة التفكر في مدلولها، واستحضار معانيها في القلب بعد ضبطها بالعقل.

٣ - أداء حقها والعمل بها. فله أسماء ينبغي الاقتداء بها في معانيها كالرحيم والكريم والعدل ونحوها، فينبغي للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدي حق العمل، فبهذا يحصل الإحصاء العملي. وأما الإحصاء القولي فيحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها. وقيل حسن المراعاة لها والمحافظة على حدودها في معاملة الرب بها.[1]

٤ - ثم تأتي بعد هذا كله الغاية المرجوة والفائدة المقصودة وهي العيش في كنف هذه الأسماء من خلال رؤية جمالها في الكون، واكتشاف تجلياتها في الوجود، ونسبة كل أحوال الكون إليها، ورد كل حدث إلى الاسم الذي نتج عنه. وهذا ما عبر عنه أبو عمر الطلمنكي بقوله: "من تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته.. المعرفة بالأسماء والصفات وما تتضمن من الفوائد وتدل عليه من الحقائق."[2] وحكى الحافظ ابن حجر هذه المرتبة وهي المسماة "الإحصاء النظري" وهو أن يعلم معنى كل اسم بالنظر في الصيغة ويستدل عليه بأثره الساري في الوجود، فلا تمر على موجود إلا ويظهر لك فيه معنى من معاني الأسماء وتعرف خواص بعضها وموقع القيد ومقتضى كل اسم. قالوا: وهذا أعلى مراتب الإحصاء.

وكل هذه الخطوات حاضرة عند النورسي، إلا أنه قصد خاصة إلى الغاية المرجوة، التي هي أرفع مراتب الإحصاء، وهي تتبع آثار الأسماء الحسنى في الكون والوجود في كل لحظة من لحظاته، ثم توطين النفس والقلب والعقل على العيش في كنفها، والتخلق بمقتضياتها حتى يتجلى الحظ البشري منها في الحياة كما تظهر تجلياتها في الوجود. أي إن إحصاء أسماء الله الحسنى عقيدة تفهم

---

(١) ينظر في هذه المعاني: "الأسماء والصفات" للبيهقي، ص ٢٤. "فتح الباري" ١٣ ص ٢٢٥– ٢٢٧ – ٣٧٨.
(٢) "فتح الباري" ١٣ ص ٢٢٦.

بالعقل، وترسخ في القلب، وتجري آثارها على الأعمال والتصرفات، وتتحقق بها سعادة المكلف في الحياة لما يشاهد بعين القلب والوجدان من إشراقاتها الجميلة في حياته في ما يحيط به من الموجودات والعوالم. إن حقيقة الحياة والكون وسر مسيرة الإنسان إنما يحصل بالتحقق بأسماء الله الحسنى. فإحصاؤها إذن ليس في الوقوف عند الدراسة العلمية لها والشروح اللغوية والتعاريف النظرية، إنما هو استمتاع بالتأمل في آثارها، وارتشاف لذة جمالها المبثوث في الكون في كل لحظة، والاندماج الروحي والمعنوي في الحوادث التي تنزل بالمكلف ليرتشف من بين أستارها لمعات جمال اسم الله تعالى الذي تجلى به من خلال هذا الحادث أو ذاك.

هذا منهج النورسي على جهة الإجمال، ونأتي الآن إلى تفصيله، مع معالم أخرى منهجية تميز بها ومسالك ينص عليها ويعيد التأكيد والتنصيص.

١ ـ الكون دليل قاطع على أسماء الله الحسنى، وقرآن مشاهد بدليل الوحي والعقل، والحس والكشف ومقتضى الإيمان:

إن المقصد الأسنى والمعنى الحقيقي الأسمى لإحصاء أسماء الله الحسنى عند النورسي، هو مشاهدة أنوار تجليات تلك الأسماء في الكون كله، فتكون الموجودات والحوادث كلها، عند المكلف، مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى، فيمارس تفاعلا ذوقيا وفكريا مع الكون من حوله من خلال عملية الاستكشاف المتواصلة في كل لحظة لأنوار الأسماء وما يترتب عنها من آثار وتصرفات. ومعنى هذا أن القرآن الكريم والسنة النبوية إنما هما مصدران للتنبيه إلى منهج إحصاء الأسماء الحسنى، وليس الغرض حصرها ومنع الاهتداء إلى غير ما ذكر فيهما من الأسماء. ومما يدل على ذلك أيضا أن أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم على جهة الإجمال ليحث على البحث عنها والاجتهاد في طلبها. وعلى هذا فإن ما ورد في القرآن الكريم والسنة والنبوية

من الأسماء الحسنى وجب معرفته وإحصاؤه قطعا، لأنهما مصدران يتلقى منهما أمر الله تعالى وشرعه. ثم يأتي الكون ليتبوأ المنزلة الثالثة في المصادر المعتمدة في معرفة الأسماء الحسنى، في ضوء معاني الوحي وتحت أصول الشريعة وقواعدها وكلياتها.

فما أفصح عنه الكون بلسان حاله من الأسماء، من خلال الآثار والأفعال الجارية فيه، فهو معتبر مثل ما يعتبر ما أفصح عنه القرآن الكريم والسنة النبوية. فالذي أنزل القرآن وتكلم به هو الذي خلق الكون وجعله ينطق بلسان حاله، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾(الإسراء:٤٤) ومعنى هذا أن الكون يعرف بأسماء الله الحسنى ويدل عليها، بل ينطق بها بلسان الحال.

ولا يخفى على النورسي أنّ هذا المسلك قد يثير اعتراض الكثير من أصحاب مسلك الظاهر فراح يقدم الأدلة على حجية الكون في التعريف بالأسماء الحسنى. والتمس لذلك خمسة أدلة وهي: الوحي، والعقل، والحس، والذوق، ومقتضى الإيمان.

دليل الوحي: ومعناه أن الكون إنما اكتسب حجيته القاطعة من دلالة القرآن الكريم القطعية عليه، فهو في الحقيقة دليل قرآني، لأن القرآن الكريم حافل بالأمر، صراحة وضمنا، بالتدبر في الكون والتفكر في الوجود. ولو لم يكن الكون موضع حجة وموطن عبرة ومجال علم ومعرفة، لما أمر الله تعالى بذلك. ولهذا فالآيات القرآنية في موضوع الكون وفائدة النظر فيه والتدبر في أحواله والتفكر في خصائصه، حاضرة عند النورسي في رسائله.

ثم إن تجلي الأسماء في الكون واستخلاصها من الوجود منهج معتبر في القرآن الكريم. فواضح مثلا من قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم:٥٠)

وغيرها من الآيات في توجيه النظر إلى حركة التجدد في الموجودات، إن القصد هو إيقاف المكلف على عملية الإحياء والإماتة الجارية في الكون من أجل الاهتداء إلى اسم"المحيي" واسم"المميت". وهذا ما عبر عنه النورسي بقوله:"إن القرآن الكريم – ببياناته المعجزة – يبسط أفعال الصانع الجليل ويفرش آثاره أمام النظر، ثم يستخرج من تلك الأفعال والآثار، الأسماء الإلهية.. ثم مَثَّلَ بقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٩) ثم قال: "يعرض القرآن الآثار الإلهية العظيمة التي تدل بغاياتها ونظمها على علم الله وقدرته، يذكرها مقدّمة لنتيجة مهمة وقصد جليل ثم يستخرج اسم الله "العليم".. إن القرآن الكريم ينشر منسوجات الصنعة الإلهية ويعرضها على نُظَّار البشر ثم يلفّها ويطويها في الخلاصة ضمن الأسماء الإلهية، أو يحيلها إلى العقل."[1] ومعنى يحيلها إلى العقل يَكِلُ مهمة اكتشافها واستخلاصها إليه.

وكذلك الإشارات المتجددة في القرآن الكريم إلى الخلاقية الإلهية والفعالية الربانية في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن:٢٩) وقوله عز وجل: ﴿فَعَّال لِمَا يُرِيدُ﴾ (البروج:١٦) وقوله عزّ من قائل: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاء﴾ (الروم:٥٤) وغيرها، إنما هي أمر ضمني بمعرفة آثار هذه الفعالية ولفت الأنظار إلى الأسماء الحسنى المقتضية لها.[2] فعلى هذا يعتبر النورسي التماس تجليات أسماء الله الحسنى في الكون مما أمر الله عز وجل به وحث عليه وضرب الأمثلة له للقياس عليها والاقتداء.

---

(١) "الكلمات" ص ٤٨٤.

(٢) ينظر: "**اللمعات**" ص ٥٨٤.

دليل العقل : وهو ما يدركه العقل من التجليات الظاهرة لأسماء الله الحسنى، حتى إن أحدا من العقلاء لا يمكنه تجاهلها. وبسبب شدّة ظهور هذه التجليات في الطبيعة أسند أهل الفلسفة المادية الفعل والقوة والخلق للطبيعة نفسها فعرفوا التجلي وتجاهلوا مصدره، فتوهموا أن تجلياته سبحانه المتجلية في صفحات الكون وطبقات الموجودات هي الذات الخلاقة، ففوض قسم من هؤلاء بعض آثار تجلياته سبحانه إلى الطبيعة. ولولا معقولية هذه التجليات ما أدركها هؤلاء، لكنهم وقفوا عند الآثار فجعلوها خلاقة، فهم "يشعرون بالتجلي الأعظم للخلاقية الإلهية والقدرة الربانية، ولكنهم يجهلون مصدر ذلك التجلي، ويعجزون عن أن يدركوا من أين تُدار تلك القوة العامة النابعة من تجلي القدرة الصمدانية.. فلأنهم يجهلون كل ذلك فقد شرعوا بإسناد آثار الألوهية إلى الذرات نفسها والى حركاتها عينها، فتوهموا أزلية المادة والقوة."[1] وإدراك الأثر والتجلي بالعقل يقتضي أيضا الأفعال التي تنتج عنها الآثار، والأفعال تقتضي العناوين المعبرة عنها، والعناوين تقتضي الأسماء المفصحة عنها.

ومن مقتضيات دليل العقل أيضا ما يتهيأ للإنسان عبر الزمان من معارف الحياة، وما يتراكم من العلوم الكونية بتراكم الخبرة بمقتضى قوانين العقل. فعلوم الكون كلها – في جوهرها – إنما هي نظر وبحث في الإنسان والكون ونظر في الآفاق بمطالعة كتاب الكون الجميل لاكتشاف خصائصه وصفاته وقوانينه التي هي تسبيحاته. فهذه العلوم، على اختلافها وتنوعها بتنوع مجالاتها من الكون، بمنزلة لغات مختلفة وألسنة متنوعة، تعبر عن معنى واحد هو جمال الله وجلاله، وتفصح عن آثار أفعاله، فهي بذلك تعرف بأسمائه. "إن لكل كمال، ولكل علم، ولكل تقدم، ولكل فن –أياً كان– حقيقة سامية عالية. وتلك الحقيقة

(١) "اللمعات" ص ٥٧٠.

تستند إلى اسم من الأسماء الحسنى.. فالهندسة – مثلاً – علم من العلوم، وحقيقتُها وغاية مُنتهاها هي الوصول إلى اسم (العدل والمقدِّر) من الأسماء الحسنى، وبلوغ مشاهدة التجليات الحكيمة لذلك الاسم بكل عظمتها وهيبتها في مرآة علم (الهندسة).

والطب – مثلاً – علم ومهارة ومهنة في الوقت نفسه، فمنتهاه وحقيقته يستند أيضاً إلى اسم من الأسماء الحسنى وهو (الشافي).."[1] وهكذا "كل علم من العلوم يستند إلى اسم من الأسماء الحسنى وينتهي إليه"[2] لأنه يترجم بلسانه الخاص تسبيحات الموجودات التي هي إعلانات عن اسم أو عدة أسماء.

فالعقل إذن يقضي أن الكون مصدر مُظهِر لمعرفة الأسماء الحسنى من خلال تجلياتها وآثارها.

دليل الحس: "فما دام الكون موجوداً بالفعل ولا يمكن إنكاره، فلا يمكن أن يُنكَر كذلك ما هو بمثابة ألوانِه وزينته، وضيائه وإتقانه، وأنواع حياته، وأشكال روابطه من الحقائق المشهودة، كالحكمة، والعناية، والرحمة، والجمال، والنظام، والميزان، والزينة، وأمثالها من الحقائق.. فمادام لا يمكن إنكار هذه الصفات والأفعال، فلا يمكن إنكار موصوف تلك الصفات، ولا يمكن إنكار فاعل تلك الأفعال.. الذي هو الحكيم، الرحيم، الجميل، الحكم، العدل."[3] فالكون مقطوع بوجوده، والأفعال والتصرفات التي يدبر بها ظاهرة، فكذلك الأسماء ظاهرة متجلية. وإن هذه الحقيقة من الظهور عند النورسي حتى إنه لا يملّ من تقريرها وإعادتها بصيغ متنوعة، حتى جعل الكون بمنزلة كتاب معروض للمشاهدة مثل

(١) "المكتوبات" ص ٢٩٠.
(٢) "الكلمات" ص ٧٤٩.
(٣) "اللمعات" ص ٥٣٨..

عرض القرآن الكريم للتلاوة. وكل جزء من الكون بمنزلة كلمة تفصح عن اسم أو أسماء من أسماء الله الحسنى. يقول رحمه الله: "هذا الكون بمثابة كتاب عظيم كُتبتْ في كل صحيفة من صحائفه مئات الكتب، وأدرجت في كل سطر منه مئات الصفحات، وخُطَّتْ في كل كلمة منه مئات الأسطر، وتُقرأ تحت كل حرف فيه مئات الكلمات، وحُفِظَ في كل نقطة من نقاطه فهرسٌ مختصر صغير يلخص محتويات الكتاب كله.. فهذا الكتاب بصفحاته وأسطره بل بنقاطه يدل دلالة واضحة ساطعة – بمئات الأوجه – على مصوِّرِه وكاتبه، حتى أن مشاهدة الكتاب الكوني العظيم هذا وحدها كافية للدلالة على وجود كاتبه، بل تسوقنا إلى معرفة وجوده ووحدانيته بما يفوق دلالة الكتاب على نفسه أضعافاً مضاعفة."[1] ويقول أيضا: "نعم، إن كل آية كونية من آيات قرآن الكون العظيم المنظور، تَعْرِض للأنظار معجزاتٍ نيّرات هي بعدد نقاطها وحروفها."[2] فالكون إذن يدل على أسماء الله الحسنى مثل دلالة الضوء على الشمس، فالاسم الواحد يتجلى من خلال ما لا يعد من الأفعال والتصرفات، ويشاهد في آفاق الكون كله وليس في جزء واحد. "إن كل شيء في الوجود بمثابة آية جليلة، ومكتوب رباني، وكتاب بليغ، وقصيدة رائعة، يستطيع كلُّ ذي شعور أن يطالعها ويتعرّف من خلالها على تجلّي أسماء الفاطر الجليل. أي إن كل شيء يعبّر عن معانيه الغزيرة لقرائه الذين لا يحصيهم العد."[3] وبناء على دليل الحس هذا يقرر النورسي أن الحواس والجوارح والغرائز إنما خلقها الله عز وجل ووهبها للإنسان لتكون أداة للتواصل مع الكون فيحس، ويلمس، ويذوق، ويسمع، ويشاهد بقصد إدراك التجليات ومعرفة الأسماء المقتضية لها. وهذا واضح من قوله: "إن الله سبحانه وتعالى،

---

(١) "اللمعات" ص ٥٢٨.

(٢) "اللمعات" ص ٥٣٠.

(٣) "اللمعات" ص ٥٨٠ – ٥٨١.

بألوهيته الجليلة، ورحمته الجميلة، وربوبيته الكبيرة، ورأفته الكريمة، وقدرته العظيمة، وحكمته اللطيفة، قد زيّن هذا الإنسان الصغير بحواسَ ومشاعر كثيرة جداً، وجمّله بجوارح وأجهزة وأعضاء مختلفة عديدة؛ ليُشعره طبقات رحمته الواسعة، ويذيقه أنواع آلائه التي لا تعد، ويعرّفه أقسام إحساناته التي لا تحصى، ويُطلعه عبر تلك الأجهزة والأعضاء الكثيرة على أنواع تجلياته التي لا تُحد لألف اسم واسم من أسمائه الحسنى، ويحببها إليه، ويجعله يحسن تقديرها حق قدرها."[1]

دليل مقتضى الإيمان: ومعناه أن من لوازم أركان الإيمان أن الحياة الدنيا ليست إلاّ صحائف متجددة بتجدد الأفعال والتصرفات التي تعبر عنها الأسماء. يقول رحمه الله: "ثم إن الإيمان أراني بفضل أسرار القرآن الكريم أن أحوال الدنيا وأوضاعها المنهارة في ظلمات العدم بنظر الغفلة، لا تتدحرج هكذا في غياهب العدم – كما ظنّ في بادئ الأمر – بل إنها نوع من رسائل ربانية ومكاتيب صمدانية، وصحائف نقوش للأسماء السبحانية قد أتمّت مهامها، وأفادت معانيها، وأخلفت عنها نتائجها في الوجود، فأعلمني الإيمان بذلك ماهية الدنيا علم اليقين."[2] ومن ذلك أيضا تمييزه بين أوجه ثلاثة للدنيا متداخلة. وجه الدنيا المتوجهة إلى الأسماء الإلهية الحسنى، فهي مرآة لها، ووجه الدنيا المتوجهة نحو الآخرة، فهي مزرعتها، ووجه الدنيا المتوجهة إلى أرباب الدنيا وأهل الضلالة، فهي لعبة أهل الغفلة ولهوهم. وإنما مدح الله منها الوجه الأول والثاني فدلَّ على أنه جعلها مرآة لأسمائه، فهي بذلك" كتاب مفتوح يتجدد للباري المصور، فيمحو فيه ما يشاء ويثبته بحكمة. وكل ربيع فيها رسالة مرصعة مذهّبة، وكل صيف فيها قصيدة

(١) "الكلمات" ص ٧٧٤.
(٢) "اللمعات" ص ٣٥٣.

منظومة رائعة، وهي مرايا تتجدد مظهرة تجليات الأسماء الحسنى للصانع الجليل."[1] ويتفرع عن الإيمان دليل الكشف والذوق.

دليل الكشف والذوق: ومعناه أن تمكن الإيمان في القلب ورقي صاحبه في مدارج السلوك يفتح نوافذ الإشراق، فيطل السالك على الكون، فلا يحس سوى بوجدان واحد وهو أن الكون مرآة لتمام الجلال وكمال الجمال. وفي هذا يقرر النورسي أن أئمة أهل الحقيقة كلهم – مع الاختلاف في مشاربهم والبعد في مسالكهم – يعتقدون، مستندين إلى الذوق والكشف، ويقررون بالإجماع والاتفاق أن الحسن والجمال الموجود في الموجودات كلها إنما هو ظل جمالٍ مقدس لواجب الوجود وحسنه المنزّه، ولمعاته من وراء حجب وأستار.[2] فكمال هذه الآثار المشهودة في هذه الكائنات بلا قصور ولا فطور، يشهد بالمشاهدة الحدْسية على كمال أفعالٍ مستترة خلفها، وكمال هذه الأفعال التي هي كالمشهودة، "يشهد بالبداهة على كمال أسماء ذلك الفاعل؛ وكمال تلك الأسماء، يشهد بالضرورة على كمال الصفات؛ إذ الأسماءُ ناشئة من نِسَب الصفات، وكمالُ الصفات يكشف باليقين عن كمال الشؤون الذاتية التي هي مبادئ الصفات القدسية، وكمالُ الشؤون يشهد بحق اليقين على كمال الذات بما يليق بجنابه سبحانه."[3]

وعن هذا المعنى أيضا عبّر ابن عطاء الله السكندري في حكمه بقوله: "دَلَّ بِوجودِ آثَارِهِ عَلٰى وُجُودِ أَسمَائِهِ، وَبِوُجُودِ أَسمَائِهِ عَلى ثُبُوتِ أَوْصَافِهِ، وَبِوُجُودِ أَوْصَافِهِ عَلٰى وُجُودِ ذَاتِهِ، إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ الوَصْفُ بِنَفْسِهِ. فَأَهْلُ الجَذْبِ يَكْشِفُ لهمْ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلٰى شُهُودِ صِفَاتِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلٰى التَّعَلُّقِ بِأَسمَائِهِ،

---

(١) "اللمعات" ص ٣٥٨.

(٢) ينظر: "الشعاعات" ص ٨٧.

(٣) "المثنوي العربي النوري ص ٥٢.

ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ آثَارِهِ. وَالسَّالِكُونَ عَلى عَكْسِ هَذَا، فَنِهَايَةُ السَّالِكِينَ بِدَايَةُ المَجْذُوبِينَ لكِنْ لا بِمَعْنَىً وَاحِدٍ، فَرُبمَّا التَقَيَا في الطَّرِيق ، هٰذَا في تَرَقِّيهِ وَهٰذا في تَدَلِّيهِ."(1) وقد ميّز هنا بين منهجين عند أهل الكشف وهما طريق التدلي وطريق الترقي، وكلاهما يقرر أن التصرفات الجارية في الكون تعرف بالأسماء الحسنى ببداهة الوجدان الصافي الصادق.

وعبَّر بديع الزمان النورسي عن الترقي والتدلي بالسَيْرِ الأنفسي والسير الآفاقي: "فالسير الأنفسي يبدأ من النفس ويصرف صاحبُ هذا السير نظرَه عن الخارج ويحدّق في القلب مخترقًا أنانيته. ثم ينفذ منها ويفتح في القلب ومن القلب سبيلا إلى الحقيقة.. ومن هناك ينفذ إلى الآفاق الكونية فيجدها منوَّرةً بنور قلبه، فيصل سريعًا إلى أن الحقيقة التي شاهدها في دائرة النفس يراها بمقياس أكبر في الآفاق، وأغلب طرق المجاهدة الخفية يسير وفق هذه السبيل. وأهم مقاصد هذا السلوك هو كسْرُ شوكة الأنانية وتحطيمها، وترك الهوى وإماتة النفس.

أما الطريق الثاني فيبدأ من الآفاق ويشاهد صاحبُ هذا النهج تجلياتِ أسماء الله الحسنى وصفاتِهِ الجليلة في مظاهر تلك الدائرة الآفاقية الكونية الواسعة، ثم ينفذ إلى دائرة النفس فيرى أنوار تلك التجليات بمقاييس مصغَّرةٍ في آفاق كونه القلبي، فيفتح في هذا القلب أقربَ طريق إليه تعالى، فيصل إلى مقصوده ومنتهى أمله".(2)

ثم يقرر النورسي دليلا آخر، شهوديا ومنطقيا في الوقت نفسه، كلا المسلكين ينتهي إليه، المسلك الأنفسي والآفاقي وهو الحدس القلبي الصادق، والشعور

---

(1) الحِكم العطائية بشرح أبي العباس أحمد بن عجيبة المسمى "إيقاظ الهمم في شرح الحكم" ص ١٦ (المكتبة التوفيقية).
(2) ينظر: "المكتوبات" ص ٥٧٥.

الوجداني القوي، والإدراك العقلي لوجود القصد إلى إشهاد الكمال والتعريف بالجمال فيقول: "إن الجمال الذي هو في منتهى الكمال لابد أن يَشهَد ويُشهِدَ جمالَه. وإن الكمال الذي هو في منتهى الجمال لابد أن يَشهَد ويُشهِد كمالَه. فبناء على هذا الدستور العام فإن البارئ المصور سبحانه الذي أبدع كتاب الكون العظيم هذا، يعرِّف جمالَ كمالِه ويحبّبه بألسنةِ مخلوقاته – ابتداءً من أصغر جزئي إلى أكبر كلي– فيعرِّف سبحانه ذاتَه المقدسَّة، ويفهم كمالَه السامي، ويُظهر جمالَه البديع، بهذا الكون الرائع، وبكل صحيفة فيه، وبكل سطر فيه، وبكل كلمة فيه، بل حتى بكل حرف وبكل نقطة من كتابه العظيم هذا."[1]

فعلى هذه الأدلة، وبناء على هذه الأسس، انطلق النورسي بيقين صادق، ومنهج واضح سالك يكتشف أسماء الله الحسنى من خلال الأفعال الجارية في الكون، والتصرفات المعلنة في الوجود، فلا تمر عليه حالة نفسية شخصية، ولا واقعة من وقائع الحياة الدنيا، أو مشهد من مشاهد حياة الموجودات الكبيرة والصغيرة إلا نفذ منه إلى الاسم أو الأسماء التي يستند إليها هذا الحدث أو تلك الواقعة. ولهذا فالكون والطبيعة في رسائل النور بمنزلة معرض يعرض فيه الخالق الجليل الجميل آثار أوامره التكوينية، ويعلن عليهم أسماءه في كل لحظة.

وأسوق هنا مثالا يقاس عليه غيره، وهو مثال عرضه النورسي في أكثر من مناسبة. فأول ما ينطلق منه هو القراءة في صحائف الكون، فيأخذ بعقل القارئ وقلبه في سياحة فكرية وروحية، يوقفه على مظاهر الإتقان في الخلق والدقة في التدبير. فيتوقف مثلا عند ما يشاهد في الكون من التبدل والتجدد لعملية الإحياء والإماتة. إنها عملية تجدد مستمر للموجودات من غير توقف وتصريف الأحوال بين الحياة والموت في كل حين. إن عملية الإحياء والإماتة لا تتوقف في الكون،

---

(١) "اللمعات" ص ٥٣٠.

ففي كل لحظة أحياء يولدون، وأموات يزولون في عالم الإنسان وفي عالم الحيوان وفي عالم النبات وفي عالم الجماد وفي سائر الموجودات مهما اختلفت خصائصها. في كل ثانية من الزمن تشهد الأرض موكب جنازة كبيرة لمن أنهوا مهامهم من الموجودات، وفي الحين نفسه تشهد موسما كبيرا لمواليد جديدة تتسلم مهامها. ففي لحظتنا هذه كم من الموجودات تدخل الأرض في عالم الإنسان والحيوان والنبات، وكم منها تخرج منها وتغادرها. إنها تجليات لآثار اسم"المحيي" واسم"المميت" التي تمنح للحياة والكون حيوية من خلال التجدد. ولو توقف اسم منهما عن التجلي لوقع الخلل. فليتصور مثلا لو لم يكن لاسم المميت تجل، وكل من ولد بقي على الأرض، وليتصور الفرد الواحد لو أن جميع أجداده بين يديه مع الهرم والشيخوخة والمرض والحاجة إلى التكسب، كيف تتعسر حياته. وكذلك لو تصور توقف تجلي اسم المحيي، فتزول الموجودات من غير أن تتجدد. فلتذهب العقول في تصور النتائج، ولتفتح مراكز الدراسات المستقبلية ولتستعن بأدق مناهج الإحصاء والتقدير لتصور نتائج توقف الإحياء أو الإماتة لفترة ولو قصيرة من الزمن!!! إن تجلي اسم المحيي واسم المميت يمنح الكون جمالا لأن الموت والحياة ليسا سوى ستائر للتجديد. إن حركة تجاذب دواعي الموت والحياة المشهودة أمامنا، والتي تتكرر في كل لحظة على مدى الدهور والأزمان – في قوة وضوحها – مثل لوحة إعلان تشير إلى حي قيوم فوق الموت والحياة لأنه خالق الموت والحياة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:١–٢) وهكذا تتآلف حقائق الكون بحقائق الوحي.

والقاعدة النظرية لهذا المنهج هي التي عَبَّر عنها بقوله: "فكتاب الكون الكبير هذا إذ تعلمنا آياته التكوينية الدالة على وجوده سبحانه وعلى وحدانيته، يشهد

كذلك على جميع صفات الكمال والجمال والجلال للذات الجليلة.. لأن ظهور الكمال في أثر ما يدل على كمال الفعل الذي هو مصدره.. وكمال الفعل هذا يدل على كمال الاسم، وكمال الاسم يدل على كمال الصفات، وكمال الصفات يدل على كمال الشأن الذاتي، وكمال الشأن الذاتي يدل على كمال الذات – ذات الشؤون – حدسا وضرورة وبداهة."[1]

ولهذا وجد عند النورسي أسماء لم ترد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية صراحة على أنها من أسماء الله، وليست عند غيره ممن قصد إلى إحصاء أسماء الله الحسنى. وسبب ذلك أنه يرى أنها ليست محصورة فيما ذكر صراحة في القرآن الكريم والسنة، ثم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم رغب في إحصاء تسعة وتسعين منها ولم يبينها، وورد عنه صلى الله عليه وسلم في الدعاء ما يدل على إمكان أن يفتح الله على عبد من عباده فيعرفه اسما من أسمائه وهو: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك.."[2] فدلّ هذا على أن المجال مفتوح للنظر كل بحسبه. ولهذا اختلف علماء الإسلام في بعض الأسماء فمنهم من أثبتها ومنهم من لم يثبتها. ولما كان منهج النورسي في إحصاء الأسماء الحسنى يقوم على قراءة الكون وتدبر الخلق، فما أفصح عنه الكون من خلال الأفعال والتصرفات الجارية فيه، وله في نصوص الوحي من المعاني ما يشهد له ويدل عليه ولو بالمفهوم العام، فإنه يدل على اسم من الأسماء الحسنى، لأن كل فعل وتصرف يستند إلى اسم أو أسماء. فمن الأسماء التي لم أقف عليها إلا عنده: المطلوب، والمحبوب، والمقصود، والمزين، والصانع، والمذكور، والمعروف، والمعبود

(١) "الكلمات" ص ٣٤٢.

(٢) ينظر "الأسماء والصفات" للبيهقي، ص ٢٤ – ٢٧. (ط ١ – ١٤١٧ – ١٩٩٧. دار الجيل).

والعطوف والفياض. وسبب ذلك أنه اتخذ الكون دليلا واستمع إلى تسبيحات الموجودات وهي تعرف بخالقها لأنه ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء:٤٤) فاسم "المزين" مثلا لم يرد صراحة في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية، لكن تسبيحات الكون تدل عليه من خلال ما يشاهد من أعمال التجميل والتزيين، ثم إن هذا المعنى المقروء في الكون يشهد له القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك:٥) وفي معرفة اسم "المعروف" واسم "المذكور" في تسبيحات الموجودات وارتشاف تجلياتهما في الكون يقول رحمه الله: "سبحانك ما عرفناك حق معرفتك، يا معروف بمعجزات جميع مصنوعاتك، وبتوصيفات جميع مخلوقاتك، وبتعريفات جميع موجوداتك. سبحانك ما ذكرناك حق ذكرك، يا مذكور بألسنة جميع مخلوقاتك، وبأنفس جميع كلمات كتاب كائناتك، وبتحيات جميع ذوي الحياة من مخلوقاتك لك، وبموزونات جميع الأوراق المهتزة الذاكرة في جميع أشجارك ونباتاتك."[1] ثم إن أسماء الله لا يمكن الإحاطة بها، وغاية الممكن بالنسبة للمكلف معرفة ما يدل عليه الكون المخلوق لأنه إنما يعرف خالقه من خلال خلقه، لأنه تعالى احتجب من شدّة ظهوره، وظهر من فرط نوره الذي يتجلى به على المخلوقات. فله ضمن مراتب ربوبيته شؤون وعناوين وأسماء مختلفة، وكل اسم له يتجلى في ما يناسبه من عوالم الكون، فكل حقائق الأشياء وأمور العالم وحوادث الوجود تستند إلى أسمائه.

ومن مُلَح العلم التي يحسن ذكرها في هذا المقام أن ولوع النورسي بتجليات أنوار أسماء الله الحسنى في الكون أنه سمى رسائله بما يدل على النور والضياء من باب التخلق بالحظ البشري من اسم الله تعالى "النور" فسمى رسائله "رسائل

---

(١) "اللمعات" ص ٤٦٠. وينظر "المثنوي العربي النوري" ص ١٣٤.

النور" وفيها "اللمعات"، و"الشعاعات". وحتى "الكلمات" و"المكتوبات" فإنها غير خارجة عن هذا السر لأن الكون عنده مكتوبات ربانية وكلمات تسبيح بلسان حال الموجودات.

وفي معرفة الأسماء الحسنى من خلال تجلياتها في الكون يقف النورسي وقفات خاصة عند تجليات الاسم الأعظم، وهذا ما نبينه في المسألة الآتية.

٢ ـ اسم الله الأعظم وأنواره الستة:

اختلف العلماء في تعيين اسم الله الأعظم لاختلاف الآثار الواردة في ذلك. وأقوى ما ورد فيه حديث بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ سَمِعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم رَجُلا يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: "اللهُم إِنّي أَسْأَلُكَ بِأَنّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ الله لا إِلٰهَ إِلاّ أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ الله بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطٰى."(١) والراجح أن الله تعالى أخفاه كما أخفى ساعة الجمعة وليلة القدر، رحمة بعباده حتى يجتهدوا في دعائه بجميع أسمائه. وقيل إن الحكمة أن يسألوه بحسب الحال، فمن أذنب سأل باسم الغفور، ومن ضاق عليه الرزق دعاه باسم الرزاق وهكذا.

وذهب النورسي مذهب القائلين بأن الاسم الأعظم مؤلف من عدة أسماء، وحكى الخلاف في تعيينه عن العلماء ومنها قول الإمام علي رضي الله عنه وهو أن الاسم الأعظم تجمعه الأسماء: الفرد، والحي، والقيوم، والحكم، والعدل، والقدوس.(٢) واختار النورسي هذا الذي ورد عن علي رضي الله عنه فجعل الاسم الأعظم مجموعا في ستة أسماء وهي: الحي، والقيوم، والفرد، والحكم، والعدل،

---

(١) جامع الترمذي" كتاب الدعوات، باب ما جاء في جامع الدعوات عن النبي صلى الله عليه وسلم.
(٢) ينظر: "اللمعات" ص ٥٧١.

والقدوس. وفي سبب ذلك يقول: "إن هذه الأسماء والأنوار الستة للاسم الأعظم، قد عمّت الكون كله وغطت الموجودات قاطبة ولَفَعَتْها بأستار مزركشة ملونة بأزهى الألوان المتنوعة وأبدع النقوش المختلفة وأروع الزينات المتباينة."[1] فـ "الحي" منح الموجودات الحياة. و" القيوم" منحها القيام والبقاء والدوام. و" الفرد" ضم جميع الكائنات بأنواعها وأجزائها واستوعبها ضمن وحدة واحدة. و"الحكم" منح كل موجود ما يستحق من نظام وانسجام. و"العدل" يدير جميع الكائنات بموجوداتها ضمن فعالية دائمة بموازينه الدقيقة ومقاييسه الحساسة ومكاييله العادلة، فلو انفلت من تجلي اسم (العدل) لحل الهرجُ والمرج في الكون. وأما " القدوس" فقد جعل موجودات الكائنات نظيفة طاهرة، صافية زكية، مزينة وجميلة.[2] وذكر النورسي هذه الأسماء المكونة للاسم الأعظم في اللمعة الثلاثين من رسائله، وبين وجه كونها الاسم العظم، وبين تجلياتها في الوجود، وذكر الآيات القرآنية التي اهتدى من خلال أنوارها إلى هذه الأسماء وتجلياتها.

نخلص من كل ما سبق أن إحصاء أسماء الله الحسنى عند النورسي يتم أولا بمشاهدة تجلياتها في الكون ونسبة كل أثر في الوجود إلى الاسم الذي يستند إليه. ثم تأتي الغاية المرجوة والفائدة المقصودة وهي التحقق بهذه الأسماء والتخلق بالحظ البشري منها وهذا ما نُبَيِّنُهُ في المسألة الآتية.

٣ ـ مقتضيات الأسماء الحسنى:

يقصد في هذا السياق بالمقتضيات ما يلزم من الآثار والفوائد التي تحصل لمن سلك مسلك التجلي، والتي يتم بها التحقق بأسماء الله الحسنى ويكتمل معنى

(١) "اللمعات" ص ٥٩٣.

(٢) ينظر "اللمعات" ص ٥٩١ – ٥٩٢.

إحصائها. وهذه المقتضيات هي لزوم الدار الآخرة، والعيش في كنف تجليات الأسماء الحسنى والتخلق بها، وارتشاف جمالها.

لزوم الدار الآخرة: إن "تجليات جميع الأسماء الحسنى لخالق الكون المتجلّية في أرجاء العالم كله، تقتضي بالبداهة وجود عالم آخر خالد، وتدل دلالة واضحة على وجود الآخرة."[1] فكل اسم من الأسماء الحسنى الظاهرة آثاره في عوالم الدنيا يقتضي الآخرة ويستلزمها. فمن يعرف الأسماء بمنهج التجلي يحس بوجدان صادق وبعقل معتبر بأن ما يظهر على الكون من علامات الجلال وآيات الجمال، وما يجري فيه من الأفعال والتصرفات ليست سوى ستائر تخفي وراءها عالما آخر هو موطن الحسن الحقيقي، وأن كل شيء في الدنيا يتطلع إلى ذلك العالم ويستشرفه. وقد فصل النورسي هذه الحقيقة في الكلمة العاشرة وقدم أمثلة من بعض الأسماء الحسنى وكيف تعرف تجلياتها بالحشر والآخرة والجنة والنار.[2] واعتبر هذه الحقيقة "الدستور الأعظم" الذي أنزله الله في كتابه ونبّه العقول والقلوب إليه في قوله عز وجل: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الروم:٥٠) وهي إشارة وتنبيه إلى أن تجليات اسم"المحيي" في الكون وتجدد هذه التجليات يقتضي بداهة يسر البعث والإحياء للكون كلّه بعد موته. وعلى هذا الدستور تعامل النورسي مع باقي الأسماء الحسنى، واعتبر هذه الآية إنما تعلم منهجا للقياس عليه ولم تأت لحصر المسألة في اسم المحيي فقط. فاسم الله "الجميل" يتجلى في الكون فيقتضي الدار الآخرة ويستلزمها. ووجه ذلك أن جمال الكون الظاهر، يدل على جمال خالقه لأنه لا يؤخذ الجمال إلا من الجميل. وواضح أن

(١) "اللمعات" ص ٣٤٨.

(٢) ينظر "الكلمات" ص ٦٥ – ٩٥.

جميع الناس كما قال النورسي "يغادرون دور الضيافة (أي الحياة الدنيا) هذه بسرعة ويغيبون عنها بلا ارتواء من نور ذلك الجمال والكمال، بل قد لا يرون إلا ظلالا خافتة منه عبر لمحات سريعة. فالرحلة إذن منطلقة إلى مشهد دائم خالد."(١) ولأنه "نحن نشاهد رحلة كل شخص واختفاءه بسرعة في دار ضيافة الدنيا هذه، دون أن يستمتع بإحسان ذلك السخاء إلا نزرا يسيرا بما يفتح شهيته فقط، ودون أن يرى من نور ذلك الجمال والكمال إلا لمحة خاطفة. إذن الرحلة منطلقة نحو متنزهات خالدة ومشاهد أبدية."(٢) فاستحضار جمال الخالق عز وجل من خلال تجلياته في الكون، والنظر إلى كل الجمال المبثوث في الوجود وكونه ظلا يسيرا من سنا جماله تعالى، يورث الشوق إلى أصل الجمال وكماله ويحمل على التشوّق في كل حين إلى لقاء الجليل الجميل للتنعم بالجمال الحق. "فكل إنسان يشعر في وجدانه بلهفة شديدة لرؤية سيدنا سليمان عليه السلام الذي أوتي الكمال ويشعر أيضاً بشوقٍ عظيم نحو رؤية سيدنا يوسف عليه السلام الذي أوتي شطر الجمال، فيا ترى كم يكون مدى الشوق واللهفة لدى الإنسان لرؤية جمال مقدس وكمال منزّه، الذي من تجليات ذلك الجمال والكمال، الجنة الخالدة بجميع محاسنها ونعيمها وكمالاتها التي تفوق بما لا يحد من المرات جميع محاسن الدنيا وكمالاتها.."(٣) فلا يمكن لصاحب الجمال المطلق، الذي يُعَرِّف نفسه إلى عباده ويحبب نفسه إليهم، من خلال ما يعرض أمامهم من قبسات نوره وظلال جماله في الدنيا، ألا يكون له لقاء مع عباده المحسنين المحبين له يوقفهم فيه على تمام الارتواء من جماله عز وجل. وهكذا فإن تجليات اسم الجميل في الحياة الدنيا تثبت نعيم الجنة وسعادتها الغامرة بالنظر إلى وجه الجليل الجميل.

---

(١) "المكتوبات" ص ٥١.

(٢) "الكلمات" ص ٧٢.

(٣) "الكلمات" ص ٧٧٩.

وبتعدد الأسماء تتعدد الأدلة على ضرورة الآخرة والجنة والنار. فليذهب العقل في تصور عدد التجليات لأسماء الله الحسنى في الدنيا كل مذهب، وليتصور قدر حماقة من ينكر الدار الآخرة. فالآخرة إذن موجودة قطعا. "وحيث إن الدنيا موجودة فعلا، وفيها من الآثار الظاهرة للحكمة والعناية والرحمة والعدالة، فالآخرة موجودة حتما وثابتة بقطعية ثبوت هذه الدنيا. ولما كان كل شيء في الدنيا يتطلع من جهة إلى ذلك العالم، فالسير إذن والرحلة إلى هناك، لذا فإن إنكار الآخرة هو إنكار للدنيا وما فيها"[1] لأن جميعَ الأسماء الحسنى المتجلية في تدبير الكون تقتضي الآخرة وتستلزمها.

العيش في كنف تجليات الأسماء الحسنى والتخلق بها وارتشاف جمالها: لقد كان للنورسي ولوع خاص باسم الله "الجميل" لأنه السكة المضروبة على غيره من الأسماء، فكل اسم يستمد منه ويمتزج به في معناه ومغزاه، وفي آثاره وفوائده العملية. فالله جميل في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه. وهذا وجه وصف أسمائه بالحسنى. والحسنى مؤنث الأحسن. ومعنى كونها حسنى أنها جمعت من الحسن كماله وبلغت من الجمال تمامه. فكل اسم من أسماء الله جميل، وآثاره جميلة ولو كانت شرا في ظاهرها مثل المصائب والموت، فهي ليست سوى أستار لجمال أفعال الله الحكيم الجليل الجميل تبارك وتعالى.[2]

إن من يصدر عن تجلي الأسماء يساق تلقائيا إلى العيش في كنف جمالها وتتبع بهائها في الكون والتخلق بالحظ البشري منها. ومعناه اتخاذ الحياة الدنيا بجميع مظاهرها سلوكا إلى الله تعالى. فإذا كان الكون كله معرضا لتجليات أسماء الله

---

(١) "الكلمات" ص ٩٣.

(٢) ينظر: "نحو نظرية إسلامية للجمال من خلال رسائل النور" ضمن أعمال ندوة "الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر" ص ٧٤–٧٦، (ط١– ١٤٢٧ – ٢٠٠٦، سوز للطباعة والنشر– إسطنبول).

الحسنى ومرآة لجماله تعالى وبهائه وجلاله، وكانت كل تجليات الأسماء تستلزم الآخرة، فإن الكون يغدو كله مسجدا يلهج كل ما فيه من الموجودات بذكر الله ويعرف بجماله ويعلن عن بهائه تعالى، فيكون الإنسان العارف بأسماء الله الحسنى، في جميع أوقاته وعلى جميع أحواله وفي كل مواطن وجوده، في كنف جمال معنوي غامر، ولذة روحية سامية لا تنقطع وإنما تتجدد بتجدد لمعات أسماء الله الجميلة. وهكذا يربط هذا السالك التواصل الدائم مع الكون من حوله يرى تجليات جمال ربه تعالى تتجدد أمامه، فيتوجه إلى الكون بالمحبة لأنه يرى فيه معرضا لجمال الله وبهائه. وبهذا تكون الدنيا بلذاتها ونعيمها وبهائها طريقا سالكا إلى الله تعالى، فتجتمع للعارف لذتان، اللذة المادية الشهوية، لذة الحياة الدنيا، واللذة المعنوية بالارتقاء الروحي والسمو المعنوي برؤية تجليات جمال الله تعالى والشوق إليه.

ثم إن من يستحضر هذه المعاني ينظر بعين التحسين والتقدير لكل ما خلق الله، لأنه مرايا جماله، فلا يستجيز لنفسه أبدا أن يدنس ما جمل الله أو يقبح ما حسنه، فيعظم الحرمات، ومنها حرمة الإنسان لأنه يرى فيه تجليات جمال أسماء الله تعالى "الخالق" "البارئ" "الرزاق" "المصور" المحيي" "المميت". ولا يمكن لمن ينظر بمنظار تجليات أسماء الله الحسنى، أن يفسد جمال شجر أو نبات أو ماء لأنه يرى فيه فعل التحسين والتجميل من الخالق العظيم الجميل. ولهذا فإن فقه أسماء الله الحسنى وتجلياتها أصل عظيم لحماية البيئة التي هي من المعضلات في العصر الحاضر. فمن يتخذ الكون مذكرا بجمال الله وعاكسا لجلاله وبهائه لا يحتمل أن يرى فيه قبحا. ولهذا الوجه جعل الرسول حماية البيئة وحفظ جمالها من شعب الإيمان في قوله: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عند الطريق، والحياء شعبة من الإيمان."[1]

---

(١) صحيح مسلم " كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان.

ومن لوازم ذلك أيضا محبة الله تعالى والتشبه به في جماله، والتخلق بصفاته مثل جمال الصورة، والتخلق بالرحمة والعفو والعدل وغيرها من الصفات التي هي من جمال الله، فيكون العارف جميلا في صورته ومظهره وملبسه وفضائه، جميلا في أخلاقه وسلوكه لأن الأخلاق هي هندسة الجمال في السلوك والتصرف، جميلا في عقله وتفكيره لأنه لا يفكر سوى في الجمال والجلال، وهذا هو غاية الجمال وتمامه على ظهر الأرض، جمال الصورة وجمال العقل وجمال الأخلاق.

إن نظرية التجلي تحل ألغاز الحياة لأن بها تغدو الحياة الدنيا مزرعة للآخرة ومعرضا لتجليات أسماء الله الحسنى.

ولا تفوتني هذه الفرصة أن أذكر أنني، بحكم عنايتي بالسنة النبوية وعلومها وفقهها، توقفت طويلا عند حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ)[1] لأن كل ما قرأته في تفسيره عند شراح الحديث لم يشف الغليل في حل ما يبدو من الإشكال، حتى اطلعت على تناول النورسي له بمنهج نظرية تجلي أسماء الله الحسنى وهو قوله: "ولهذا الحديث الشريف مقاصد جليلة كثيرة، منها: أن الإنسان مخلوق على صورة تُظهر تجلي اسم الله (الرحمن) إظهاراً تاماً."[2] ومعناه أن الإنسان جزء من الموجودات، يتجلى فيه ما يتجلى فيها من آثار أسماء الله الحسنى. فالله تعالى وهو الحكيم العليم خلق الإنسان على صورة تعرفه بربه وتدله على أسمائه وترشده إلى صفاته عز وجل. فوحدانية الله تعالى مثلا، التي يعبر عنها اسم الله "الفرد"، جعل الله تعالى لها إعلانا في صورة الإنسان وخلقه، من خلال ما منح الله تعالى لكل فرد من البشر من السمات والخصائص التي ينفرد بها ولا يشاركه فيها غيره، مثل صورة وجهه

---

(١) صحيح البخاري" كتاب الاستئذان، باب بدء السلام.

(٢) "اللمعات" ص ١٥٣.

وخصائصه ومميزات شخصيته. إن ختم التوحيد يتجلى في وجه كل إنسان لأن "لكل إنسان علامة فارقة في وجهه تميزه عن غيره. فالذي لا يستطيع أن يضع تلك العلامات في كل وجه، ولا يكون مطلعا على جميع الوجوه السابقة واللاحقة منذ آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، لا يمكنه أن يمد يده من حيث الخلق والإيجاد ليضع تلك الفوارق المميزة الهائلة في ذلك الوجه الصغير لإنسان واحد. نعم إن الذي وضع في وجه الإنسان ذلك الطابع المميز.. لا بد أن أفراد البشر كافة هم تحت نظره وشهوده وضمن دائرة علمه حتى يضع ذلك الختم للتوحيد في ذلك الوجه.. وكما أن تشابه الأعضاء.. في وجوه البشر كافة دليل قاطع على وحدانية خالق البشر سبحانه وتعالى، كذلك فإن العلامات الفارقة الموضوعة على كل وجه – لصيانة حقوق كل فرد في المجتمع، ولمنع الالتباس، وللتمييز.. – هي الأخرى دليل واضح على الإرادة المطلقة والمشيئة الكاملة لذلك الخالق الواحد سبحانه وتعالى، وآية بديعة جلية أيضا للأحدية، بحيث إن الذي لا يقدر على خلق جميع البشر والحيوانات والنباتات بل جميع الكون لا يمكنه أن يضع تلك السمة المميزة في أحد."[1]

فبهذه الخطوات كلها وعَبْرَ هذا المسلك الذي يمتد عبر حياة الإنسان في الدنيا ويَعْبُرُ منه إلى الآخرة، يتم إحصاء أسماء الله الحسنى في نظر النورسي. وكل هذا الذي ذكرناه قد أقام عليه النورسي الحجة مرات ومرات في رسائله، وذلك من فرط يقينه بسلامة هذا المسلك، وقوة اللذة والجمال الذي وجده فيه، فأحب بكل قواه أن يجد غيره مثل ما وجد. ولهذا فإن هذا العرض السريع إنما هو مفتاح من مفاتح رسائل النور، ومدخل لمنهج إحصاء أسماء الله الحسنى فيها، فلا يغني بحال عن قراءة رسائل النور ليقف القارئ بنفسه على دفاع النورسي القوي

(١) "اللمعات" ص ٥٤١ – ٥٤٢.

المستميت عن هذا المسلك، وتفننه في عرضه وإقامة الحجج والأدلة عليه على امتداد رسائله، وكثرة الأحداث التي مر منها في حياته.

أختم هذا البحث بكلام أستاذنا الفاضل إحسان قاسم الصالحي، وهو ممن ذاق هذه التجربة وعاش آثارها في حياته فقال، وهو يبين خصائص هذا المسلك وفوائده وآثاره العملية في صميم الحياة الإنسانية الفردية والجماعية، وهو في ذلك ينطق باسم كثير من طلبة النور، فيقول وهو يذكر الفوائد التي تورثها رسائل النور: "فعلمتنا (أي رسائل النور).. كيف نتعامل مع تجليات الأسماء الإلهية الحسنى المتجلية في الوجود كله، منبهة إيانا أن الإنسان ابتداء من أسرار نفسه وأعماق حياته إلى جزئيات الكون الواسع، إن لم يتلق معاني تلك الأسماء الجليلة في حياته لتنورها، سوف لا يرى الجمال في الوجود ولا يتعظ بالعبر والحكم في الحوادث. حيث لفتت أنظارنا إلى أن الموجودات كلها تفتقر إلى معنى في ذاتها، وتحتاج لمعرفة ماهيتها إلى اسم من الأسماء الحسنى، فشعرنا أننا نزاول تفاعلا ذوقيا وقلبيا وروحيا وفكريا مع معاني الأسماء الحسنى، لا تعاملا نظريا، بل استكشافيا، حتى أصبحت هذه النظرة لدينا ملكة وجزء من فطرتنا، فشاهدنا أنوار تجليات تلك الأسماء الحسنى فيما حولنا من موجودات وفيما يجري من حوادث يومية حولنا، بل في كل جزئية من جزئيات الحياة.. وبهذا أصبحت الموجودات والحوادث في رؤيتنا مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى ومكاتب ربانية مفتوحة أمامنا نفهم منها معانيها الحقيقية.. وعندها تحولت أنواع العلوم والمعارف التي قرأناها.. إلى أدوات لمعرفة الله ونوافذ تطل على وحدانيته ومسارب للعيش في أجواء تجليات الأسماء الحسنى.."[1]

---

(١) "أبعاد جمالية في دعوة الإيمان والقرآن" ضمن أعمال "ندوة الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر" ص ٨٢ – ٨٣.

اللهم وفقنا بفضلك لمعرفة أسمائك، وامنحنا برحمتك جميل محبتك، واكتبنا مع الذين أنعمت عليهم بجناتك، وزدتهم من إحسانك بالنظر إلى وجهك الجميل، نحن ووالدينا وأهلينا، وذرياتنا وإخواننا، وقرابتنا وأحبتنا، وجميع المؤمنين والمؤمنات، يا حنان يا منان، يا جليل يا جميل.. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

٢

غاية الحياة والإنسان من خلال رسائل بديع الزمان(*)

إن رسائل النور أراد لها مؤلفها أن تكون قبسات من أنوار القرآن الكريم وتعبيرا عن حقائقه وبيانا لأحكامه وحكمه. وإن أصدق وصف يمكن أن يوصف به القرآن الكريم أنه كتاب حياة ينطق بحقائق الكون ويفصح عن أسرار الحياة وغاياتها وصفات الإنسان وحقيقته. ولقد اكتسبت رسائل النور هذا الوصف، فأودع فيها مؤلفها خلاصة ما اقتبسه من القرآن الكريم، فكانت تنير حقائق الحياة وغايتها. ومن الأسباب التي حملت بديع الزمان النورسي على العناية بحقيقة الإنسان وغاية الحياة، ما رآه رحمه الله من الانحراف الخطير في تقدير حقيقة الحياة والإنسان في الفكر الغربي والفلسفة الغربية، وأثرذلك في انحراف الحياة البشرية.يضاف إلى ذلك أنه رحمه الله كان قد أوقف حياته وعمره على إصلاح أحوال الفكر الإسلامي وتقويم ما انحرف من أوضاع المسلمين في عصره، وكان يرى رحمه الله أن عملية الإصلاح الفكري والاجتماعي والسياسي إنما تقوم أولا على تربية الإنسان، وإن تربية الإنسان إنما تقوم أولا على ترسيخ حقيقة الحياة وفهم غايتها الصحيحة. ولهذا فإن بديع الزمان النورسي كان مولعا في رسائله ببيان فلسفة الوجود وحقيقة الكون والإنسان وغاية الحياة، فلا تكاد صفحة من صفحات رسائله تخلو من ذلك.

ولما كانت الفلسفة الغربية قد ألقت بثقلها على عقول كثير من المسلمين في هذا العصر، فقد كان بديع الزمان النورسي يبين في أكثر من موضع من رسائله

(*) بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي السابع لبديع الزمان النورسي المنعقد بإسطنبول بتاريخ ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤ .

تهافت ما تجعله الفلسفة الغربية غاية للحياة وحكمة لوجود الإنسان على ظهر الأرض. وقد حرص رحمه الله في ذلك على تقديم الأدلة الصريحة الواضحة، فكان يتتبع الآثار العملية والواقعية التي أحدثتها الفلسفة الغربية في حياة البشر وسلوكهم، وما تفرع عنها من الاضطراب والضياع، وشيوع فكر العدم و انتشار فلسفة العبث. من ذلك مثلا بيانه رحمه الله ما تورثه الفلسفة الغربية من القلق والضجر من بعض عوارض الحياة البشرية، مثل النكبات والمصائب، وأعظمها الموت وزوال الحياة عن الجسد. يقول رحمه الله: إن ما يثيره فلاسفة أوربا من شبهات وجحود في هذا العصر قد جلب الحيرة إلى بعض المنكوبين المفتونين بهم، فأزال يقينهم وأباد سعادتهم الأبدية وأوقعهم في شقاء وتعاسة، ذلك لأن إنكارهم هذا حول معنى"الموت" الذي يصيب يوميا ثلاثين ألفا من الناس، من معناه الحقيقي الذي هو إنهاء وظيفة الإنسان على الأرض، إلى صورة الإعدام الأبدي والفناء النهائي والنهاية المرعبة المخيفة. وأصبح القبر – الذي لا ينغلق بابه– يسمم لذائذ حياة ذلك المنكر وينغص عليه عيشه بآلام مبرحة ملوحا له بالعدم الرهيب دائما وبإعدامه الأبدي"[1] فبمقتضى الفلسفة الغربية إن غاية الأمر وتمامه هو الحياة على وجه الأرض وطلب اللذة المادية وتحصيل المتعة، ولا شيء قبل هذا ولا بعده. وإن اعتبار هذا غاية الحياة يحول الحياة البشرية إلى عذاب ويجعل اللذة لذة متوهة وليست حقيقية. فلوتصورنا إنسانا قد بلغ الغاية القصوى من اللذة وحصل أكمل ما يمكن أن يحصله بشر في الحياة على ظهر الأرض، فإن اعتقد أن ذلك غاية أمره ومنتهى حياته ومبلغ طلبه وجهده، فإن عقيدته هذه تحول متعته عذابا ولذته جحيما، لأن الخوف من زوال النعمة عذاب، وهو ينظر إلى الموت شبحا مخيفا يترصده ليقطع لذته ويصيره إلى الهلاك الأبدي والفناء السرمدي.

---

(١) " الشعاعات " ص ١٣٧ .

وبهذا البرهان العملي الواضح أقام بديع الزمان النورسي الحجة على قصور الفلسفة الغربية في بيان غاية الحياة وحقيقة الإنسان والكون، وإن غاية الحياة أعظم من متعة زائلة وأكبر من نعيم مؤقت.

يقول رحمه الله: "أتحسبون أن مهمة حياتكم محصورة في تلبية متطلبات النفس الأمارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعا لشهوة البطن والفرج؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أودع فيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حساسة وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواس متجسسة، إنما هي لمجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟"[1] ويزيد في بيان قصور النظرية المادية، من خلال بيانه لحقيقة الإنسان وصفات النفس البشرية، ليخلص من ذلك إلى أن الإنسان قد ركب على خلقة عجيبة تدل بالقوة على أن وجوده على وجه الأرض أعظم من أن يكون لتحصيل المتعة الجسدية واللذة المادية، ليخلص رحمه الله بعد ذلك إلى بيان غاية الحياة العظمى وحقيقتها الكبرى، فمعرفة غاية الحياة يتوقف على معرفة حقيقة الإنسان.

١ ـ الإنسان قبضة من طين ترتقي بالقوى المعنوية وتسمو بالنفحات الروحية.

إن من البدهيات الواضحة أن الإنسان جسد مادي به غرائز وشهوات، كما بين الله تعالى في قوله﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران:١٤) ولما كانت الشهوات من المأكل والمشرب والمنكح والملبس والمركب وغيرها من لذات الجسد

---

(١) " الكلمات " ص ١٣٦ .

موجودة بالقوة الظاهرة في الإنسان، توهم الكثير من البشر عبر العصور أن غاية الحياة إنما هي تحصيل اللذة والمتعة الجسدية، وجاءت الفلسفة المادية فرسخت هذا الاعتقاد. لكن حقيقة الإنسان وغاية الحياة أعظم من ذلك وأكبر، فاللذة الجسدية لم توجد لذاتها ولا كانت الحياة من أجلها لأنها ليست لذة حقيقية بنفسها. فإذا توهم الإنسان الكمال في اللذة المادية ورثه ذلك النكد والعذاب، لأن عمره القصير وتحول قواه الجسمية إلى ضعف بعد ضعف، ومآله إلى الهرم والشيخوخة، يجعل حياته ودنياه تضيق عن استيعاب حاجاته المادية وتضعف عن الاستجابة لقوة غرائزه وشدة شهواته. فكمال اللذة مستحيل في الحياة الدنيا، لأن استعدادات الإنسان المادية غير متناهية وعمره المادي وقواه المادية متناهية. ومعنى هذا أن رغبات الإنسان وغاية لذته وكمال شهوته، لامكان لها في الحياة الدنيا، لأن الحياة تضيق عنها، فإذا جعلها غاية أمره ومنتهى طاقته ورثه ذلك شقاء وعذابا. وقد صور النبي صلى الله عليه وسلم هذا أبلغ تصوير في قوله (لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ) (صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال) وقوله أيضا : (لا يَزَالُ قلبُ الكبيرِ شابًّا في اثنتينِ: في حُبِّ الدنيا، وطُولِ الأَمَلِ). (البخاري: كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة). وهو أيضا تعبير عجيب وتصوير بليغ، في تنصيصه صلى الله عليه وسلم على أن القلب يبقى شابا، وهو إشارة إلى قوة الشهوات وتجددها، وفي مقابل ذلك فإن الجسد يصير إلى ضعف وهرم، فكلما زاد الإنسان في طلب اللذة زاد الجسد عذابا. وقد عبر الأستاذ بديع الزمان النورسي عن هذه الحقيقة بقوله "... استعداد الإنسان غير المتناهي وآماله ورغباته غير المحصورة وأفكاره وتصوراته غير المحدودة وقوته الشهوية والغضبية غير المحددة. فنرى الإنسان يتأسف ويتأفف ويقول:

ليت كذا وكذا، حتى لو منح ملايين السنين من العمر وتمتع بلذائذ الدنيا وحكم حكما نافذا في كل شيء، وذلك بحكم اللاتناهية المغروزة في استعداده، فكأن عدم الرضا هذا يرمز ويشير إلى أن الإنسان مرشح للأبد، ومخلوق للسعادة الأبدية كي يتمكن من تحويل استعداده غير المحصور من طور القوة إلى طور الفعل في عالم غير متناه وغير محدود بحدوده وأوسع بكثير من عالمه هذا... إن هذه الدنيا... لا تسع كمالات الإنسانية، بل تحتاج تلك الكمالات إلى عالم أرحب..."[1] إن الإنسان – من خلال شهواته – ينزع إلى عالم أرحب لا مكان فيه لحدود العمر ولا لقيود الزمان وصروف الدهر وخطوب المكان التي هي من لوازم الحياة على ظهر الأرض، فالشهوات ليست غاية وإنما هي دليل إلى غاية.

فمن جعل اللذة على ظهر الأرض منتهى غايته وغاية طلبه فقد ضيق على نفسه، واستبدل العنت والحرج بالرحب والسعة، واكتفى باللذة المتوهمة المشوبة بالعذاب والنكد، لأنه يطلب الأمر في غير موطنه، لأن الأرض ليست موطنا له، وإنما هو طارئ عابر إلى حين، فهو ينزع دائما إلى أصله ويتشوف إلى موطنه الأول. فالإنسان لايقنع أبدا بما هو فيه من اللذة على ظهر الأرض بدلا عن موطنه الأول، ولن يجد في الحياة الدنيا ما يغنيه أبدا عن لذة الجنة التي هي منزله الأول.

كم منزل للمرء يألفه الفتى   ولكن حنينه أبدا للمنزل الأول

فالحياة الدنيا إنما هي مقام أدنى يرتقي منه الإنسان إلى المقام الأعلى، وهذا وجه إخراج أبي البشر آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض إلى حين. فقد خلق أولا في عالم البقاء والكمال، ثم أخرج منه إلى عالم الفناء، اختبارا وامتحانا، لتنمية استعداداته نحو الكمال، وكلف بالارتقاء منه إلى عالمه الأرحب. وفي بيان حكمة إخراج آدم من الجنة يقول بديع الزمان النورسي: "حكمته التوظيف، فقد بعث

(١) " صيقل الإسلام " ص ١٣٦ – ١٣٧ .

إلى الأرض موظفا، موكولا إليه مهمة جليلة، بحيث إن نتائج تلك الوظيفة هي جميع أنواع الرقي المعنوي البشري، وانكشاف جميع استعدادت البشر ونمائها... فلو كان سيدنا آدم عليه السلام باقيا في الجنة لبقي مقامه ثابتا كمقام الملك، ولما نمت الاستعدادات البشرية. بينما الملائكة الذين هم ذوو مقام ثابت مطرد كثيرون، فلا داعي إلى الإنسان للقيام بذلك النوع من العبودية. فاقتضت الحكمة الإلهية وجود دار تكليف تلائم استعدادات الإنسان التي تتمكن من قطع مقامات لانهاية لها... أي أن إخراج آدم عليه السلام من الجنة هو عين الحكمة ومحض الرحمة"[1] فبين رحمه الله أن الدنيا ولذاتها ليست مقصودة لذاتها وإنما ليرتقي منها الإنسان إلى غيرها، حتى إذا نمت استعداداته ارتقى من الأدنى إلى الأعلى. فهو – في الحياة الدنيا – في المقام الأدنى ليرتقي منه إلى عالم الكمال، فهو غايته ومنتهى طلبه.

وهذا وجه التعبير في القرآن الكريم بصيغة "الهبوط" في بيان خروج آدم من الجنة في قوله تعالى : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ (البقرة: ٣٨) وقوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (الأعراف: ٢٤) ليفيد البون الشاسع بين المقامين، وإن الحياة على ظهر الأرض منزلة أدنى بالنسبة إلى الحياة في الجنة، وأن الحياة الدنيا توظيف وتكليف وسعي إلى الرقي إلى الموطن الأصلي حيث كمال اللذة وغاية السعادة. ولكي تنمو الاستعدادات البشرية للرقي في مدارج الكمال في عالم البقاء، خلق الله تعالى في البشر قوى معنوية وأودع فيه نفحات روحية عظيمة يرقى بها من دركات اللذة الدنيوية العابرة إلى درجات الكمال.

فالشهوات والغرائز البشرية تثور في الإنسان وهو على ظهر الأرض ليشاهد قبسا يسيرا من الجمال، ويذوق جزءا حقيرا من اللذة تدله على غيرها، ثم تثور

---

(١) " المكتوبات " ص ٥٠ – ٥١ .

القوى المعنوية لتسوقه إلى الجمال السرمدي، فتكون بذلك شهوات النفس ولذات الحياة الدنيا طريقا إلى اللذات الغامرة والجمال السرمدي في دار البقاء."إذ المشاهد المشتاق لجمال سرمدي والعاكس الذي يعكسه كالمرآة، لابد أن يظل باقيا ويمضي إلى الأبد"[1] فالقوى المعنوية والنفحات الروحية في الإنسان هي القائد لقبضة الطين والدليل لشهوات الجسد إلى السعادة الحقة واللذة الكاملة. ولهذا كانت حقيقة الإنسان متوقفة على قبضة الطين ونفخة الروح، وكلما توهم الإنسان الاستغناء عن أحدهما هوى في مواطن الضياع والانحراف. فمن خلال هذين الشقين تكون عمارة الدنيا وعمارة الآخرة، وتجتمع لذة الحياة الدنيا بلذة نعيم الآخرة. فبعمل العقل والقلب والجوارح يرتقي الإنسان في مراتب السمو الروحي، يبدأ من الدنيا ليبلغ الغاية المرجوة في الآخرة. أما الذين يبحثون عن كل شيء في المادة، عقولهم في عيونهم، والعين لا تبصر المعنويات. فلابد للجسد والعقل من نفحات القلب، لأن قلب الإنسان "بمثابة خريطة معنوية لآلاف العوالم. إذ كما أن دماغ الإنسان... بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، يستقبل ما في الكون من علوم وفنون ويكشف عنها، ويبثها أيضا فإن قلب الإنسان كذلك هو محور لما في الكون من حقائق لا تحد، ومظهر لها، بل هو نواتها ... فعلى القلب إذن أن يقوم بعمله الذي خلق من أجله كما يقوم العقل بعمله"[2]. ومثل هذا المعنى نبه إليه أبو الفرج بن الجوزي (ت٥٩٧ هـ) من قبل لما رأى في زمانه أيضا غفلة الناس ومنهم العلماء عن هذا الأصل، فرصد انحرافا في المنهج نتج عنه الفصل بين العلم والعمل، والعقل والقلب، بسبب الركون إلى علوم الآلة في علوم الشريعة المختلفة في غفلة عن رقائق القلوب

(١) " الكلمات " ص ١٣٦ .

(٢) " المكتوبات " ص ٥٧١ ٥٧٢.

وتهذيب الأرواح وتزكية النفوس. قال رحمه الله: "رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين، لأنهم تناولوا مقصود النقل وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها. وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم في الحديث العالي وتكثير الأجزاء، وجمهور الفقهاء في علوم الجدل وما يغالب به الخصم. وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء!! وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه، لا لاقتباس علمه، وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته، فافهم هذا وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا ليكون سبباً لرقة قلبك. وقد جمعت لكل واحد من مشاهير الأخيار كتاباً فيه أخباره وآدابه. فجمعت كتاباً في أخبار الحسن وكتاباً في أخبار سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم وبشر الحافي وأحمد بن حنبل ومعروف وغيرهم من العلماء والزهاد والله الموفق للمقصود."[1]

فحقيقة الإنسان تقوم على ركنين هما العقل والقلب، وينسجم فيها الجسد والروح. وإن نور الفكر والعقل ظلام مالم يتوهج بضياء القلب ويستنير بأنواره ويمتزج بنفحاته المعنوية النورانية. و"إن ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور الفكر والعقل هو العلوم الكونية...وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبافتراقهما تتولد الحيل والشبهات في هذا، والتعصب الذميم في ذاك."[2] ولهذا كان المنهج التربوي والتعليمي عند بديع الزمان النورسي يراعي ثنائية العقل والقلب، فكان رحمه الله يجمع بين علوم الكون والحياة وعلوم الوحي والشريعة، ووضع مشروعه

---

(١) " صيد الخاطر " لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ص ٣٦٧٣٦٨ . .

(٢) ينظر : " صيقل الإسلام " ص ٤٢٨ .

لإصلاح التعليم المسمى "مدرسة الزهراء" على هذا الأصل، تنسجم فيه علوم الكون بعلوم الوحي، ويمتزج فيه ضياء العقل بنور القلب وسبيلا إلى الرقي في مراتب السمو إلى أن يبلغ الغاية المرجوة حيث تكتمل اللذة ويتحقق تمام السعادة في عالم البقاء والخلود. وإن أي انحراف في حياة البشر سببه الاضطراب في فهم حقيقة الإنسان، وقد ثبت هذا عبر الزمان من خلال التجارب البشرية. ويزيد بديع الزمان النورسي في تأكيد ذلك وإن هذه الحقيقة ستثبت أيضا في الزمن المستقبل، عندما يتحقق المادي الملحد من الحاجة إلى دفء القيم المعنوية، ويتحقق الروحاني من الحاجة إلى قوة العقل، فيتوجه كل منهما نحو الآخر فيلتقيان على طريق وسط وهو طريق الإسلام.[1] وأساس ذلك أن الإنسان قبضة من طين ونفحة من روح، وإن الحياة ليس غايتها اللذة المادية، وإنما اللذة المادية طريق إلى غاية أسمى ومقام أعلى يتحقق فيه كمال اللذة عبر السمو الروحي والرقي المعنوي، فهذه غاية الحياة على ظهر الأرض.

٢ ـ غاية الحياة : الرقي المعنوي والسمو الروحي.

إن خلق اللطائف المعنوية وإيداع القوى الروحية في الإنسان يدل على أنه مترشح للظفر بعالم أرحب وينزع إلى عالم الكمال وتمام السعادة والجمال. فلو كان الإنسان مرشحا للذة المادية على ظهر الأرض فقط ما كان لوجود القوى المعنوية فيه وجه فائدة. ثم إن القصد إلى اللذة المادية فقط، ليس لذة حقيقية، لما يقترن به من الآفات التي تجعل اللذة ألما. ولا تكون اللذة المادية لذة حقا إلا إذا

(١) ينظر أيضا في تفصيل طريق الإسلام هذا كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب" للأستاذ علي عزت بيغوفيتش حيث وصف الإسلام بأنه وحدة ثنائية القطب تجتمع فيه علوم الوحي بعلوم الكون، والدنيا بالآخرة، والعقل بالقلب، والجسد بالروح، والفرد بالجماعة، والمصلحة الخاصة بالمصلحة العامة، وليتحقق هذا الانسجام كانت حقيقة الإنسان على هذا الأساس، فاجتمعت فيه القوى المعنوي بالشهوات المادية.

كانت طريقا إلى لذة النعيم المقيم. فقيمة الإنسان بحسب قصده من حياته، فما أحقر الإنسان وما أدحره وما أصغره إذا كان غاية حياته تحصيل لذة المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمسكن والمركب، وما أشد حزنه وضنك معيشته وهو يطلب هذه اللذات بكل قواه وهي فانية زائلة، وما أشد عذابه وهويتناولها ويخشى زوالها، بل هو موقن من ذهابها وأفولها، لأن الخوف من زوال اللذة عذاب.

"إن قيمة الإنسان بنسبة ماهيته، وماهيته بدرجة همته، وهمته بمقدار المقصد الذي يشتغل به"[1] فلا يمكن للذة المادية أن تكون غاية الحياة لأنها فانية زائلة مع ما يقترن بها من النكد والكبد﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد: ٤) ومن جعلها غاية حياته فقد تعلق بالعدم لأن اللذة الظاهرة تؤول إلى العدم بالزوال، وإنما البقاء للمعاني، وإنما المقصد الحق هو ما يبقى بعد زوال اللذة المادية من معانيها وآثارها، فهي الغاية المرجوة، ولا تكون اللذة المادية لذة حقا إلا بها. إن كل موجود بعد ذهابه من الوجود يذهب إلى العدم والفناء ظاهرا، ولكن تبقى المعاني التي كان قد أفادها وعبر عنها وتحفظ... إن الموجود يفقد وجودا ظاهريا صوريا، ويكسب مئات من الوجود المعنوي والعلمي.[2]

فكل الموجودات المادية وكل اللذات والشهوات لا تؤخذ لذاتها وإنما لما يترتب عنها بعد زوالها من الأحوال المعنوية والكمالات الروحية، "فإن فناء هذه الموجودات الجميلة، بعد ظهورها في آن واحد، وتعاقب بعضها بعضا يبين كأنما هي آلات معمل لتشكيل المناظر السرمدية ... عندما تختفي الموجودات وراء ستار الزوال تظل بدلا عنها تسبيحات باقية كثيرة جدا لكل موجود من

(١) " صيقل الإسلام " ص ١٢٨ .
(٢) " المكتوبات " ص ٣٧٨ – ٣٧٩ .

الموجودات، وتودع نقوش كثيرة من الأسماء الإلهية... تودعها إلى وجود باق."[1] ولهذا فإن غاية الحياة هي الرقي المعنوي والسمو الروحي الذي يحصل بمعرفة الله تعالى والايمان به. وكل ما يعرض للإنسان على ظهر الأرض من العوارض وما يحتف به في أمور معاشه، إنما هو طريق إلى هذه الغاية ودرجة من درجات الرقي في سلم هذه الكمالات الروحية. فاللذة والألم، والشدة والرخاء، والغنى والفقر، والحياة والموت، والعمران والخراب، والصحة والسقم، والخير والشر، والمأكل والمشرب، والمنكح والملبس، والعوالم وجميع الخلق، وكل ما هو من أجزاء عالم الدنيا ويلتبس بالإنسان في معاشه وتقبله في حياته-كل ذلك – موجود ومخلوق ليكون طريقا إلى الرقي المعنوي والسمو الروحي، وليكون دليلا إلى الله تعالى وسبيلا سالكا إلى معرفته عز وجل والإيمان به، وما يلزم من ذلك من محبته وعبادته وطاعته ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) يقول بديع الزمان النورسي رحمه الله: "اعلم يقينا أن أسمى غاية للخلق وأعظم نتيجة للفطرة الإنسانية هو "الإيمان بالله"، واعلم أن أعلى مرتبة للإنسانية وأفضل مقام للبشرية هو"معرفة الله" التي في ذلك الإيمان، واعلم أن أصفى سرور لروح الإنسان وأنقى بهجة لقلبه هو "اللذة الروحية" المترشحة من تلك المحبة. أجل إن جميع أنواع السعادة الحقة... واللذة التي لا تفوقها لذة، إنما هي في "معرفة الله"، في "محبة الله"[2] فالحياة الدنيا بما فيها، والأرض بما عليها إنما هي من أجل ذلك، والخلق كله لتحقيق هذه الفائدة، وما من شيء يحيط بالإنسان ويلتبس بحياته إلا له فيه ومن خلاله رقي إلى معرفة الله ومحبته وطاعته.

---

(١) " المكتوبات " ص ٣٨٠ – ٣٨١ .

(٢) " المكتوبات " ص ٢٨٩ .

تناول الطيبات والتمتع باللذات سلوك إلى الرقي المعنوي:

إن من النظرات الدقيقة عند بديع الزمان النورسي رحمه الله، أن كل شيء في عالم الشهادة إنما خلق ليتخذه الإنسان طريقا إلى السمو الروحي والرقي المعنوي، وهذا مما تفرع عن أصل تكريم الإنسان المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠) ومقتضى هذا التكريم أن كل المخلوقات لفائدة بني آدم، ومعلوم عند بديع الزمان النورسي – استنباطا من القرآن الكريم– أن الفائدة المرجوة من الحياة هي السمو الروحي، فيلزم من ذلك أن كل ما يقع عليه نظر الإنسان ويجده طوع إرادته إنما هو لهذه الغاية. ولهذا كان محبة الدنيا وتناول لذاتها والتمتع بطيباتها طريقا إلى السمو المعنوي، أي إن محبة لذات الدنيا وطلب نعيمها طريق من طرق السلوك إلى الله تعالى وكسب نعيم الآخرة بعد نعيم الدنيا[1]. وأصل ذلك من السنة النبوية أن كل لذة حلال تتحول بالنية والقصد الحسن إلى عبادة وقربى وهي رقي معنوي. ومن أدلة ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (وفِي بِضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ" قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا أَهْلَهُ فَيَكُونُ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ ؟ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلالِ كَانَ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ) (صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) وهذا ما يجعل محبة اللذة والرغبة فيها عبادة ورقيا معنويا.لكن هذه المحبة التي يتوجه بها الإنسان إلى الدنيا ولذاتها، محبة خاصة وعلى وجه مخصوص يقترن التناول والتلذذ بالذكر والتفكر، لأن شهوة الدنيا يزيدها الذكر والتفكر بهاء وجمالا ويلبسها ثوب العبادة والقربة[2]. وأما كيف

---

(١) ينظر :" المكتوبات " ص ٥٩٢ .

(٢) وهذا على خلاف ما سار عليه عامة أهل السلوك من أن طلب لذة الدنيا مناف للسلوك إلى الله تعالى.

يكون التمتع بلذات الدنيا طريقا إلى السمو الروحي فهذا ما يفصح عنه الشيخ بديع الزمان النورسي بالقول: "إن الحياة التي وهبها الله للإنسان هي رأسمال عظيم يستطيع أن يكسب به الحياة الأخروية الباقية، وهي كنز عظيم يحوي أجهزة وكمالات خالدة، ومن هنا فالمحافظة على الحياة الدنيا ومحبتها من هذه الزاوية وتسخيرها في سبيل الله عز وجل يجعلها تعود إلى الله سبحانه، إذ أن محبتها والشغف بها على هذه الصورة ينقلب إلى محبة لوجه الله تعالى، إذ هي في هذه الحالة تكون مزرعة للآخرة ومرآة لأسماء الله الحسنى، ورسائل ربانية إلى الوجود ودار ضيافة مؤقتة. فاجعل حبك للدنيا وما فيها من مخلوقات بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى الاسمي، أي لمعنى ما فيها وليس لذاتها، ولا تقل لشيء "ما أجمل هذا" بل قل: "ما أجمله خلقا". "فإن جميع ما ذكرناه من أنواع المحبة إن وجهت الوجهة الصائبة على الصورة المذكورة آنفا... فإنها تورث لذة حقيقية بلا ألم"[1] ومعنى هذا أن تناول لذة الدنيا والاستمتاع بجمالها يأنس منه العبد قدرا من جمال الله تعالى وجلاله، ويرتشف منه شيئا من ظل تجليات أسمائه تعالى وحسن صفاته جل وعلا وكمال أفعاله، فيورثه ذلك محبته تعالى مع ما يلازمها من اللذة الحقيقية. ويزيد رحمه الله في تفصيل هذا المعنى بقوله: "فالتلذذ بالأطعمة الشهية وتذوق الفواكه الطيبة مع التذكر بأنها إحسان من الله سبحانه وإنعام من الرحمن الرحيم، يعني المحبة لاسم "الرحمن" واسم "المنعم" من الأسماء الحسنى... أما محبة الزوجة وهي رفيقة حياتك، فعليك بمحبتها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا الرحمة الإلهية... فمن هذه الزاوية تصبح هذه المحبة لله... ثم محبة الربيع والشوق إليه تكون في سبيل الله ومتوجهة إلى أسمائه الحسنى، من حيث كونه أجمل صحيفة لظهور نقوش الأسماء الحسنى النورانية. فالتفكر في الربيع من

---

(١) "الكلمات" ص ٧٦٥ – ٧٦٦ مع بعض التصرف.

هذه الزاوية محبة متوجهة إلى الأسماء الحسنى."[1] وكلما زاد العبد في تناول لذات الدنيا على هذا الوجه، زادت محبته لخالق الدنيا المنعم بخيراتها. "فإذا تناول الإنسان نعمة لذيذة ثم أدى شكره عليها، فإن تلك النعمة تصبح – بواسطة ذلك الشكر– نورا وضاء له وتغدو ثمرة من ثمار الجنة الأخروية، وفضلا عما تمنحه من لذة، فإن التفكر في أنها أثر من آثار التفات رحمة الله الواسعة وتكرمة منه سبحانه وتعالى يمنح تلك النعمة لذة عظيمة دائمة وذوقا ساميا لاحد له."[2] لأن الحسن والجمال، واللذة والنعمة المأخوذة من جميع الموجودات إنما هي "نوع ظل من تجلي جماله سبحانه وحسن أسمائه جل وعلا، وهذا وجه ولوع بديع الزمان النورسي بالطبيعة وجمالها والكون وزينته وما فيها من أصناف الخلائق وأنواع النعم ووجوه الخيرات"،[3] فهي طريق إلى السمو الروحي لما يجد الناظر فيها – مع الذكر والشكر والتفكر– من لذة التمتع بجمالها ولذة محبة خالقها وبارئها عزوجل.[4] فعلى هذا النحو يكون تناول الطيبات والتمتع باللذات طريقا إلى السمو الروحي والرقي المعنوي، لأنه يعرف بأسماء الله وجماله وجلاله، ويورث محبته تعالى والتشوف إلى كمال اللذة في النعيم المقيم.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٢). وعن هذا المعنى من اتخاذ زينة الدنيا سلما للعروج إلى منازل القربى بهذا الوجه المخصوص يقول ابن الجوزي: "فإذا بحثنا عن الدنيا رأينا

---

(١) " الكلمات " ص ٧٦٤ – ٧٥٥ .

(٢) " المكتوبات " ص ٢٩٧ .

(٣) ينظر " الكون والطبيعة في فكر الإمام النورسي : أثرا ودلالة وهدفا" لأستاذنا الدكتور فاروق حمادة، ضمن أعمال مؤتمر : "جهود بديع الزمان النورسي في تجديد الفكر الإسلامي " (مارس ١٩٩٩ . الرباط – المغرب)

(٤) ينظر : " ملحق بارلا " ص ٦٨ – ٦٩ . " ملحق قسطموني " ص ١٤٤ .

هذه الأرض البسيطة التي جعلت قراراً للخلق تخرج منها أقواتهم ويدفن فيها أمواتهم. ومثل هذا لا يذم لموضع المصلحة فيه. ورأينا ما عليها من ماء وزرع وحيوان كله لمصالح الآدمي وفيه حفظ لسبب بقائه. وما كان سبباً لبقاء العارف العابد يمدح ولا يذم. فبان لنا أن الذم إنما هو لأفعال الجاهل أو العاصي في الدنيا، فإنه إذا اقتنى المال المباح وأدى زكاته لم يلم."[1]

خلق الشر وتقدير الآفات والنكبات طريق إلى السمو الروحي

إذا كانت النعمة واللذة في الدنيا طريقا إلى السمو الروحي الذي يحصل بمعرفة الخالق المنعم ومحبته، فإن ما يقابلها من عوارض الحياة الأخرى من الآلام الناشئة عن المصائب والنكبات، مثل الجوع والمرض والخوف، طريق آخر إلى هذا الرقي المعنوي، وإن وجوده إلى جانب طريق النعمة واللذة، حكمته تنوع الطرق والمسالك، وفي هذا التنوع أيضا لذة وسمو. فكل ما يعرض للإنسان في عالم التكليف ومرحلة التوظيف، إنما هي مسالك يضعها الخالق البارئ أمام المكلف ويفتحها بين يديه ويمهدها أمام بصره ليسلكها نحوالرقي المعنوي. فخلق الشرور والبلايا والشياطين، إنما هو من أجل المجاهدة والمسابقة في تحريك الاستعدادات الكامنة في جوهر الإنسان، وتوجيهها نحو السمو والرقي في درجات الكمال البشري، الذي يبدأ في الحياة الدنيا ثم يرتقي بفعل المجاهدة إلى أن يكتمل في دار البقاء حيث كمال النعيم وتمام اللذة وغاية السعادة. ففي عالم الإنسان في الحياة الدنيا تمتد المسافة بين مراتب الرقي ودركات التدني أبعادا طويلة جدا، بدء من أكبر الطغاة وأعظم الظلمة، إلى أرقى الأولياء وأكبر الصديقين

(١) " صيد الخاطر " لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت٥٩٧ هـ) ص ٦٢ . (تحقيق عامر بن علي ياسين. ط ١ . ١٤١٨ – ١٩٩٧ دار ابن خزيمة).

والصالحين. فبوجود الشياطين والشر والبلايا، "وبسر التكليف، وبإرسال الأنبياء، انفتح ميدان الامتحان والتجربة والجهاد والمسابقة، وبه تتميز الأرواح السافلة... عن الأرواح العالية... فلولا المجاهدة والمسابقة لبقيت الاستعدادات كامنة في جوهر الإنسانية ... أي لتساوت الروح السامية لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهي في أعلى عليين مع روح أبي جهل التي هي في أسفل سافلين"[1] وهذا بخلاف الملائكة التي ليس لها مقام ترتقي إليه لأن مقامها ثابت. فالبلايا طريق السمو الروحي لأن من خلالها تتجلى آثار أسماء الله الحسنى وأفعاله وصفاته عز وجل، "فإن الصانع الجليل قد ألبسك جسما بديعا مزينا بالعين والأذن والأنف وغيرها من الأعضاء والحواس. ولأجل إظهار آثار أسمائه الحسنى المتنوعة، يبتليك بأنواع من البلايا، فيمرضك حينا ويمتعك بالصحة حينا أخرى... وهكذا يقلبك في أمثال هذه الأطوار والأحوال لتتقوى ماهية الحياة وتظهر جلوات أسمائه الحسنى... إن السكون والهدوء والرتابة والعطالة، نوع من العدم والضرر،وبعكسه الحركة والتبدل وجود وخير. فالحياة تتكامل بالحركة وتترقى بالبلايا وتنال حركات مختلفة بتجليات الأسماء وتتصفى وتتقوى... وتستحق الأجر الأخروي"[2] فالضراء والبلايا التي تعتري الإنسان إنما هي من أفعال الله تعالى، تجعله في مقام الضعف والفقر، وفي مقام الضعف والفقر تنكشف أمامه حقائق الأسماء الحسنى و تظهر له تجليات الصفات العليا، من الغنى والقوة والرحمة وغيرها. فبلاء الجوع مثلا وسيلة الشعور بالعجزوالفقر، ويترتب عنه الالتجاء إلى الله تعالى، وهذا وجه كون الصوم، الذي هو كف عن المفطرات، عبادة يرتقي بها العبد في مقامات السمو الروحي، وهو المعبر عنه

---

(١) " المكتوبات " ص ٥٢ .

(٢) نفسه ص ٥٤ .

بالتقوى في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة :١٨٣ – ١٨٤) وهو المعبر عنه "بالجنة" (بضم الجيم) وهي الحرز والوقاية، في حديث: (الصِّيامُ جُنَّةٌ) (صحيح البخاري، كتاب الصيام، باب هل يقول إني صائم إذا شتم).

"إنه إزاء الشرور الجزئية للشياطين، تكمن في وجودهم كثير من المقاصد الخيرة الكلية وكمالات ترقى بالإنسان في سلم الكمال"[1] إن الموت وهو أكبر مصائب الدنيا، إذا نظر إليه بالنظر الخاص لأهل الإيمان، فإنه طريق إلى السمو وكسب البقاء. "إن الموت في حقيقته تسريح وإنهاء لوظيفة الحياة الدنيا... وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها... "فمثلا " موت الأثمار والبذور والحبوب الذي يبدو ظاهرا تفسخا وتحللا،هو في الحقيقة عبارة عن عجن لتفاعلات كيمياوية متسلسلة في غاية الانتظام .... وهذا يعني أن موت البذرة هو مبدأ حياة النبات الجديد... فكيف بالموت الذي يصيب الإنسان وهو في أرقى طبقات الحياة؟ فلا شك أن موته هذا سيثمر حياة دائمة في عالم البرزخ ..."[2] إن الموت إعلان عن بقاء الإنسان واستمراره واتصال حياته الأولى بالأخرى، وهو – على هذا النحو – يكسب السمو الروحي، لأنه يمنح للإنسان اطمئنانا وانسجاما مع نفسه، فيكسبه شجاعة وقوة وسموا لأنه طريق الرحلة إلى حياة البقاء حيث كمال السعادة وتمام اللذة، وحيث الحياة الحقيقية المرجوة التي لا تعدلها الحياة الدنيا إلا في الاسم، قال تعالى﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٤) إن الموت ليس فناء وعدما، وإنما هو تحول وارتقاء إلى الأكمل والأشرف، لأنه (مَن أحبَّ لقاءَ اللهِ

---

(١) " اللمعات " ص ١١٠ .

(٢) " المكتوبات " ص ٨ .

أحبَّ اللهُ لقاءَهُ).[1] وإذا كان الموت ارتقاء إلى الكمال، فإن الحياة الدنيا إعداد واستعداد، وهذا ما يحمل الإنسان على التزام منازل الفضل فتكون الحياة الدنيا كلها سلوكا وارتقاء. ويزيد النورسي في تفصيل هذا فيذكر أربعة أوجه من النعمة والامتنان للموت، والتي تجعله سببا للرقي وطريقا إلى السمو، وهذه الأوجه هي:

- الموت إنقاذ للإنسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا، ووصال مع الأحبة في عالم البرزخ.
- إنه خروج من سجن الدنيا المظلم الضيق المضطرب، ودخول في رعاية الباقي المحبوب وفي كنف رحمته الواسعة وتنعم بحياة خالدة مستنيرة لا هم فيها ولا حزن.
- إنه استراحة من أسباب الإرهاق في الحياة من الشيخوخة وغيرها، فليتصور المرء مدى الرهق والعذاب ولو بقي آباؤه وأجداده أمامه وهم جميعا في أوج الشيخوخة وأرذل العمر.
- إنه راحة للإنسان ورحمة للمبتلين خاصة، من المرضى والجرحى.[2]

فعلى هذا النحو تكون جميع المصائب والشرور والبلايا طريقا إلى الرقي المعنوي وسبيلا سالكا إلى السمو الروحي.

نور العقل وحقائق العلوم المادية سبيل سالك إلى الرقي المعنوي.

إن من الحقائق التي ذكرها النورسي وأعاد ذكرها وفصل أدلتها في رسائله، أن الإنسان والكون والطبيعة وجميع الموجودات مرآة لأسماء الله الحسنى وتجليات

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. و لزيادة التفصيل في الموضوع انظر "فلسفة الموت عند النورسي" لمصطفى بن حمزة، ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان النورسي اسطمبول ١٩٩٥.

(٢) ينظر : " المكتوبات " ص ٩ .

لصفاته العليا عز وجل. فمعرفة أحوال الإنسان وصفاته الخلقية (بفتح الخاء) والمعنوية، واكتشاف حقائق الكون وقوانين الطبيعة إنما هو استكشاف الأسماء والصفات. فالعلوم المادية كلها إنما هي استنطاق للكون وما فيه من الموجودات بحثا عن بارئها واكتشافا لتجليات أسماء مدبرها، القائم على أمرها، فهي بذلك طريق وسلوك إلى الرقي المعنوي والسمو الروحي الذي يحصل بمعرفة الله تعالى ومحبته، من خلال أفعاله وصفاته المتجلية في خلقه عز وجل. فالعلوم المادية كلها إنما هي نظر إلى الإنسان وإلى الآفاق بمطالعة كتاب الكون لاكتشاف تسبيحاته لأنه ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء:٤٤) ولأن الكون العظيم بمثابة حلقة ذكر، وبمنزلة مسجد عظيم تلهج فيه أنواع لا تحصى من الكائنات بأسماء الله الحسنى وتشهد بصفاته العليا. فإن "للصانع جل جلاله على كل مصنوع من مصنوعاته سكة خاصة بمن هو خالق كل شيء، وعلى كل مخلوق من مخلوقاته خاتم خاص بمن هو صانع كل شيء"[1] فالنظر في المخلوقات، بما فيها من تجليات أسماء خالقها وصفات بارئها، يحصل منه لذة معرفة الخالق المنعم جل وعلا ومحبته، الناشئة من معرفة إنعامه وإفضاله. فعلى هذا النحو تكون علوم الدنيا كلها طريقا إلى اللذة المعنوية الناشئة من معرفة الخالق ومحبته. وإن القرآن الكريم ليدل على هذا الطريق فيذكر الموجودات ليس لذاتها، وإنما لمعانيها وأصلها وغايتها. يقول النورسي في بيان ذلك أن "القرآن الكريم إنما يبحث عن الكائنات استطرادا للاستدلال على ذات الله وصفاته وأسمائه الحسنى، أي يفهم معاني هذا الكتاب كتاب الكون العظيم كي يعرف خالقه... إن القرآن يستخدم الموجودات لخالقها لا لأنفسها... فمثلا يبحث عن الشمس لا للشمس، ولا عن ماهيتها، بل لمن نورها وجعلها سراجا ... وما الانتظام والنظام

---

(١) " المثنوي العربي النوري " ص ٤١ .

إلا مرايا معرفة الصانع الجليل..."[1] فمعرفة خصائص الشمس وماهيتها و"أنها كتلة نارية عظيمة تدور في مستقرها حول نفسها، تطايرت منها شرارات سيارة" ليس علما حقيقة لأنه لا يحصل منه رقي معنوي وروحي، لأن هذه المعرفة وقفت عند الموجود لذاته، ولم تنظر لما قبله ولا لما بعده ولا لخالقه ومدبر أمره، وهذا غاية ما انتهى إليه الفكر الفلسفي، فحصل منه الضياع وشاع فكر العبث، لأنه حول العالم إلى شيء تافه بلا خالق ولا مدبر، لا شيء قبله ولا شيء بعده، وحول معنى الموت إلى صورة الإعدام الأبدي والفناء النهائي والنهاية المرعبة المخيفة. ولهذا جعل القرآن الكريم علوم الدنيا لذاتها علما لظاهر الحياة الدنيا، وذلك في قوله تعالى:﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧). وأمر تعالى بالإعراض عن مثل هذا العلم في قوله عزوجل ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ (النجم:٢٩-٣٠).[2] ومعنى ذلك أن علوم الدنيا إنما يعتد بها لما فيها من فائدة الرقي المعنوي والسمو الروحي لأن "كل علم من العلوم... يبحث عن الله دوما، ويعرف بالخالق الكريم بلغته الخاصة..."[3] أي أنه يرقى به البشر فيدرك الرحمة والإحسان الإلهي ليقابل ذلك بالشكر والمحبة. "لذا يلزم النظر إلى المخلوقات بالنظر الحرفي لا الاسمي وفق دستور:

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

وذلك لأجل أن يسمو الإنسان إلى مستوى الإنسان حقا."[4] يقول ابن الجوزي

---

(١) " المكتوبات " ص ٢٦٩ .

(٢) ينظر : "ملحق أميرداغ " ص ٣٥٤-٣٥٥ فما بعد.

(٣) نفسه ٢٥٧ .

(٤) "ملحق أميرداغ" ص: ٣٥٩، وانظر نموذجا جميلا ومثالا رائعا للرقي المعنوي من خلال علوم الكون الناشئة من نور العقل في" الشعاعات" ص: ١٤١ ١٩١.

رحمه الله: " فكل محبوباتي منه (أي من الله تعالى الخالق البارئ) وعنه وبه، الحسية والمعنوية، وتسهيل سبل الإدراك به والمدركات منه، وكيف لا أحب من أنا به وبقائي منه وتدبيري بيده ورجوعي إليه، وكل مستحسن محبوب هو صنعه وحسنه وزينه وعطف النفوس إليه. فكذلك الكامل القدرة أحسن من المقدور والعجيب الصنعة أكمل من المصنوع ومعنى الإدراك أحلى عرفاناً من المدرك. ولو أننا رأينا نقشاً عجيباً لاستغرقنا تعظيم النقاش وتهويل شأنه وظريف حكمته عن حب المنقوش. وهذا مما تترقى إليه الأفكار الصافية إذا خرق نظرها الحسيات ونفذ إلى ما وراءها فحينئذ تقع محبة الخالق ضرورة. وعلى قدر رؤية الصانع في المصنوع يقع الحب له"(1) وبهذا تكون علوم الكون معرفة بالصنعة، ومعرفة الصنعة موصلة إلى محبة الصانع.

إن علوم الكون تسمو بالإنسان في مراتب الإنسانية الحقة، و ترفعه في درجات الرقي المعنوي، لأن غايتها الحقة هي إظهار تجليات جمال الله في الكون، وإن إدراك تجليات جمال الله وجلاله لذة روحية يستشرف بها العبد لكمال اللذة في الدار الآخرة، وبين مقام إدراك تجليات الله في الكون ومقام اللذة الكاملة في دار البقاء، ما لا يحصى من مقامات الرقي الروحي ودرجات السمو المعنوي.

٣ـ الإيمان ضمان السمو الروحي والرقي المعنوي.

إن عمر الإنسان وحياته وما أودع فيه من أجهزة إنسانية راقية وقوى معنوية عجيبة سامية، إنما وجد ليؤهله لأداء وظائف مهمة سامية، تجتمع في معرفة الله تعالى والإيمان به. وما الحياة الظاهرة واللذات والشهوات إلا طريق يسمو منه الإنسان نحو تمام هذه الوظيفة، فتكون جميع أحواله وكل ما يعرض له في حياته

---

(١) " صيد الخاطر " ص ٩٤.

من العوارض – مما يسمع أو يشاهد أو يتذوق أو يدرك – مسالك يجد في سلوكها الرقي المعنوي والسمو الروحي. فلولا الإيمان ما تمحضت طرق السلوك ولا حصل الرقي المعنوي ولا تحقق السموالروحي، فالإيمان هو الذي يعطي للحياة معناها ويمنحها غايتها ويبين مغزاها. فلولا الإيمان لكانت الحياة عبثا، وكان الموت شرا محضا وهلاكا سرمديا. إن هذا السمو الروحي الذي سبق بيان بعض وجوهه لا يكون ولن يكون إلا بالإيمان، فهو الذي يعلم الإنسان أنه مرشح لدنيا أخرى أبدية، ومؤهل لمملكة باقية وسالك نحو سعادة دائمة. إن الإيمان يحرر الإنسان من أسر الزمان والمكان ويحلله من أغلال الدنيا، لأنه – من خلال دنياه ومعاشه ولذاته على ظهر الأرض– ينظر إلى أسماء الله الحسنى، ويرنو إلى عالم البقاء لأنه في مزرعته فيتلذذ بجميع عوارض التكليف ومشاق الامتحان.[1] أنظر مثلا إلى شيخ عجوز ينتظرنهاية حياته بعد حين، ويترقب دخوله تحت أطباق التراب، وقد ضرب العجز والهرم بحجاب بينه وبين الدنيا الجميلة وأوصدت أبوابها دونه، فليس هناك في الدنيا كلها ما يجد فيه سلوانا لحاله، ليس له ما يركن إليه سوى الإيمان وما يقتضيه من الإيمان باليوم الآخر. إن الإيمان باليوم الآخر يهتف به وبأمثاله قائلا: "لا تغتموا أيها الشيوخ ولا تبالوا كثيرا، فإن لكم شبابا خالدا وهو أمامكم، وسيأتي حتما، وإن حياة ساطعة بهيجة وعمرا مديدا أبديا في انتظاركم، وستلقون أولادكم وأقاربكم الذين فقدتموهم، وجميع حسناتكم محفوظة وستأخذون ثوابها. وهكذا يمنحهم الإيمان باليوم الآخر سلوانا وانشراحا لهم بحيث لو حمل أحدهم أثقال مائة شيخوخة لتحملها صابرا في انتظار ما سيعقبها من حياة أخروية سعيدة."[2] وانظر أيضا إلى هذا الإنسان

---

(١) ينظر " المكتوبات " ص ٣٧٥ .

(٢) " الشعاعات " ص ٢٨٠ .

المجرد من الإيمان، إنه ليس له من حياته إلا المتعة الحاضرة مع ما يكتنفها من آلام الخوف من زوالها بل واليقين من ذهابها بعد حين، أما الأزمنة الماضية فهي عدم لأنها زالت وأدبرت،وإن الأزمنة المقبلة معدومة أيضا لأنه لا يدرى أمرها وما سيكون حالها.(1) إن اللذة الحقيقية الصافية إنما تحصل بالإيمان، وإن السمو الروحي والرقي المعنوي يتوقف على الإيمان، وكل ما سواه ليس غاية بذاته وإنما طريق إلى هذا السمو، فغاية الحياة – وهي السمو الروحي والرقي المعنوي – تتحقق بالإيمان، ودون هذه الغاية مفاوز من المجاهدة والعمل، ولهذا قال الله تعالى﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦).

الخلاصة

إن الغاية المرجوة والهدف الحقيقي المنشود الذي هو أهل أن يسعى إليه الإنسان في الحياة الدنيا هو السمو الروحي والرقي المعنوي، بمعرفة الله تعالى ومحبته والإيمان به وطاعته، فهو اللذة الحقيقية والسعادة الصافية التي لا يشوبها كدر، وكل شيء في الوجود إنما وجد ليكون طريقا إلى هذه الغاية وسبيلا سالكا إليها، فالدنيا كلها بما فيها ليست غاية بذاتها وإنما هي سبيل إلى غاية. ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (الشورى:١٨).

---

(1) ينظر "ملحق قسطموني" ص ١٧٥ .

٣

التصوف عند بديع الزمان سعيد النورسي(*)

اشتهر عند المحققين من علماء الإسلام أن معرفة الشيء وتعريفه، وحسن التعبير عنه وإصابة الحق في الكلام عليه، يتوقف على تمام الإحاطة الذهنية به وحسن تصوره وضبط مضمونه واستيعاب حقيقته. فكل تسمية تحمل مضمونا، وكل اسم يعبر عن مسمى. وهذا المسمى وما يحمله من معنى إنما هو واقع يجري على التصرفات وموجود يتجسد في عالم الموجودات المادي والمعنوي. و"التصوف" لا يخرج عن هذه القاعدة، فهو لفظ وضع – كما توضع سائر التسميات – للتعبير عن مضمون يجري في الحياة.

وقد يحصل – وهو الغالب في قانون اللغة – أن يوجد المضمون ويتداول المعنى ويجري على الأعمال وتتحرك به التصرفات دون التعبير عنه ولا ترجمته إلى تسمية تجمع جميع أجزاء هذا المعنى وتضع حدا بينه وبين غيره من المعاني. وهذا القانون قد جرى على"التصوف". فقد كان التصوف أولا حاضرا بمعناه، يجري على التصرفات وتتحرك به الجوارح، فكان مسمى بلا اسم. كان ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن صحابته والتابعين وتابعيهم. ومع تحول الواقع وسير الزمان لوحظ أن هذا المعنى الذي يجري على التصرفات بدأ ينحسر ويضعف في حياة الناس، فاحتيج إلى التنبيه، فظهر – في غمرة التفكير في حفظ هذا المضمون – تسميات قصد منها الحضور الذهني لمضمون التصوف عند الناس

(*) بحث منشور في مجلة " بصائر الرباط " العدد الخامس . رمضان ١٤٢٩هـ شتنبر ٢٠٠٨ .(تصدرها دائرة الرباط العلمية للبحث في الدراسات الإسلامية. المدير المسؤول ورئيس التحرير الأستاذ الدكتور فاروق حمادة).

حتى لا يندرس من حياتهم، فاختير – بطريقة تلقائية – تسميات تناسب هذا المضمون.

أما هذا المعنى فقد جرى على الأعمال تلقائيا من خلال قصد المسلم إلى امتلاك القدرة على لزوم طاعة ربه عز وجل والسمو في منازل القربى إليه والرقي في مدارج الزلفى إليه تبارك وتعالى، واتقاء ما يحتف بالنفوس من الأمراض التي تميل بالعبد نحو اللهو والغلو في طلب لذة الدنيا والإباء على الجد والنفور من الطاعة. وكان هذا واضحا من أول ما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان يعلم صحابته طرق القربى إلى الله فيذكرهم ويعظهم ويرغبهم فيما عند الله، وكان يقصد صلى الله عليه وسلم إلى تليين قلوبهم لذكر الله، فيخاطب قلوبهم بالرقائق ويتوجه إلى عقولهم بالعلوم والحقائق حتى تزكو القلوب وتلين، وترتقي العقول وتستقيم في التفكير. وسار الأمر على هذا النحو زمن الصحابة والتابعين. ثم بدأت أحوال القلوب تتحول بسبب التوسع في لذات الدنيا والمبالغة فيها، فاحتيج إلى التذكير بعملية تزكية القلوب وضبط طرق تهذيب النفوس، فوضعت لذلك تسميات للتعبير عن هذا المعنى، فسمي "الرقائق" وسمي "الزهد". أما "الرقائق" فللتعبير عما يرقق النفوس وتلين به القلوب من الأقوال والأفعال، لأن لين القلوب يحصل به انقياد العقل والجسد والجوارح للطاعة والنفور من المعصية، وتلك الغاية المقصودة في الحياة الدنيا. وأما الزهد فللتعبير عن حقيقة تناول لذات الدنيا بالقصد والاعتدال من أجل التزكية، لأن التوسع في اللذة والمبالغة في الشهوة يؤثر على النفوس ويميل بالقلوب نحو اتباع الهوى، وفي ذلك هلاك وخسارة.

وعن مسلك بلوغ هذه الغاية عبر الصحابي الجليل حنظلة بن الربيع لما قال: (لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. قَالَ: سُبْحَانَ

اللهِ مَا تَقُولُ. قَالَ قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ. قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ).[1] ومثل هذا كثير جمعه المحدثون في كتاب الرقاق من جوامع الحديث مثل البخاري وغيره. فهذا هو المعنى الذي كان حاضرا عند الصحابة، إلا أنه كان عندهم مسمى بلا اسم ومعنى بلا عنوان، ثم بدأ هذا المسمى يأخذ تسميات بعد زمنهم. ومنذ زمن التابعين ظهر من علماء الإسلام من ولع بهذا المعنى جمعا وضبطا وتعليما مثل الحسن بن أبي الحسن البصري والفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم والحارث بن أسد المحاسبي، ورويت عنهم أقوال في ترقيق القلوب وتزكية النفوس وحملها على طاعة الله وابتغاء القربى إليه. فمن أقوال الحارث المحاسبي: "العبودية أن لا ترى لنفسك ملكاً وتعلم أنك لا تملك لنفسك ضراً ولا نفعاً. والتسليم هو الثبوت عند نزول البلاء من غير تغير منه ظاهراً وباطناً. والرجاء هو الطمع في فضل الله ورحمته، وأقهر الناس لنفسه من رضي بالمقدور. وأكمل العاقلين من أقر بالعجز أنه لا يبلغ كنه معرفته. والخلق

---

(١) "صحيح مسلم" كتاب التوبة، بَاب فَضْلِ دَوَامِ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَجَوَازِ تَرْكِ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ وَالِاشْتِغَالِ بِالدُّنْيَا .

كلهم معذورون في العقل مأخوذون في الحكم. ولكل شيء جوهر وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر، والعمل بحركات القلوب في مطالعات الغيوب أشرف من العمل بالجوارح." وفي ختام ترجمته قال أبو نعيم: "قد أتينا على طرف من كلام الحارث بن أسد مجتزياً من فنون تصانيفه وأنواع أقواله وأحواله بما ذكرنا، إذ هو البحر العميق ورواياته عن المحدثين المشهورين في تصانيفه مدونة." [1]

وبقي هذا حاضرا عبر العصور وهو ما حمل طائفة من علماء الإسلام على التأليف في أخبار الزهاد وتتبع هذا المعنى عند أهل الفضل والصلاح، مثل ما فعل أبو نعيم الأصبهاني في كتابه الحافل "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" وكان يقصد إلى إبراز ذلك والتنصيص عليه من خلال اختيار العبارات المفيدة لهذا المعنى مثل قوله في مقدمة ترجمة أحدهم: "ومنهم المتخلي من الشهوات، والمتحلي بالخلوات، تخلى من الجزع والهلع واستحلى الفزع والضرع، علي الجرجاني، من قدماء المتعبدين" [2] وهكذا بدأت اصطلاحات هذه الطائفة من علماء الإسلام تتميز وتتمحض في معانيها.

ومع مرور الزمن زيد في تسمية هذا المعنى فسمي" التصوف". وسواء جاءت هذه التسمية من الصفاء أو من الصوف أو من الصفة، فإن ما تقدم هو معناه ومنطلقه، وهو محل إجماع وموضع اتفاق بين جميع المسلمين. ثم ما لبث أن بدأ بعض التغيير يدخل على المعنى، لكن مع بقاء المعنى الأول. ولم يكن ذلك عاما وإنما عند بعض من أشرب مقولات الفلسفة فأحب أن يمزجها بالرقائق فحصل في كلامه ما لا يقبله عامة المسلمين ولا خاصتهم. وكان هذا مع ابن عربي الحاتمي، وابن سبعين وابن الفارض.

(١) "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصبهاني ص ١٨٠٢ .
(٢) "حلية الأولياء" ص ١٨٠٢ .

وفي العصور المتأخرة من تاريخ الإسلام جرى على التصوف ما جرى على غيره من علوم الإسلام من الركود والضعف فآل إلى صور وأشكال صارت هي الأصل المقصود من سلوك طريق التصوف حتى كاد أن يزين لطائفة أن التصوف تحت هذه الصور والأشكال هو غاية القربى ونهاية التكليف ولو مع التحلل من ضوابط العلم وطرق كسب المعرفة. وهكذا تسرب الغبش إلى التصوف، وزاد الأمر إدبارا لما تنوعت الأشكال وتعددت الصور في غفلة عن المقصد الأساس، فحل الاختلاف بين المنتسبين إلى طوائف المتصوفة. ومن مظاهر الانحراف أنك تجد المنتسب إلى التصوف الخاضع لأشكاله وصوره، لا أثر لذلك في سلوكه وتصرفاته، فصار التصوف عند البعض مجرد انتساب لا يدرى ما غايته منه.

فهذا تاريخ طويل للتصوف، لكنه هنا موجز جامع للقواعد الكلية والأفكار العامة التي تختصر الصورة للقارئ المستعجل الذي ليس من عادته مطالعة المطولات في التاريخ والتراجم وغيرها من مظان معرفة أحوال التصوف وأخبار أهله عبر عصور الإسلام.

وبعد شروق شمس النهضة الفكرية المعاصرة في العالم الإسلامي في العلوم الشرعية خاصة، كان التصوف محل نزاع كبير بين الباحثين والدارسين المسلمين. فمن رأى ما حصل من الانحراف في التصوف في العصور الأخيرة وقف منه موقف الإنكار، ويشتد الإنكار عند البعض حتى ينفي صفة العلم والمشروعية عن التصوف مطلقا، فلا يذكر التصوف إلا مقرونا بصورته في العصور الأخيرة. ويقابل هذا فريق آخر عكس القضية فلم يشأ أن يمتد إلى التصوف أدنى تقويم أو تصحيح لمساره. وإن الفريقين قد وصلا إلى الباب المسدود كما يقال، ودليل ذلك شدة العداوة بين الفريقين وحدة التدابر والخصومة إلى حد التقبيح والتجريح، وهذا مما لا يمكن أن تظهر معه بارقة الحق لأن الأمر تجاوز المحاورة العلمية إلى استفزاز المشاعر.

وفي غمرة التفكير في هذه الحال يظهر أنه لابد من التماس سبيل غير هذين السبيلين، والكشف عن مسلك يكون حسنة بين سيئتين يضع كل أمر في موضعه، لأن إنكار التصوف مطلقا غلو ظاهر، وإن منع مراجعته وتقويم مساره انغلاق يأباه منهج العلم والمعرفة.

وإن من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر الذين توقفوا بعمق عند هذه القضية الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي الكردي التركي المتوفى سنة ١٩٦٠ م. فقد كان له نظر علمي دقيق ومنهج عملي واضح في مسألة التصوف. وإن الكشف عن منهجه هذا مما يرجى أن يكون لبنة في إعادة بناء المعرفة الإسلامية وترشيد مسار الفكر الإسلامي المعاصر في قضية التصوف.

ولبيان منهج النورسي في التصوف والقواعد والأصول التي يصدر عنها في ذلك يحسن البدء أولا ببيان نشأة النورسي والظروف التي حفت به خاصة أحوال التصوف، ثم بيان القواعد النظرية والأسس المنهجية التي أقام عليها التصوف، ثم الوقوف على أبرز المعالم العملية للتصوف عند النورسي.

نشأ النورسي في تركيا وعاش فيها في نهاية القرن الميلادي التاسع عشر حتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين. فشهد اضطراب أحوال الخلافة العثمانية ثم سقوطها وإلغاء منصب الخلافة وإقامة الجمهورية التركية العلمانية، وما صاحب ذلك من إعلان الإلحاد والتنكيل بعلماء الإسلام والمصلحين. وكان التصوف حاضرا في تركيا، وكان الطالب في العلوم الشرعية ينشأ ولابد على طريقة من الطرق المشهورة يأخذها عن شيخ معين. ولهذا نشأ النورسي في أحضان الطرق الصوفية، وصرح هو نفسه أن أستاذه في الطريقة النقشبندية هو سيد نور محمد، وأستاذه في الطريقة القادرية هو نور الدين.[1]

(١) " كليات رسائل النور: الملاحق، ملحق بارلا " ص ٧١ . (ترجمة إحسان قاسم الصالحي. ط ٣ – ٢٠٠١. شركة

ولم يبق النورسي وفيا مقلدا لما نشأ عليه من نظام المشيخة الصوفي وأشكالها والتزام صورها حرفيا من أوراد مخصوصة وبيعة، ولا دعا إلى طريقة جديدة، وإنما توقف متفكرا في أحوال عصره وزمانه، متأملا في حوادث عصره وإبانه، ملتمسا المخرج مما نزل بالمسلمين من المحن والمصائب. وكانت المحن الفكرية محل نظر عنده، لما رأى من ركود العلم وفشو التقليد في العلوم الإسلامية. وبعد طول تفكير وعمق تدبر حصلت في حياته الروحية والفكرية تحولات كبيرة، فاختط لنفسه مسلكا آخر في العلم والسلوك. وفي مجال التصوف سلك منهجا خاصا لأنه رأى أن عصره وهمته وما اختطه لنفسه من أهداف، تحمله بالقوة على طلب طريق آخر غير طريق التربية الصوفية بهذا المعنى الذي نشأ عليه وبهذه الصور التي اشتهرت في عصره وبلده. ورأى أيضا أن الانهيار الذي أتى على العالم الإسلامي أكبر من أن يتم إصلاحه بمسالك الطرق الصوفية كما وجدها في عصره، لأن الإيمان يوشك أن يندرس من القلوب، فماذا تجدي طرق الدروشة ومعاول الهدم تضرب من كل جانب. وهذا ما قصده بقوله : "إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية بل زمان إنقاذ الإيمان" [1] وقوله إن "إنقاذ الإيمان أعظم إحسان في هذا الزمان." [2]

ومن جهة مناهج العلم رأى ما دخل التصوف من انحراف خاصة بسبب نوازع الفلسفة ولهذا ناقش بعض أعلام هذا الاتجاه مثل ابن عربي الحاتمي. ومن هذا المنطلق ينكر النورسي على محي الدين بن عربي فكرة وحدة الوجود، ولكنه لا يرميه بسببها بكفر أو زندقة أو فسوق، ولا يتجاهل سعة علومه وعمق أفكاره وعلوّ مقامه. فمن مناقشاته له قوله: "اعلم أن محي الدين بن عربي لا يَخْدع،

سوزلر القاهرة)
(١) " سيرة ذاتية " ص ٣٦٩ .
(٢) " سيرة ذاتية " ص ٣٦٨ .

ولكنه ينخدع، فهو مهتدٍ ولكنه لا يكون هادياً لغيره في كل ما كتبه، فما رآه صِدق وصَواب ولكن ليس هو الحقيقة." وأطال النورسي في إقامة الدليل على ميل ابن عربي عن منهج الحق وانصرافه عن الصواب ويمكن الاقتصار في ذلك على قوله: "ولما كان الشيخ (أي ابن عربي) قد انتهج مسلكاً مستقلاً، وكان صاحب مشرب مهم وله كشفيات ومشاهدات خارقة، فإنه يلجأ باضطرار إلى تأويلات ضعيفة وتكلف وتمحّل ليطبق بعض الآيات الكريمة حسب مشربه ومشهوداته، مما يخدش صراحة الآية الكريمة ويجرحها.. فالشيخ ابن عربي له مقام خاص لذاته، وهو من المقبولين، إلا أنه بكشفياته التي لا ضوابط لها، خرق الحدود وتجاوزها وخالف جمهور المحققين من العلماء في كثير من المسائل."[1]

ولئلا يفهم من هذا أن النورسي ينكر التصوف ويطرحه من الساحة الإسلامية، يرتقي رحمه الله منزلة أخرى لبناء موقفه من التصوف فيقدم إشارة أرقى من التي قبلها عندما يعتبر مسلك علماء الصوفية مسلكا معتبرا للعروج إلى مراتب الكمالات في معرفة الله عز وجل لكنه طريق محفوف بالشبهات. أي إن مجال العقيدة الذي يقوم على معرفة الله حق المعرفة لا تسعف فيه طرق الصوفية، خاصة في هذا الزمان الذي غلبت فيه مناهج العلوم المادية. فطريق التصوف كما وجده وكما وجده أهل عصره قد تسرب إليه ما يجعله في حاجة إلى تقويم وتسديد لعدم كفايته لتعريف الإنسان المعاصر بالله تعالى. وهذا ما قصده بقوله: "إن أصول العروج إلى عرش الكمالات – وهو معرفة الله جل جلاله – أربعة. **أولها**: منهاج علماء الصوفية، المؤسس على تزكية النفس، والسلوك الإشراقي. **ثانيها**:طريق علماء الكلام المبني على الحدوث والإمكان.

---

(١) " كليات رسائل النور : اللمعات " ص ٥٢ – ٥٣ .

هذان الأصلان وإن تشعبا من القرآن الكريم، إلا أن فكر البشر قد أفرغهما في صور أخرى فأصبحتا طويلة وذات مشاكل. **ثالثها**: مسلك الفلاسفة. هذه الثلاثة ليست مصونة من الشبهات، والأوهام! **رابعها**: المعراج القرآني الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان. ونحن قد اخترنا هذا الطريق"[1]

فهو هنا يعتبر مسلك الصوفية مأخوذا في أصله من القرآن الكريم، لكنه لم يحافظ على رونقه وقوته فصار محفوفا بالشبهات والمشاكل. ومعنى هذا أنه لا يطرح التصوف مطلقا وإنما أراد أن يدخل إليه من باب القرآن الكريم كما تم الدخول إليه أول مرة في العهد الأول قبل أن يتسرب إليه ما تسرب. فاعتباره طريق التصوف محفوفا بالشبهات إنما من جهة تعريفه بالله وترسيخ الإيمان في قلوب من لم يؤمن أو تجديده في قلوب من يخشى أن يندرس منه من أهل هذا الزمان. فأهل هذا الزمان لا يسعفهم طريق التصوف بصوره وأشكاله في ترسيخ الإيمان في قلوبهم. والدليل على هذا أنه عرض لذلك في كتابه صيقل الإسلام في عنصر العقيدة في بيان الدلائل المعرفة بالله.

ويسجل النورسي ملحوظة أخرى على التصوف في عصره، وهو تحوله عن أصله الأول وغرضه الأصلي، فأصبح غاية بذاته فكان من التزم بطريقة وبايع شيخا والتزم أشكال الطريقة وأورادها كأنه حقق غرضه ونال مناه وبلغ المطلوب من الدين فيقعد عن العمل لأمته. وهذا في قوله: "ينبغي ألا تتحول الطريقة والحقيقة لدى الصوفيين من كونهما وسيلتين فيصيران غايتين، لأنه بذلك تنحسر الأعمال الدنيوية الشرعية وآداب السنة السنية العملية إلى الدرجة الثانية من

(١) " كليات رسائل النور : صيقل الإسلام " ص ١٢٢ – ١٢٤ .

اهتمام السالك وتصبح صورية وشكلية."[1] فالتربية الصوفية عند النورسي إنما هي وسيلة لتزكية النفس وترويضها على تحمل خطوب الدهر ونوازل الزمان من أجل عمارة الأرض بالخير والدعوة إلى الإيمان خاصة في مثل عصر النورسي الذي ضمر فيه وازع الإيمان في النفوس. فلا معنى للطريقة إذا كان السالك غافلا عن نشر الفضيلة بين الناس والدعوة إلى الإيمان.

فلهذه الأسباب كلها لم يتبع النورسي أي طريقة من الطرق الصوفية التي وجدها في بلده، فقد رأى فيها مسالك تتفق مع عصور أصحابها وظروف حياتهم، وهي مسالك لا تناسب همومه ولا توافق أحوال عصره ولا يجدي سلوكها نفعا للمسلم المعاصر الذي تهب عليه أعاصير الإلحاد والرذيلة. وفي هذا السياق يجب أن يفهم تصريحه أكثر من مرة بأنه ليس صوفيا، أي ليس ممن يلتزم طريقة بعينها ويعلن الولاء لشيخ معين.

ولابد من التنبيه هنا إلى أن النورسي على رغم تركه للطرق الصوفية التي نشأ فيها، وما لاحظ عليها واعتبار ضررها محققا في الوقت الحاضر، فإنه لم يدخل في صدام مع مشايخها، وإنما سد عليه هذا الباب لأنه لم يرد أن يفتح عداوة هو في غنى عنها، فكان دائما حذرا ومحذرا طلبته من إثارة عداوة شيوخ الصوفية. حتى إذا أمن من عداوتهم واتقى ما قد يترتب عنها من مشاكل، راح يقيم صرح التصوف كما يبدو له في انسجام مع أحوال عصره.

---

(١) " كليات رسائل النور : المكتوبات " ص ٥٤٨ .

١ ـ النورسي مجدد التصوف

إن الأستاذ النورسي – على رغم ما نقد به المتصوفة – فإنه لم يتجاوز التصوف تجاوز نقض وتخريب؛ وإنما تجاوزه تجاوز احتضان واستيعاب وإصلاح وتجديد وتقويم وتسديد ليستأنف دوره في التربية والتزكية من أجل البناء الحضاري. فهو صوفي بالمعنى الأصلي لهذه الكلمة، وإنما أراد تخليص التصوف من الأشكال والصور والأسماء، لأن التصوف لا عبرة فيه بذلك وإنما العبرة بالمعنى وهذا حاله في الزمن الأول، لما كان حقيقة بلا أسماء ومعنى بلا أشكال ومسمى بلا اسم، فكان يجري أثره على القلوب وتظهر أحواله على الجوارح تلقائيا من غير حاجة إلى تخصيصه بأسماء وعناوين وصور وأشكال. ولعل نفي النورسي التصوف عن نفسه إنما أراد لنفسه أن يكون عاملا فعالا في تواضع وصمت، من غير أن يتسمى بأسماء أو يتجمل بعناوين، فيكون بذلك قد أصاب عين التصوف لأنه خلص إلى مقصده وغايته من التزكية مع السلامة والتخلية من مرض الرياء والسمعة. فما هي أوجه التجديد التي امتدت إلى التصوف عند النورسي ؟

مشروعية التصوف:

أول ما ينبغي إثباته هنا أن النورسي قد أثبت جدارته في طريقة تثبيته مشروعية التصوف، فلم يدخل في الجدال المعتاد في المحاجة بين دعاة التصوف وبين خصومه من قصد كل فريق إلى إبطال أدلة خصمه، وإنما اعتمد منهجا سالكا اهتدى إليه من خلال عمق تأمله في أزمة الإنسان المعاصر. لقد وضع النورسي يده على موطن الداء الذي ألم بالفكر المعاصر المعجب بالمنجزات العلمية المادية، وانطلق لبناء صرح التصوف على أساس الحاجة الملحة في العصر الحاضر وبناء على الأحوال التي تحف بالإنسان المعاصر وما تلجئه إليه ظروفه

من الحاجات. فمشروعية التصوف بل الحاجة إليه تقوم عند النورسي على أسس أربعة هي الدليل التاريخي، وحقيقة الإنسان، وواقع الإنسان المعاصر، وطبيعة المعرفة الإنسانية.

الأساس الأول: الدليل التاريخي، ويقصد به ما يفصح عنه التاريخ من هذا الجم الغفير من عباد الله المتقين وأولياء الله الصالحين الذين حصل إجماع أهل عصرهم على ورعهم وصدقهم، والذين أفصحوا جميعا عن حقيقة واحدة هي وجدان لذة غامرة يسمو بها القلب في معارج الكمالات المعنوية الإنسانية. منهم حنظلة رضي الله عنه لما أفصح عن الحالة النفسية التي يكون عليها وما يجده فيها من اللذة المعنوية التي عجز عن وصف حقيقتها فعدل عنه إلى وصف آثارها لما اعتبرها كأنه يرى الجنة ونعيمها والنار وجحيمها. وأقر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الوجدان وزاده تأكيدا فبين أن هناك مقاما أسمى من هذا، لولا التكليف بمعاناة الحياة الدنيا لبلغه العبد إذا سلك طريقه واستجمع شروطه وهو قوله صلى الله عليه وسلم (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً) إنه المقام المرتجى والمنزلة السامية العليا والمعراج الروحي نحو الكمال البشري، يعلن عنه صلى الله عليه وسلم أمام أهل الإيمان ليجتهدوا في الرقي كل بحسبه. وعن هذه المنزلة أيضا يقول صلى الله عليه وسلم: (أن تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ يراكَ فإن لم تكن تراه فإنَّهُ يراك)[1]. وعن لذة هذا العروج أفصح أولياء الله الصالحين عبر العصور.

هذا الجم الغفير المتفرق في الأمصار، المتباعد في الديار والأزمان مع الاتفاق على حقيقة واحدة يحمل على الإقرار بما أفصحوا عنه في جملته وعمومه إن لم يكن

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان..

في تفاصيله. فهذا السلوك وطلب الرقي نحو هذه المنزلة هو معنى الطريقة والولاية والسلوك وغيرها من التسميات، وإن اختلفت، فهي تفصح عن معنى واحد. وهذا ما عبر عنه النورسي بقوله: "هناك تحت عناوين" التصوف، والطريقة، والولاية، والسير والسلوك "حقيقة روحانية نورانية مقدسة، طافحة باللذة والنشوة، أعلن عنها كثير من علماء أرباب الكشف والأذواق وتناولوها بالدرس والتمحيص والتعريف، فكتبوا آلاف المجلدات حولها فأخبروا الأمة وأخبرونا بها، جزاهم الله خيرا كثيرا." [1]

الأساس الثاني: **حقيقة الإنسان ملجئة إلى التصوف**: انطلق النورسي هنا من النظر في حقيقة الإنسان التي خلق عليها، فتوقف عند أشرف ما فيه وأجمل ما يدل على السمو البشري وهما عقل الإنسان وقلبه. فبهما نال شرف الأفضلية والتكريم. إن القلب والعقل كلاهما مخلوق عظيم وعالم عجيب، وذاك ظاهر فيما يحدثان من آثار في حياة الفرد والجماعة. فحياة الإنسان تقوم على عمل العقل والقلب. أما عمل العقل فيتجلى في تيسير حياة الإنسان وتجميلها بالعلوم والمعارف. وأما القلب فبتزيين الحياة المعنوية للإنسان ومنحه حقيقة الكمال البشري. إن أهمية القلب وخطورته تفيد ضرورة حركته وعمله. فالقلب بمنزلة خريطة معنوية مما يدل قطعا على أن فاطر ذلك القلب الذي خلقه على هذه الصورة قد أراد تشغيل هذا القلب وتحريكه والكشف عن قدراته والانتقال به من طور "القوة" إلى طور "الفعل". "فما دام سبحانه وتعالى قد أراد هكذا، فعلى القلب إذن أن يقوم بعمله الذي خلق من أجله، كما يقوم العقل بعمله. ولا شك أن أعظم وسيلة لعمل القلب وتشغيله هو التوجه إلى الحقائق الإيمانية بالإقبال على ذكر الله ضمن

---

(١) " كليات رسائل النور : المكتوبات " ص ٥٧١ .

مراتب الولاية عبر سبيل الطريقة." [1] إن الكمال البشري لا يتم إلا بسمو النفس وليس بالقوى الحيوانية، فالتزكية النفسية شرط الكمال البشري لأن بها الرقي المعنوي وبها يبلغ الإنسان سلطنة العبدية.[2]

- **الأساس الثالث : واقع الإنسان المعاصر**: إن الواقع البشري عند النورسي - بالنظر الفاحص - يتفجر عبرا ويفيض دروسا. ومن ينظر في الزمن المعاصر لن يجد أدنى صعوبة في وضع يده على مواطن الداء. فكل إنسان يبحث عن سلوان، ويفتش عن ذوق ويتحرى أنيسا يزيل عنه وحشته ويخفف عنه ثقل الحياة. إنه عصر الكآبة النفسية والاضطرابات العصبية.[3] و"إن ما يمنحه المجتمع الحضاري من الوسائل المسلية والأنس بالآخرين قد تمنح واحداً أو اثنين من عشرة من الناس أنسا مؤقتا بل ذا غفلة وذهول، والثمانين بالمائة من الناس إما أنهم يحيون منفردين بين الجبال والوديان، أو ساقتهم هموم العيش إلى أماكن نائية موحشة، أو ابتلوا بالمصائب أو الشيخوخة النذيرة بالآخرة... فهؤلاء جميعاً يظلون محرومين من الأنس فلا يأنسون ولا يجدون العزاء بوسائل المجتمع الحضارية!.. لذا فالسلوان الكامل لأمثال هؤلاء، والأنس الخالص لهم ليس إلا في تشغيل القلب بوسائل الذكر والتفكر." [4]

- **الأساس الرابع: طبيعة المعرفة الإنسانية**: وهذا الأساس متفرع عن الذي قبله. فمن أسباب أزمة الإنسان المعاصر النفسية والمعنوية، ما رسخته مناهج العلوم وطرق المعرفة المعاصرة من الفصل بين الدين والدنيا، وما وضعته من

---

(١) " كليات رسائل النور : المكتوبات " ص ٥٧٢ .

(٢) ينظر : " كليات رسائل النور : الكلمات " ص ٣٧١ .

(٣) صدر للشاعرة اللبنانية جمانة حداد كتاب في الشعراء المنتحرين في القرن العشرين، بلغ عددهم مائة وخمسين من مختلف بلاد العالم.

(٤) " كليات رسائل النور : المكتوبات " ص ٥٧٢ .

حواجز بين القلب والعقل. فلم يعد العقل يجدي شيئا لأن القلب أظلم بسبب الغفلة عن التزكية القلبية والتجافي عن النفحات الروحية. فالعلم والفلسفة توهما الكمال والاستغناء عن الدين والإيمان والتزكية الروحية، وزاد المتصوفة في العصور الأخيرة في ترسيخ هذا الفصل لما نبذوا الدنيا وعلومها واعتبروها أشباحا وخيالات. فصار الناس فريقين أحدهما ينقاد للفلاسفة والعلماء، وفريق سلم للأولياء وشيوخ الصوفية، كل في حزبه معزولا عن غيره. وقد عبر النورسي عن هذا الواقع بدقة وهو يقارن بين الأولياء والفلاسفة ليوقف على انفصام خطير بين الفريقين مع أنهما يتوجهان كليهما إلى ذات واحدة هي الإنسان. وخلاصة ذلك:

١ – إن الأولياء الصوفية توجهوا إلى الله تعالى وحده بكليتهم فلم تعد أسرارهم ترى في الوجود إلا هو، وكانوا غائبين بقلوبهم وأرواحهم عن المادة. أما الفلاسفة الماديون وضعفاء الإيمان، فقد توجهوا بكليتهم إلى المادة وصرفوا كل تفكيرهم ونظرهم فيها، وصاروا لا يرون غيرها فغابوا عن الألوهية، ثم ازدادوا جهالة حين توهموا امتزاج الألوهية بتلك المادة.

٢ – إن الأولياء الصوفية لم تشاهد أرواحُهم إلا الحقَّ. أما الماديون فإنَّ بواطنهم العالقة في المادة لم تر إلا وحدة المادة الموجودة.

٣ – إن مسلك الأولياءِ الصوفية مسلكٌ ذوقي بينما مسلك الماديين مسلكٌ عقلي.

٤ – إن نظر الأولياء إلى المخلوقاتِ تابعٌ لمعرفتهم بالله وفرعٌ ثانويٌّ عنها، أما الماديون فإن نظرهم إلى المخلوقاتِ أصلٌ، وقد حصروا فيها ذلك النظر.

٥ – الأولياء يعبدون الله ويستغرقون في محبته، والماديون يعبدون أنفسهم وهواهم؛ فأين الثرى من الثريا.. وأين الضياء الساطع من الظلمة الدامسة[1].

---

(١) " كليات رسائل النور : المثنوي العربي النوري" ص ٤٣٢ _ ٤٣٣ . .

إنه اضطراب خطير وكأن الإنسان شقان منفصلان متعارضان، إما أن يصغي للفلاسفة وإما للصوفية، أو أن يصغي لهذا حينا ثم يصغي للآخر حينا آخر، في غمرة مشاكل الحياة المعاصرة التي تلجئه إلى طلب التنفيس المرة بعد المرة، فيعطل عقله حينا ويغلق قلبه حينا آخر، لأنه بين ضدين لا يجتمعان. وقد شغل هذا الواقع تفكير النورسي وعبر عن شعوره بهذا الاضطراب فقال وهو يصف تأرجح عقله وقلبه بين التعلق بالحقيقة الأزلية وملاحظة المخلوقات الظلالية فيقول رحمه الله: "يتدحرج رأسي في آن واحد من الأوج إلى الحضيض، ومن الحضيض إلى الأوج.. سلكت طريقًا غير مسلوك، في برزخ بين العقل والقلب، ودار عقلي من دهشة السقوط والصعود." [1]

وبعد طول نظر وعمق تفكير اهتدى إلى أن سبيل الخلاص من الانفصام والاضطراب هو التأليف بين العقل والقلب، فكلاهما نور والأنوار لا تتزاحم. بل إن نور أحدهما يتوقف في إضاءته على الآخر. " إن نور الفكر ظلام يفجر ظلاما ما لم يتوهج بضياء القلب ويمتزج به. فكما إذا لم يمتزج نهار العين الأبيض غير المنور بليلها الأسود فلا تكون بصرا، كذلك لا بصيرة لفكرة بيضاء لا توجد فيها سويداء القلب. إذا لم يكن في العلم إذعان القلب فهو جهل، لأن الالتزام شيء والاعتقاد شيء آخر." [2] فلابد للتصوف أن يرى الحياة والوجود حقيقة لا أشباحا، ولابد للعلم والفلسفة أن يمتزجا باللطائف المعنوية للقلب، فبغير هذا لا تتحقق حقيقة الإنسان. فالتصوف حاجة يزكو بها العلم ويسمو بها العقل، وهذه هي الطبيعة الحقيقية للمعرفة والتربية. إن التصوف يعمل على تحريك قلب الإنسان الذي يعتبر مركزا لجسمه ولولبا لحركته وتوجيهه إلى الله، فيندفع بهذا

---

(١) " كليات رسائل النور : المثنوي العربي النوري" ص ٣٥.
(٢) " كليات رسائل النور : المكتوبات " ص ٦٠٣ .

كثير من اللطائف الإنسانية إلى الحركة والظهور فتتحقق حقيقة الإنسان. فعلى هذه الأسس أقام النورسي مشروعية التصوف والحاجة إليه وفائدته في العصر الحاضر. وبناء عليها وضع معالم جديدة للتصوف، تعيده إلى سالف عهده وترجعه إلى أصله، ينطلق من القرآن الكريم ويستظل بظلال السنة النبوية، ويؤلف بين الحقيقة والطريقة، ويمزج بين الدين والدنيا، ويؤلف بين القلب والعقل، وهذا ما نفصله وبالله التوفيق.

٢ ـ معالم التصوف عند النورسي :

أول ما يؤكد عليه النورسي أن التصوف لا يجوز أبدا أن ينفصل عن العلم والمعرفة، حتى يبقى منضبطا للمنهج العلمي. ويسميه "الطريقة" من غير أن يقصد بها الانتماء إلى شيخ والتزام أوراد طريقة معينة، وإنما المعتبر عنده في الطريقة هو الغاية والمقصد، فكل ما كان غاية إلى معرفة حقائق الإيمان وسمو القلب في مدارجها فهو طريقة. وهذا ما يظهر من قوله وكأنه هنا يعرف التصوف:" إن غاية "الطريقة" وهدفها هو معرفة الحقائق الإيمانية والقرآنية، ونيلها عبر السير والسلوك الروحاني في ظل المعراج الأحمدي وتحت رايته، بخطوات القلب، وصولا إلى حالة وجدانية وذوقية بما يشبه الشهود. فالطريقة والتصوف سر إنساني رفيع، وكمال بشري سام." [1] فاعتبر التصوف طريقا إلى معرفة حقائق الإيمان والقرآن ثم السير والرقي في ذلك إلى أعلى المنازل، وهو ما عبر عنه بما يشبه الشهود وليس الشهود لأنه متعذر في الدنيا. ولعله هنا عبر عن معنى الرقي لبلوغ مرتبة الإحسان في الدين والتي عرفها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: (أن تعبدَ اللهَ كأَنَّكَ تراهُ يراكَ فإن لم تكن تراه فإنَّهُ يراك)[2] وهذا بعد

---

(١) " كليات رسائل النور: المكتوبات " ص ٥٧١ .

(٢) " صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان..

أن ذكر مراتب الإسلام ثم الإيمان. وواضح من الحديث أنه فاضل بين المراتب فأدناها الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان وهو أعلاها. أما الإسلام فهو الانقياد الظاهر، وأما الإيمان فهو الإقرار الباطن والمعرفة القلبية، ثم بعد ذلك يفتح باب الرقي في مراتب هذه المعرفة لبلوغ مرتبة الإحسان، وما يبذله السالك من جهد ويسلكه من أعمال ووظائف هي التصوف والطريقة والسلوك. وبهذا المعنى علق تاج الدين السبكي على هذا الحديث بقوله: "وعلوم الشريعة في الحقيقة ثلاثة: الفقه، إليه الإشارة بالإسلام، وأصول الدين، وإليه الإشارة بالإيمان، والتصوف وإليه الإشارة بالإحسان. وما عدا هذه العلوم إما راجع إليها وإما خارج عن الشريعة" [1] وهذا السلوك لابد له عند النورسي من أوصاف ومعالم هي :

- القرآن الكريم مدخل التصوف والسنة النبوية رائده ودليله:

لم يزل النورسي يؤكد ويعيد على أن التصوف ينطلق من القرآن الكريم ويهتدي بالسنة النبوية. بل إنه حاول جهده أن يعرف القرآن الكريم من خلال حقائقه التي يتحقق بها العروج في مدارج السلوك، فيقول رحمه الله : "فإن قلت: القرآن ما هو؟ قيل لك: هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم.. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض. وكذا هو مفتاح الحقائق والشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية، والالتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي. وكذا هو قول شارح، وتفسير واضح، وبرهان قاطع، وترجمان ساطع؛

---

(١) " طبقات الشافعية الكبرى " لتاج الدين السبكي ج ١ ص ١١٧. (تحقيق : محمود الطناحي عبد الفتاح لحلو. ١٣٨٣ – ١٩٦٤. مطبعة عيسى البابي الحلبي.)

لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.وكذا هو مرب للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي (الإسلامية). وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد الهادي إلى ما خلق البشر له. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر. وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة، في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية. كذلك هو كمنـزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل؛ حتى إنه أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة، من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين؛ رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره، حتى كأنه مجموعة من الرسائل"[1].
وعن السنة النبوية يقول: "إن اتباع السنة النبوية المطهرة هو أجمل وألمع طريق موصلة إلى مرتبة الولاية من بين جميع الطرق، بل أقومها وأغناها. والإتباع يعني: تحري المسلم السنة السنية وتقليدها في جميع تصرفاته وأعماله، والاستهداء بالأحكام الشرعية في جميع معاملاته وأفعاله... فإن اتباع السنة المطهرة هو طريق الولاية الكبرى، وهو طريق ورثة النبوة من الصحابة الكرام والسلف الصالح." [2]
وجميع المعالم الأخرى إنما استمدها من القرآن الكريم والسنة النبوية.

- **التصوف ينطلق من الوجود ويرتبط بالحياة الدنيا**: إذا كان التصوف آل إلى اعتبار الحياة الدنيا ومتعتها شرا يتجنب والوجود ظلالا وأشباحا لا حقيقة لها، فإن النورسي جاهر بمخالفة ذلك واعتبر الحياة الدنيا بمتعتها الحلال طريقا سالكا إلى الله تعالى، وجعل الموجودات كلها إعلانات عن الله تعالى فمن أعدمها

---

(١) " كليات رسائل النور : المكتوبات " ص ٢٦٧.
(٢) " كليات رسائل النور : المكتوبات " ص ٥٨١ .

فقد منع عن نفسه طريقا واضحا سالكا نحو المعرفة التي تقود إلى ما يشبه الشهود. وعلى هذا فالرقي الروحي إنما يكون في حال اليقظة، لا في حال المحو والسكر، كما يعبر بعض القوم. لأن الحضور واليقظة أقوى من الغياب. وهذا هو طريق القرآن عنده الذي تسلك بالعبد إلى ربه عبر نفسه الواعية اليَقِظَةِ؛ من خلال مسلك الوجود. ومن هنا لا حاجة إلى محو الوجود. قال رحمه الله: "إن هذا الطريق أَسْلَمُ من غيره... إذ المرء لا يجد في نفسه غير العجز، والفقر، والتقصير، حتى لا يتجاوز حده. ثم إن هذا الطريق طريق عام وجادة كبرى، لأنه لا يضطر إلى إعدام الكائنات، ولا إلى سجنها، حيث إن أهل "وحدة الوجود" توهموا الكائنات عدماً، فقالوا: "لا موجود إلا هو" لأجل الوصول إلى الاطمئنان والحضور القلبي. وكذا أهل"وحدة الشهود" حيث سجنوا الكائنات في سجن النسيان، فقالوا: "لا مشهود إلا هو" للوصول إلى الاطمئنان القلبي.بينما القرآن الكريم يعفي الكائنات بكل وضوح عن الإعدام، ويطلق سراحها من السجن. فهذا الطريق على نهج القرآن ينظر إلى الكائنات أنها مسخرة لفاطرها الجليل، وخادمة في سبيله، وأنها مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى، كأنها مرايا تعكس تلك التجليات. أي أنه يستخدمها بالمعنى الحرفي، ويعزلها عن المعنى الاسمي من أن تكون خادمة ومسخرة بنفسها. وعندها ينجو المرء من الغفلة، ويبلغ الحضور الدائمي على نهج القرآن الكريم. فيجد إلى الحق سبحانه طريقاً من كل شيء"[1] فجعل رحمه الله كل شيء في الوجود طريقا إلى الله.

- **التصوف قيام بحق البدن مع الروح**: عاب النورسي توهم بعض المشتغلين بالطرائق أنها تدعوهم إلى إهمال البدن كَسْرًا للنفس. والحال أن حق البدن في المتعة واللذة يوجه في طريق السلوك. بل إن خلق الشهوات في الإنسان من أجل

---

(١) " كليات رسائل النور : الكلمات " ص ٥٦١ .

ذلك. فلكي تنمو الاستعدادات البشرية للرقي في مدارج الكمال نحو عالم البقاء حيث كمال الجمال، خلق الله تعالى في البشر قوى شهوية ومعنوية وأودع فيه نفحات روحية عظيمة يرقى بها من دركات اللذة الدنيوية العابرة إلى درجات الكمال. فالشهوات والغرائز البشرية تثور في الإنسان وهو على ظهر الأرض ليشاهد قبسا يسيرا من الجمال، ويذوق جزءا حقيرا من اللذة تدله على غيرها، ثم تثور القوى المعنوية لتسوقه إلى الجمال السرمدي فتذكره بجمال الخالق المنعم وجلاله فيكتسب محبته ويلتزم طاعته ويتشوف إلى لقائه، فتكون بذلك شهوات النفس ولذات الحياة الدنيا طريقا إلى اللذات الغامرة والجمال السرمدي في دار البقاء. وقد من تجارب النورسي التي استفاد منها هذه الحقيقة قوله: "إني رأيت نفسي مغرورة بمحاسنها، فقلت: لا تملكين شيئًا. فقالت: فإذًا لا أهتم بما ليس لي من البدن. فقلتُ: لابد أن لا تكوني أقل من الذباب، فإن شئتِ شاهدًا فانظري إلى هذا الذباب كيف ينظِّفُ جَناحيه برجليه ويمسح عينيه ورأسه بيديه، سبحان من ألهمه هذا وصيّره أستاذًا لي وأفحم به نفسي"[1].

– **التصوف تأليف بين العقل والقلب**: إن حقيقة السلوك وجوهر التصوف هو تحقيق الانسجام والتواصل بين قوى العقل وإشراقات القلب، والتأليف بين جمال العلم ومحاسن اللذة الروحية. إنه امتزاج دائم لا ينفصل. وقد تجلى هذا في حياة النورسي، فلا تكاد تفصل بين النورسي وهو يفكر وبينه وهو يناجي ربه ويرتقي في منازل القربى، فكل موقف يقفه وكل لحظة من لحظات الحياة فيه فائدة علمية للعقل، وعبرة للقلب وموعظة للوجدان. ولعه قصد من هذا بيان انحراف تسرب إلى حياة السالكين وغير السالكين، عندما وضعت حدود فاصلة بين معرفة العقل ووجدان القلب، فتجد المرء – إن ظهر له وجه عناية بالقلب– يجعل لنفسه وقتا

(١) " كليات رسائل النور : المثنوي العربي النوري/ ١٦٨.

خاصا للقلب في التكية مع الشيخ، وما سواه ليس إلا لحياة الجسد والعقل، فإما غارقا في التفكر، وإما سابحا في الأسرار، إما تعقل جاف وإما اتعاظ مغرق في الأسرار والخوارق.

- **العجز والفقر والشفقة والتفكر طريق قرآني سالك ميسور** : يضع النورسي طريقا للسلوك إلى الله تعالى والرقي في مراتب القربى إليه ويجعله في أربع خطوات اهتدى إليها عن طريق القرآن الكريم، وهذا ما بينه بقوله: "للوصول إلى الله سبحانه وتعالى طرائق كثيرة، وسبل عديدة. ومورد جميع الطرق الحقة ومنهل السبل الصائبة هو القرآن الكريم. إلا أن بعض هذه الطرق أقرب من بعض وأسلم وأعم. وقد استفدت من فيض القرآن الكريم – بالرغم من فهمي القاصر– طريقا قصيرا وسبيلا سويا هو طريق العجز، الفقر، الشفقة، التفكر."[1] **أما العجز** فالمقصود به الإقرار بالعجز والضعف بين يدي الله تعالى، وليس بين يدي الناس. وهذا العجز يكسب المؤمن قوة ولذة لأنه يورثه الشعور بالاحتماء بالله بإعلان العجز بين يديه. وإعلان العجز يؤدي إلى الخطوة التي تليها وهي الفقر إلى الله تعالى والإقرار بالحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه. والعجز والفقر يوصلان إلى المحبوبية بطريق العبودية، فهما للعبد قوة وغنى. يقول النورسي: " فالإنسان بقوة ضعفه وقدرة عجزه أقوى وأقدر بمراتب، إذ يسخر له بالدعاء والاستمداد ما لا يقدر على عشر معشاره باقتداره، فهو كالصبي يصل ببمائه إلى ما لا يصل إليه بألوف أضعاف قوته، فيتفوق بالتسخير لا بالغلبة...فعليه أن يعلن عجزه وضعفه وفقره وفاقته بالاستمداد والتضرع والعبودية"[2] ويزيد في بيان ما في العجز بين يدي الله والفقر إليه من قوة وغنى من خلال تجربته فيقول: "عرفت بالعجز

---

(١) " السيرة الذاتية " ص ١٧٧.

(٢) " كليات رسائل النور : المثنوي العربي النوري " ص ٣٦٣ .

والفقر غير المحدودين الكامنين في حياتي القدرة المطلقة لخالقي ورحمته الواسعة، من حيث إزالة حاجاتي التي لا تنتهي، ودفع أعدائي الذين لا يعدون، فعلمت وظيفة العبودية، وتزودت بالسؤال والدعاء والالتجاء والتذلل." (١)

وأما الشفقة فهي التحلي بالحظ البشري من اسم الله تعالى " الرحيم"، ويأتي التفكر ليضع السالك في مقام التذكر من خلال ما يرى في الوجود من وجوه الحكمة فيعيش في تجليات اسم الله الحكيم. ومثل هذا قصد ابن الجوزي بقوله: " تأملت المراد من الخلق فإذا هو الذل واعتقاد التقصير والعجز"(٢) ولابد لهذا الطريق من أن ينضبط بأصول الشريعة وميزان السنة وهو ما بينه النورسي بقوله: "أما أوراد هذا الطريق القصير وأذكاره، فتنحصر في اتباع السنة النبوية، والعمل بالفرائض، ولاسيما إقامة الصلاة باعتدال الأركان والعمل بالأذكار عقبها، وترك الكبائر."(٣) وأما أصول هذه الخطوات وأدلتها فهي من القرآن الكريم على الترتيب قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (النجم:٣٢) وقوله عز وجل: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (النساء:٧٩) وقوله عز من قائل: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ (الحشر:١٩) وقوله تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص:٨٨). (٤)

- **التصوف نظر إلى وجه الدنيا الجميل وهو كونها مزرعة للآخرة ومرآة لتجليات أسماء الله الحسنى:** يؤكد النورسي ويعيد التأكيد أن التصوف ليس نبذا للحياة الدنيا وإعداما للموجودات وإعراضا عن لذات الحياة، وإنما هو اتخاذ الدنيا ولذاتها طريقا سالكا إلى الله تعالى. وأصل ذلك أن للدنيا ثلاثة أوجه: وجه

---

(١) " كليات رسائل النور: الشعاعات " ص ٨٣ .

(٢) " صيد الخاطر " ص ٩٠ .

(٣) " كليات رسائل النور: المكتوبات " ص ٥٩٥ .

(٤) ينظر: " كليات رسائل النور: المكتوبات " ص ٥٩٥ – ٥٩٦ .

كونها مزرعة للآخرة، ووجه كونها مرآة لتجليات أسماء الله الحسنى، ووجه الدنيا الذي يتوجه إليه أهل الضلالة. أما الوجه الثالث فمذموم، وكل ذم للدنيا في القرآن الكريم والسنة النبوية فالمقصود به هذا الوجه، وليس مطلق الدنيا. أما الوجهان الأول والثاني فهما محمودان. وعلى هذا يتوجه العبد السالك بالمحبة إلى الدنيا لأنها رأسمال للفوز بنعيم الآخرة الذي هو الغاية المرجوة، ولأنه تتجلى له في الدنيا الآثار الجميلة لأسماء الله الحسنى، لأن الكون يغدو في نظره مسجدا عظيما تلهج فيه جميع الموجودات بذكر الله لأنه كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (الإسراء :٤٤) وعلى هذا المسلك يربط العبد التواصل مع الكون من حوله فيشاهد ويحس ويذوق فيزداد معرفة بربه من خلال ما يرى من تجليات أسمائه. لأن جميع وجوه الإحسان والكرم والإنعام، ومظاهر التجدد في الكون، من آثار أسماء الله الحسنى ومن تجلياتها الجميلة. فأسماء الله الحسنى تجمل الكون بتجلياتها وآثارها. ومن تجليات جمال أسماء الله الحسنى في الكون ما يحصل من التبدل المستمر في العالم والتجدد في الموجودات من غير توقف، وتصريف الأحوال في كل آن وحين، لأن كل اسم من أسماء الله الحسنى يقتضي ظهورا. فاسم المحيي مثلا يقتضي ظهورا فيتجلى أثره في الكون في كل وقت وحين، فيظهر جماله من خلال ما يشاهد في الكون من تجدد عملية الإحياء للأرض في كل فصل، والإحياء للإنسان والحيوان، ففي كل لحظة حياة ترسل في الكون في عالم الإنسان والحيوان والنبات وسائر المخلوقات، فذلك كله من تجلي جمال اسم "المحيي" الذي يظهر في الكون فيجمله. وكذلك اسم "المميت" فلا معنى للحياة لولا الموت ففي ظهور تجليات "المحيي" وتجليات"المميت" جمال للكون، لأن عملية الإحياء والإماتة في الكون لا تتوقف، ففي كل لحظة أحياء يولدون وأموات يزولون في عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد وسائر

الموجودات مهما اختلفت خصائصها وطبيعة خلقتها، وفي كل لحظة من لحظات الحياة على ظهر الأرض زمن يموت ويزول وزمن يحيى ثم ما يلبث أن يزول. في كل حين تشهد الأرض موكب جنازة كبيرة لمن أنهوا مهامهم من المخلوقات والموجودات، و وفي الحين نفسه موسم كبير لمواليد جديدة تتسلم مهامها. فكل ذلك من تجلي اسمي "المحيي" و"المميت". "فإن للأسماء الحسنى تجليات متنوعة لا تحد، فتنوع المخلوقات ناشئ عن تنوع تلك التجليات...فإن تلك الأسماء المختلفة – لكونها دائمة وسرمدية – تقتضي ظهورا دائما سرمديا أي تقتضي رؤية نقوشها، أي تقتضي رؤية وإراءة جلوة جمالها وانعكاس كمالها في مرايا نقوشها، أي تقتضي تجديد كتاب الكون الكبير آنا فآنا."[1] وأثناء هذا السير تحصل للسالك لذتان: اللذة المادية الشهوية، واللذة المعنوية الحاصلة بارتشاف جمال تجليات أسماء الله الحسنى والعيش في كنفها.

هذه هي معالم السلوك والتصوف عند النورسي، وأما غايته المرجوة فهي "العمل للوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل، وذلك بالتوجه القلبي إلى الله طوال سيره وسلوكه، وأثناء معاناته الروحية التي تسمو بحياته المعنوية، أي الوصول إلى مرتبة المؤمن الحق والمسلم الصادق، أي نيل حقيقة الإيمان والإسلام لا صورتيهما. ثم أن يكون الإنسان عبداً خالصاً لرب العالمين، وموضع خطابه الجليل، وممثلاً عن الكائنات من جهة، وولياً للّه وخليلاً له، حتى كأنه مرآة لتجلياته سبحانه، وفي أحسن تقويم حقاً فيقيم الحجة على أفضلية بني آدم على الملائكة. وهكذا يطير بجناحي الإيمان والعمل بالشريعة إلى المقامات العليا والتطلع من هذه الدنيا إلى السعادة الأبدية بل الدخول فيها."[2]

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) " كليات رسائل النور : المكتوبات " ص ٣٧٣ .

(٢) " كليات رسائل النور : المكتوبات " ص ٥٩٣ .

٤

المقاصد العملية للتربية السلوكية

عند بديع الزمان النورسى(*)

إن الناظر في سيرة بديع الزمان سعيد النورسى والمتأمل في أيامه وحياته، ليستوقف نظره ويثير انتباهه ما كان عليه هذا الرجل من علو هِمَّة وتجرد لخدمة غاية جعلها هدفا لحياته، وانقطاع تام لنشر أفكار خبر صحتها وفائدتها. فقد علا رحمة الله عليه بهمته وسعة فكره وبعد نظره وقوة إيمانه على أهل زمانه، وخلص عقله وقلبه من أسر عصره ومحن أوانه وإبانه. فقد رأى العالم الإسلامى يضطرب بناؤه وتهتز أركانه بسبب رياح عاتية هبت عليه من كل جانب تثير نقعا يدخل الحزن والأسى على القلوب فيزين لها الإلحاد والزندقة، ويحرك فيها نوازع الشر والتمرد على الخير. فاضطربت الأفكار وطاشت العقول وزاغت الأبصار، إلا القليل النادر ممن رحم الله. وزاد الأمر إدبارا وشدة لما تولى أمور المسلمين أهل الإلحاد والزندقة فحملوا معاول الهدم وجردوا سيوفهم لقطع دابر الخير واقتلاع جذور الإيمان والصلاح من القلوب.

ومن يطالع رسائله يلفه معبرا أمينا وناطقا صادقا عن أقوال أمته وأهل زمانه. ثم إنه قد اكتوى بنار الفساد والإلحاد وناله من الأذى والبلاء ما قل نظيره في عصره وزمانه. وكانت ظروف وحدته في السجون والمنافي وآلام غربته في غيابات الأصقاع النائية، وأحزانه في القفار الخالية في أرجاء البلاد التركية وغيرها من

(*) بحث مقدم في ندوة " التربية السلوكية بين بديع الزمان النورسي وابن المؤقت المراكشي" بكلية الآداب جامعة القاضي عياض بمراكش بالمغرب بتاريخ ١٤١٦ يناير ٢٠٠٣.

الأمصار السيبيرية (نسبة إلى سيبيريا) الروسية، (كانت) فتحا لعقله وبصيرته ومثيرا لفكره وأنوار قلبه.

وإن المرء ليعجب كيف اخترق هذا الرجل كل الأسوار المنيعة والحواجز المحكمة التى وضعها أهل الفساد والإلحاد وهم يحسبون أنهم قد ألجأوا أهل الخير والصلاح إلى ركن قصى، فليس لهم من حيلة إلا الخضوع لسلطان المدنية الحديثة التى لا تعرف الإيمان والخير، ومن أبى فليس أمامه إلا الموت حسرة وألما.

ومن ينظر بميزان الحقائق المادية، ير أن بديع الزمان النورسى ليس له مال ولا سلطان، ولا قوة ولا منعة، فمثل حاله لا يحمل صاحبه إلا على التسليم لقدره والاستسلام لواقع حاله من غير تردد ولا مقاومة ولا مغالبة، وما كان خصومه يجدون صعوبة في إذايته وتعذيبه، لأنه ليس له من القدرة المادية والسلطة الدنيوية ما يردعهم. ولهذا فقد ذاق رحمة الله عليه جميع أصناف العذاب الدنيوي، من الفقر والحاجة، والسجن والأسر وما فيهما من آلام فراق الأهل والأحبة، والنفى والإقامة تحت حراسة الشرطة وعيون الحكام لكن ضعفه هذا ما لبث أن تحول إلى قوة لا تعبأ بمعاناة السجون وآلام الغربة وأحزان المنافي، فلا تزيده خطوب الدهر وآلامه إلا إقداما على الخير وقوة على الصلاح والإصلاح، فيجد اللذة في أحضان العذاب، فتسمو نفسه في مراتب الكمالات البشرية، فتتحول آلام جسده إلى لذات غامرة يسمو بها على النكبات والمحن. فكان كلما أحاطت به المحنة من كل جانب وأسرت جسده قوة الظالمين وأنـزلت عليه العذاب والآلام، وجد الأنس والسلوان، وذاق لذة تنسيه عذاب جسده. لنستمع إليه رحمة الله عليه في مقام المحنة والشدة يعاني آلام الوحدة وغصة الوحشة، وقد فارق كل صديق ونأى عن كل قريب:" بينما كنت وحيدا بلا معين في 'بارلا' تلك الناحية التابعة

لمحافظة "اسبارطة" أعاني الأسر المعذب المسمى بالنفى، ممنوعا من الاختلاط بالناس، بل حتى المراسلة مع أي كان، فوق ما كنت فيه من المرض والشيخوخة والغربة، فبينما كنت اضطرب من هذه الحالة وأقاسى الحزن المرير، إذا بنور مشع من الأسرار اللطيفة للقرآن الكريم ومن نكاته الدقيقة، يتفضل الحق سبحانه به على برحمته الكاملة الواسعة، فكنت أعمل جاهدا بذلك النور لتناسى ما أنا فيه من الحالة المؤلمة المحزنة حتى استطعت نسيان بلدتي وأحبتى وأقاربى"[1] وكان من آلامه في النفى بلوغه نبأ وفاة ابن أخيه وتلميذه عبد الرحمن، قال رحمه الله: "وبعد مضى حوالي شهرين وأنا أعيش في ذلك الأمل... إذا بى أفاجأ بنبأ وفاته، فيا أسفاه ويا حسرتاه، لقد هزني هذا الخبر هزا عنيفا... وأورثنى حزنا شديدا وألما عميقا... كنت أقول إن نصف دنياي الخاصة قد انهد بوفاة أمى، بيد أني رأيت أن النصف الآخر قد توفي أيضا بوفاة عبد الرحمن، فلم تبق لي إذن علاقة مع الدنيا... فضياع مثل هذا الضياع - باعتبار الإنسانية - لهو ضياع محرق مؤلم لأمثالي. ورغم أننى كنت أبذل الوسع لأتصبر وأتحمل ما كنت أعانيه من الآلام، إلا أنه كانت هناك عاصفة قوية جدا تعصف أحيانا بأقطار روحى، فلولا ذلك السلوان النابع من نور القرآن الكريم يفيض على أحيانا، لما كان لمثلى أن يتحمل أو يثبت".[2]

ولنستمع إليه أيضا يحكى آلام النفى في بارلا: " كنت أذهب وأسرح في وديان بارلا... حاملا تلك الهموم والآلام المحزنة، فكانت تمر من أمامى لوحات الحياة السعيدة ومناظرها اللطيفة التى كنت قد قضيتها مع طلابى... فكلما كانت تمر تلك اللوحات أمام خيالي، كانت تسلب من شدة مقاومتى وتفت في عضدي، فضلا عما أنا فيه من الشعور المرهف وسرعة التأثر النابعة من الشيخوخة والغربة. ولكن على

(١) اللمعات، ص ٣٧٣.
(٢) اللمعات، ص ٣٧٤.

حين غرة انكشف سر من أسرار الآية الكريمة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:٨٨) انكشف سر هذه الآية انكشافا بينا بحيث جعلني أردد مرتين: "يا باقي أنت الباقي يا باقي أنت الباقي"، وبه أخذت السلوان الحقيقي. أجل. رأيت نفسي بسر هذه الآية الكريمة، وعبر تلك الوديان الخالية، ومع تلك الحالة المؤلمة، رأيتها على رأس ثلاث جنائز كبرى...

الأولى: رأيت نفسي كشاهد قبر يضم خمسا وخمسين سعيدا ماتوا وفنوا في حياتي وضمن عمري الذي يناهز الخامسة والخمسين سنة.

الثانية: رأيت نفسي كالكائن الصغير جدا، بل كالنملة تدب على وجه هذا العصر الذي هو بمثابة قبر للجنازة العظمى لمن هو بنو جنسي ونوعي، والذين دفنوا في قبر الماضي منذ زمن آدم عليه السلام.

أما الثالثة: فقد تجسمت أمام خيالي بسر الآية الكريمة موت هذه الدنيا الضخمة مثلما يموت الإنسان، ومثلما تموت دنيا سيارة من على وجه الدنيا كل سنة، وهكذا فقد أغاثني المعنى الإشاري للآية الكريمة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة:١٢٩) وأمدني بنور لا يخبو فبدد ما كنت أعانيه من الحزن... واهبا لي التسري والتسلي الحقيقي. نعم لقد علمتني هذه الآية الكريمة أنه ما دام الله سبحانه وتعالى موجودا فهو الوكيل وهو البديل عن كل شيء، وما دام باقيا فهو كاف عبده، حيث إن تجليا من تجليات نوره العميم، يمنح تلك الجنائز الثلاث حياة معنوية -أيما حياة- بحيث تظهر أنها ليست جنائز، بل ممن انهوا مهامهم ووظائفهم على هذه الأرض فارتحلوا إلى عالم آخر"[1].

---

(١) اللمعات، ص ٣٧٦.

وإن هذه المواقف العظيمة وغيرها، لتدل على أن هذا الرجل كان له ميزان لا كغيره من موازين عامة الناس في عصره وزمانه، وأنه رحمة الله عليه قد وضع أمامه غاية كبرى وهدفا ساميا يهون دونهما كل متاع الدنيا الفانية.

فقد وقف نفسه وعمره على إبراز حقائق القرآن وإظهار نور الإيمان لينال بذلك رضوان الله تعالى والنعيم المقيم في الدار الآخرة.

ولكن ما حيلته لبلوغ غايته، وقد وقف دونه ركام من المعوقات وأوصدت في وجهه الأبواب ومنعت أمامه السبل والمسالك، واجتمعت قوى الشر على حربه، وسيطرت الغفلة على أهل الحق فلا تناصر بينهم ولا تعاون! وكيف يخلص إلى غايته وخصومه قد جمعوا العدد والعدة وأحكموا قبضتهم على البلاد والعباد، وجردوا حملاتهم لتزيين الباطل في النفوس، ونصبوا المحاكم والمشانق لمن خالف سبيلهم أو رام دعوة الناس إلى الخير وإصلاح البلاد وإرشاد العباد!

فإذا كان إنقاذ الإيمان غايته، وإظهار حقائق القرآن سبيله، فإن إذاية خصومه تناله لا محالة، فكيف تحتمل نفس إنسان ضعيف القوة إذاية خصوم كثيري العدد والعدة؟ ولما كان الأمر كذلك، فقد اختط رحمه الله لنفسه ولأصحابه ولكل من كان حاله مثل حاله، ممن يروم إنقاذ الإيمان ونشر الفضيلة، طريقا سالكا، جمع معالمه وأوضح مسالكه في رسائله وسار عليه طول حياته. فهو طريق سالك إلى مرضاة الله عز وجل، يعين صاحبه على احتمال خطوب الدهر والصبر على معاناة مسالك الحياة الوعرة، ويجد فيه العزاء والسلوان وهو يواجه المحن والمصائب الدنيوية، إنه طريق السلوك والسير نحو مراتب الكمالات الإنسانية، ولم يكن الشيخ بديع الزمان النورسي بدعا في هذا الطريق وإنما كان له فضل تجديده والتعبير الدقيق الواضح عن معالمه ومسالكه، وتقويمه وتصحيحه فلا يخرج عن قواعد الشريعة وأصول الملة. قال رحمه الله في التعبير عن هذا الطريق: "هناك

تحت عناوين "التصوف" و"الطريقة" و"الولاية" و"السير" و"السلوك"حقيقة روحانية نورانية مقدسة، طافحة باللذة والنشوة، أعلن عنها كثير من علماء أرباب الكشف والأذواق وتناولوها بالدرس والتمحيص والتعريف، فكتبوا آلاف المجلدات حولها فأخبروا الأمة وأخبرونا بها، جزاهم الله خيرا كثيرا. ونحن هنا سنبين بضع رشحات في ضوء ما تلجئنا إليه الأحوال الحاضرة، فهي بمثابة بضع قطرات من بحر تلك الحقيقة الزاخر".[1] فبين رحمه الله هنا أن طريقته في السلوك راعى فيها أحوال عصره وزمانه وأمانة إنقاذ الإيمان ونشر الفضيلة في الحياة الدنيا وبلوغ مرضاة الله عز وجل في الدار الآخرة. فالسلوك عنده ليس لاتقاء شر الناس واعتزال الحياة واتقاء فتنها، والترويح عن النفس من مفاسدها وشرورها، وإنما السلوك عنده له مقاصد عملية يبتغي منه حمل نفسه على السير في طريق التكليف داعيا إلى الخير من غير أن يصده عن ذلك مكايد الشيطان وأعوانه، ومن غير أن تنال من عزمه محن الدنيا وعذابها، حتى يدركه الموت وهو صابر محتسب مجاهد عامل في الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر والفساد. فطريقة السلوك غايتها التزام العمل بالشريعة والقيام بالتكاليف وأداء الوظائف والأعمال وعمارة الدنيا والدعوة إلى الإصلاح والخير، واكتساب القوة على مواجهة التحديات واقتحام حواجز الشر. وقد نص على الغاية العملية في الجملة لطريقة السلوك فقال رحمة الله عليه: "لا ينبغي أن تتحول الطريقة والحقيقة لدى الصوفيين من كونهما وسيلتين، فيصيران غايتين، لأنه بذلك تنحسر الأعمال الدنيوية الشرعية المحكمة وآداب السنة السنية العملية إلى الدرجة الثانية من اهتمام السالك وتصبح صورية وشكلية"[2] ولهذا نبه رحمه الله في أكثر من موضع من رسائله إلى أن

---

(١) المكتوبات ص ٥٧١

(٢) المكتوبات ص: ٥٨٤

طريقة السلوك يجب أن توافق قواعد الشريعة وأصولها الواضحة في الكتاب والسنة. يقول رحمه الله: "إن اتباع السنة النبوية المطهرة هو أجمل وألمع طريق موصلة إلى مرتبة الولاية من بين جميع الطرق، بل أقومها وأغناها، والاتباع يعنى تحري المسلم السنة السنية وتقليدها في جميع تصرفاته وأعماله... فضلا عن أن اتباع السنة وتحري شرع الله في شؤون المؤمن جميعها يجعله في صحوة دائمة، وتذكر للشرع مستمر، وتذكر الشرع هذا يؤدي إلى تذكر صاحب الشرع الذي يؤدي إلى تذكر الله سبحانه وتعالى، وذكر الله سبب لسكينة القلب واطمئنانه".[1]

لما عرض رحمة الله عليه لمذهب "وحدة الوجود" الذي يحتج له أصحابه بأن الموجود الحق هو "واجب الوجود" سبحانه وأن سائر الموجودات ظلال باهتة وأوهام زائفة لا تستحق صفة الوجود، عقب على ذلك بقوله: "أن هناك محاذير ومخاطر عدة لهذا المشرب (وحدة الوجود)، أولها وأهمها: أن أركان الإيمان ستة: فهناك، عدا ركن الإيمان بالله، أركان أخرى كالإيمان بالآخرة، فهذه الأركان تستدعى وجود الممكنات، أي أن هذه الأركان المحكمة لا يمكن أن تقوم على أساس خيالي"[2] وذكر رحمه الله وجوها كثيرة من الانحراف في طريقة السلوك، من ذلك مثلا قوله عن طائفة من السالكين: " فهم المنجذبون لنشوة الأذواق البراقة للطريقة والحقيقة، فلا يبالون بالحقائق الشرعية التى هى أرقى من مستوى مذاقهم، ويعتبرها أحدهم غير ذات مذاق لعجزه عن بلوغها، فيؤديها صورية شكلية، وهكذا يبلغ به الأمر تدريجيا إلى أن يظن أن الشريعة مجرد قشر ظاهري، وإن ما وجده من الحقيقة هو الأساس والغاية والقصد، فيقول: حسبى ما وجدته، فيقوم بأفعال مخالفة لما يأمر به الشرع."[3] فطريقة السلوك التي تحمل السالك

(١) المكتوبات ص: ٥٨١
(٢) المكتوبات ص: ٥٧٩
(٣) المكتوبات ص: ٥٨٦

على ترك العمل واعتزال حياة التكليف ليست طريقة، فالتربية السلوكية وسيلة إلى غاية، وطريق إلى هدف ومقصد. فهذا أساس التربية السلوكية عند بديع الزمان النورسي ومنطلقها على جهة العموم والإجمال. وأما على جهة التفصيل فإن التربية السلوكية لها مقصد أصلي عام، وتفرعت عنه مقاصد جزئية تبعية.

١ ـ المقصد الأصلي للتربية السلوكية :

إن المقصد الأسمى والهدف الأعلى لطريق السلوك هو الحصول على نعيم الآخرة الذي يتوقف على بلوغ مرضاة الله عز وجل. وفي سعي السالك لبلوغ هذا المقصد تحصل له مقاصد أخرى عن طريق التبعية واللزوم.

فبلوغ مرضاة الله عز وجل يحصل منها محبة الله تعالى وهي قمة اللذات ورأسها. ومحبة الله تعالى يحصل منها الرقي المعنوي والسمو في درجات الإيمان والعلو في مراتب اليقين، والرقي في درجات الإيمان يحصل به الأنس المعنوي في الحياة الدنيا، والأنس المعنوي في الدنيا يحصل منه لذة الحياة الدنيا. وكل مقصد من هذه المقاصد التبعية تلازمه فوائد أخرى عظيمة ومقاصد جليلة، تجتمع كلها في مصلحة الدارين.

ونقف من هذه المقاصد التبعية على أصولها الجامعة:

٢ ـ المقاصد التبعية للتربية السلوكية :

١ – محبة الله عز وجل وما يلازمها من لذة الحياة الدنيا:

لقد كان للشيخ بديع الزمان النورسي في هذه المسألة نظر دقيق عميق، سار فيه على خلاف المألوف المشهور عند أهل السلوك. فإذا كان الأصل المقرر عندهم أن محبة الدنيا وطلب اللذة من نعيمها مناف للسلوك، فإن بديع الزمان النورسي

قد خالف ذلك، وذهب إلى أن محبة الدنيا وطلب لذاتها يلازم محبة الله عز وجل وأن محبة الدنيا طريق من طرق السلوك إلى الله تعالى وكسب نعيم الآخرة بعد نعيم الدنيا. لكن هذه المحبة التى يتوجه بها السالك إلى الدنيا ولذاتها، محبة خاصة وعلى وجه خاص. فهذه المحبة أساسها وسببها اجتماع الذكر والتفكر، أي ذكر الله تعالى والتفكر في آلائه ونعمه وخلقه، ولا يجوز أن ينفصل أحدهما عن الآخر، فمن اقتصر على الذكر دون التفكر لم تحصل له لذة الحياة ونعيم الدنيا، ومن اقتصر على التفكر دون الذكر أوشك أن يخرج إلى طرق الإلحاد والزندقة بالمرة. يقول رحمة الله عليه: "إن مفاتيح هذا السير والسلوك القلبى ووسائل التحرك الروحاني إن هى إلا " الذكر" و"التفكر" فمحاسن الذكر وفضائل التفكر لا تحصى... إن أي إنسان كان لا بد أن يبحث عن سلوان... يخفف عنه ثقل هذه الحياة، وحيث إن ما يهيئه المجتمع الحضاري من الوسائل المسلية والأنس بالآخرين قد تمنح واحدا أو اثنين من عشرة من الناس أنسا مؤقتا، بل ذا غفلة وذهول، والثمانين بالمائة من الناس إما أنهم يحيون منفردين... أو ساقتهم هموم العيش إلى أماكن نائية موحشة أو ابتلوا بالمصائب... فالسلوان الكامل لأمثال هؤلاء، والأنس الخالص لهم ليس إلا في تشغيل القلب بوسائل الذكر والتفكر... في الأصقاع النائية وبين شعاب الجبال وعبر مهاوي الوديان يتوجه إلى قلبه مرددا "الله الله" مستأنسا بهذا الذكر ومتفكرا فيما حوله من الأشياء التى يتوجس منها خيفة وتوحى إليه بالوحشة، فإذا بالذكر يضفى عليها الأنس والمودة، وإذا بالذكر يقول: إن لخالقى الذي أذكره عبادا لا حد لهم منتشرين في جميع الأرجاء... إذن فأنا لست وحيدا، فلا داعى للاستيحاش ولا معنى له، وبذلك يذوق معنى الأنس في هذه الحياة الإيمانية، ويلمس سعادة الحياة فيزداد شكره لربه".[1] فالغاية التي

---

(١) المكتوبات ص: ٥٧٢٥٧٣

ينتهى إليها السالك والمقصد الذي يحصله هو لذة الدنيا والاستمتاع بنعمها وخيراتها وتذوق محاسنها وجمالها مع الشكر عليها، ومن لوازمه محبة المنعم الجواد مع ما يصاحبها من لذة عظيمة.

وسمى بديع الزمان النورسى مسلك الذكر ومسلك التفكر "السير الأنفسى" و"السير الأفاقى" قال رحمه الله: "فالسير الأنفسى يبدأ من النفس، ويصرف صاحب هذا السير نظره عن الخارج ويحدق في القلب مخترقا أنانيته، ثم ينفذ منها ويفتح في القلب ومن القلب سبيلا إلى الحقيقة. ومن هنا ينفذ إلى الآفاق الكونية... أما النهج الثاني (وهو ما سماه السير الآفاقى) فيبدأ من الآفاق، ويشاهد صاحب هذا النهج تجليات أسماء الله الحسنى، وصفاته الجليلة في مظاهر تلك الدائرة الآفاقية الكونية الواسعة... فيصل إلى مقصوده ومنتهى أمله"[1]. ومن أصول هذه المسألة في السنة النبوية ما ورد مبثوثا في كثير من الأحاديث النبوية من الوصايا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ومنه لأمته، منها تسع وصايا جامعة عظيمة وهى: "خشية الله في السر والعلن، والعدل في الغضب والرضا، والشكر في الفقر والغنى، وأن أعطى من حرمنى، وأعفو عمن ظلمنى، وأصل من قطعنى، وأن يكون صمتى فكرا، ونطقى ذكرا، ونظري عبرة" وفي هذا يقول أيضا: "إن السالك المنشغل بمراقبة قلبه، يفتح بهذا التفكر آفاقا واسعة أمام نظره وقلبه، فيشاهد ويراقب بفؤاده ولطائفه كافة الكائنات بكل عظمتها، ابتداء من الذرات إلى السيارات، ويرى بكل وجد في تلك العوالم تجليات أسماء الله تعالى وصفاته الجليلة بألف تجل وتجل، وبهذا يرى ويحس بعلم اليقين وعين اليقين بل بحق اليقين أنه في مسجد لا منتهى له، يدخله ما لا تستوعبه الأرقام من الجماعات، الذاكرين خالقهم بكل خشوع وشوق وود ونشوة، ويرددون بصوت

(١) المكتوبات ص: ٥٧٥

واحد تتخلله الألحان العذبة والأنغام المنسجمة والإيحاءات المتناسقة بشتى اللغات معا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر"[1].

ومن وجوه مقصد محبة الله وحصول لذة الحياة الدنيا وزينتها، أن العادات اليومية التى ترتبط بحاجات النفس وشهوات الجسد لا تضيع من السالك وإنما يلازمها لما يجد فيها من لذة زائدة على لذتها الأصلية، لأن الذكر مع التفكر يزيدها بهاء وجمالا ويلبسها صفة العبادة والقربة، فتجتمع لذة الدنيا بلذة العبادة، يقول رحمه الله وهو يذكر فوائد الطريقة والتربية السلوكية: "جعل الإنسان عاداته اليومية بحكم العبادات، وأعماله الدنيوية بمثابة أعمال أخروية، والإحسان في استغلال رأسمال عمره من الحياة بدقائقها، وجعلها بذورا تتفتح على زهرات الحياة الأخروية وسنابلها. وذلك بدوام الذكر القلبى والتأمل العقلى، مع الحضور القلبى الدائم والاطمئنان، ودوام شحذ الإرادة والنية الصافية..."[2] وفي هذا المعنى ورد في الحديث (وفِي بضْع أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِى أَحَدُنَا أَهْلَهُ فَيَكُونُ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ ؟ قَالَ: أَرَأَيْتَ إنْ وَضَعَهَا فِى الْحَرَام أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إذَا وَضَعَهَا فِى الْحَلالِ كَانَ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ) (صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) قال النووي: "وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو أعفاف نفسه أو إعفاف الزوجة، ومنعهما جميعا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهم به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة"[3] ولا شك أن معرفة الله تعالى ومعرفة إنعامه وإفضاله يكون بتناول طيباته. فمن يأتي اللذة الحلال ويتناول

---

(١) سيرة ذاتية ص: ٣١٣٢

(٢) المكتوبات ٥٩٢

(٣) " شرح النووي على صحيح مسلم " ٧ ص ١٢٨ (ط ٢ . ١٤١٤ ه – ١٩٩٤ م . مؤسسة قرطبة)

الشهوة الطيبة بقصد معرفة نعمة الله عليه وشكره عليها، يكون تناوله عبادة وقربة، فيلتذ بالشهوة الحسية، وتغمره لذة روحية عظيمة ونشوة معنوية جميلة، باستحضار عناية الله به، ورعايته له بما يسوق له من الرزق.

ويزيد رحمة الله عليه هذا الأمر تفصيلا ليثبت أن التربية السلوكية من ثمراتها حصول نعيم الدنيا ولذة الحياة في أعلى مراتبها وأبهى صورها، وحصول لذة العبادة والطاعة لله عز وجل. يقول في هذا المعنى أيضا: "إن الحياة التى وهبها الله للإنسان هى رأسمال عظيم يستطيع أن يكسب به الحياة الأخروية الباقية. وهى كنـز عظيم يحوي أجهزة وكمالات خالدة، ومن هنا فالمحافظة على الحياة الدنيا ومحبتها من هذه الزاوية وتسخيرها في سبيل الله عز وجل يجعلها تعود إلى الله سبحانه. إذ أن محبتها والشغف بها على هذه الصورة ينقلب إلى محبة لوجه الله تعالى، إذ هى في هذه الحالة تكون مزرعة للآخرة ومرآة لأسماء الله الحسنى، ورسائل ربانية إلى الوجود ودار ضيافة مؤقتة. فاجعل حبك للدنيا وما فيها من مخلوقات بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى الإسمى، أي لمعنى ما فيها وليس لذاتها، ولا تقل لشىء "ما أجمل هذا" بل قل "ما أجمله خلقا"وإياك أن تترك ثغرة يدخل منها حب لغير الله في قلبك. وهكذا فإن جميع ما ذكرناه من أنواع المحبة إن وجهت الوجهة الصائبة على الصورة المذكورة آنفا... فإنها تورث لذة حقيقية بلا ألم، وتكون وصالا مشروعاً، وشكراً لله في اللذة نفسها وفكر في آلائه بالمحبة عينها"[1] ويقول أيضا: "اجعل عينيك للحياة في سبيل الله ولوجهه الكريم. فالتلذذ بالأطعمة الشهية وتذوق الفواكه الطيبة مع التذكر بأنها إحسان من الله سبحانه وإنعام من الرحمن الرحيم يعني المحبة لاسم الرحمن واسم المنعم من الأسماء

---

(١) الكلمات ص ٧٦٥ .

الحسنى... أما محبة الزوجة وهي رفيقة حياتك، فعليك بمحبتها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا الرحمة الإلهية... فمن هذه الزاوية تصبح هذه المحبة لله".[1]

فانظر كيف اجتمعت محبة متاع الدنيا بمحبة الله عز وجل، وكيف تجتمع للسالك لذة الدنيا الشهية بلذة محبة الله تعالى وطاعته ونيل رضوانه. وكلما زاد السالك في تناول لذات الدنيا زادت محبته لخالق الدنيا والمنعم بخيراتها. "وإذا تناول الإنسان نعمة لذيذة ثم أدى شكره عليها، فإن تلك النعمة تصبح -بواسطة ذلك الشكر- نورا وضّاءً له وتغدو ثمرة من ثمار الجنة الأخروية، وفضلا عما تمنحه من لذة، فإن التفكر في أنها أثر من آثار التفات رحمة الله الواسعة وتكرمة منه سبحانه وتعالى يمنح تلك النعمة لذة عظيمة دائمة وذوقا ساميا لا حد له... لكن إن لم يشكر المنعم عليه ربه على النعمة واستنكف عنها فإن تلك اللذة المؤقتة تترك بزوالها ألما وأسفا وتتحول هي نفسها إلى قاذورات. فالأرزاق الزائلة تثمر بالشكر لذائذ دائمة... أما النعم الخالية من الشكر فإنها تنقلب من صورتها السامية الجميلة الزاهية إلى صورة دنيئة قبيحة ذميمة، ذلك لأن الغافل يظن أن مآل الرزق بعد اقتطاف اللذة المؤقتة منه هو الفضلات".[2] وهذا وجه ولوع الشيخ بديع الزمان النورسي في رسائله وتأملاته بالطبيعة والكون، وما فيهما من أصناف الخلائق والنعم والخيرات، لأنه يجد فيه لذة التمتع بجمالها ولذة محبة خالقها وبارئها عز وجل. لقد تلذذ رحمة الله عليه بجمال المخلوقات كبيرها وصغيرها، من الأجرام والكواكب والسماوات، والنجوم والأرضين، إلى الثمار والخضر والذرات، وكل ما خلق الله عز وجل.

---

(١) الكلمات ص: ٢٢١٢٢٣

(٢) المكتوبات ص: ٤٧٢٤٧٣

ولنستمع إليه في بعض تأملاته في الكون من حوله لندرك معه لذة محبة الخلق الممتزجة بلذة حب الخالق عز وجل. يقول رحمه الله: " في إحدى الليالي كنت على ارتفاع عظيم في وكر منصوب على قمة شجرة القطران المرتفعة على قمة من قمم جبل "جام" نظرت من هناك إلى وجه السماء الأنيس الجميل بمصابيح النجوم، فرأيت أن في القسم الوارد في الآية الكريمة: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ (التكوير:١٥-١٦) نورا ساميا من أنوار الإعجاز، وشاهدت فيه سرا بليغا لامعا من أسرار البلاغة."[1]

ويقول: " لقد بقيت منذ شهرين أو ثلاثة وحيدا فريدا، وربما يأتينى ضيف في كل عشرين يوما أو ما يقرب من ذلك، فأظل وحيدا في سائر الأوقات، ففى هذه الجبال الموحية بالغربة، وعندما يرخى الليل سدوله، فلا صوت ولا صدى إلا حفيف الأشجار الحزين، رأيتنى، وقد غمرتنى خمسة ألوان من الغربة."[2]

ويقول: " كنت جالسا ذات يوم في الطابق العلوي من فندق شهر عقب إطلاق سراحنا من سجن "دنيزلي" أتأمل فيما حولي من أشجار الحور والصفصاف الكثيرة في الحدائق الغناء والبساتين الجميلة، رأيتها جذلى بحركاتها الراقصة الجذابة تتمايل بجذوعها وأغصانها وتهتز أوراقها بأدنى لمسة من نسيم فبدت أمامى بأبهى صورها وأحلاها وكأنها تسبح لله في حلقات ذكر وتهليل. مست هذه الحركات اللطيفة أوتار قلبى المحزون من فراق إخواني، وأنا مغموم لانفرادي وبقائى وحيدا، فخطر على البال فجأة موسما الخريف والشتاء وانتابتنى غفلة إذ ستتناثر الأوراق وسيذهب الرواء والجمال، وبدأت أتألم على تلك الصور الجميلة، وأتحسر على سائر الأحياء التي تتجلى فيها تلك النشوة الفائقة تألما

---

(١) انظر: " الكلمات " ص ٢٤٦ و" المكتوبات " ص ١٨ .

(٢) " المكتوبات " ص ٢٩

شديدا حتى اغرورقت عيناي واحتشدت على رأسى أحزان تدفقت من الزوال والفراق تملأ هذا الستار المزركش البهيج للكائنات"[1].

ويقول: " بينما كنت على قمة جبل "بارلا" أيام منفاي، أسرح النظر في أشجار الصنوبر والقطران التى تغطى الجهات، وأتأمل في هيبة أوضاعها وروعة أشكالها وصورها إذ هب نسيم رقيق حول ذلك الموضع المهيب الرائع إلى أوضاع تسبيحات وذكر جذابة، واهتزازات نشوة وتهليل، إذا بذلك المشهد البهيج السار يعتصر عبرا أمام النظر، وينفث الحكمة في السمع، وفجأة خطرت ببالي الفقرة الآتية بالكردية لأحمد الجزري ترجمتها:

"لقد أتى الجميع مسرعين من كل صوب لمشاهدة حسنك، إنهم بجمالك يتغنجون ويدللون، وتعبيرا عن معاني العبرة بكى قلبى على هذه الصورة يا رب إن كل حى يتطلع من كل مكان، فينظرون معا إلى حسنك، ويتأملونه في روائع الأرض التى هى معرض صنعك، فهم كالدعاة الأدلاء ينادون من كل مكان من الأرض ومن السماوات العلى إلى جمالك."[2]

ويقول في الكلمات: "كنت سارحا في رفقة غربتى أسرح مع الفكر، وأجول مع الخيال والتأمل فقادتنى قدماي إلى سفح رابية مزدانة بالخضرة فرنت إليّ على استحياء من وسط هذا البساط الأخضر زهرة صفراء ساطعة النضرة وألوت جيدها إليّ تناغينى بود ومحبة، فأثارت مشاعري وأشواقى إلى زهرات مثلها التقيتها في ربوع بلدتي "وان" وفي سائر المدن الأخرى التى كانت تحتضن غربتى مرة بعد أخرى فانهال هذا المعنى فجأة على قلبي."[3]

---

(١) " الكلمات " ص ٥٣٨٥٣٩

(٢) " اللمعات " ص ٢٤٢ .

(٣) الكلمات، ص ٨٢٢.

ويقول أيضا: "إن تجدد المصنوعات الجميلة، وتبدل المخلوقات اللطيفة ضمن الغروب والشروق، وباختلاف الليل والنهار، وبتحول الشتاء والصيف، وتبدل العصور والدهور، كما أنها تدل على وجود ذي جمال سرمدي رفيع الدرجات دائم التجلي، وعلى بقائه سبحانه ووحدته، فإن موت تلك المصنوعات وزوالها بأسبابها الظاهرة يبين تفاهة تلك الأسباب وعجزها وكونها ستارا وحجابا ليس إلا، فيثبت لنا هذا الوضع إثباتا قاطعا أن هذه الخلقة والصنعة وهذه النقوش والتجليات إنما هى مصنوعات ومخلوقات متجددة للخالق جل جلاله الذي جميع أسمائه حسنى مقدسة بل هى نقوشه المتحولة ومراياه المتحركة، وأختامه المتبدلة بحكمة."[1]

ويقول رحمه الله أيضا: " لو أن جيشا عظيما يضم تحت لوائه أربعمائة ألف نوع من الشعوب والأمم لكل نوع جنس طعامه المستقل عن الآخر، ونمط تدريباته وتعليماته يباين الآخر، ومدة عمله وفترة رخصته هى غير المدة للآخر... فقائد هذا الجيش الذي يزودهم وحده بالأرزاق المختلفة والأسلحة المتباينة والألبسة المتغايرة دون نسيانه أيا منها ولا التباس ولا حيرة لهو قائد ذو خوارق بلا ريب، فكما أن هذا المعسكر العجيب يرينا بداهة ذلك القائد الخارق، بل يحببه إلينا بكل تقدير وإعجاب كذلك معسكر الأرض، ففى كل ربيع يجند مجددا جيشا سبحانيا عظيما مكونا من أربعمائة ألف نوع من شعوب النباتات وأمم الحيوانات ويمنح لكل نوع ألبسته وأرزاقه وأسلحته ورخصه الخاصة به من لدن قائد عظيم واحد جل وعلا بلا نسيان ولا اختلاط ولا تحير، وفي منتهى الكمال وغاية الانتظام."[2]

---

(١) الكلمات، ص ٣٤٢.

(٢) الكلمات، ص ١٧٦.

ويقول: "إن عقارب الساعة التى تعد الثواني والدقائق والساعات والأيام كل منها يناظر الآخر، ويأخذ منها حكم الآخر، كذلك في عالم الدنيا الذي هو ساعة إلهية كبرى، فإن دوران الليل والنهار الذي هو بحكم الثواني للساعة والسنوات التى تعد الدقائق، وطبقات عمر الإنسان التى تعد الساعات، وأدوار عمر العالم التى تعد الأيام كل منها يناظر الآخر ويماثله ويذكّر كل منها الآخر ويأخذ حكمه.

ووقت الفجر إلى طلوع الشمس يشبه ويذكر ببداية الربيع وأوله، وبأوان سقوط الإنسان في رحم الأم. وأما وقت الظهر فهو يشبه ويشير إلى منتصف الصيف وإلى عنفوان الشباب وإلى فترة خلق الإنسان في عمر الدنيا.

وأما وقت العصر فهو يشبه موسم الخريف وزمن الشيخوخة.

وأما وقت المغرب فإنه يذكر بغروب أغلب المخلوقات وأفولها نهاية الخريف ويذكر أيضا بوفاة الإنسان.

وأما وقت العشاء فيذكر بغشيان عالم الظلام وستره آثار عالم النهار بكفنه الأسود.

وأما وقت الليل فإنه يذكر بالشتاء وبالقبر وبعالم البرزخ فضلا على أنه يذكر روح الإنسان بمدى حاجتها إلى رحمة الرحمان.

وأما التهجد في الليل فإنه يذكر بضرورة ضياء ليل القبر، وظلمات عالم البرزخ وينبه ويذكر بنعم غير متناهية للمنعم الحقيقى عبر هذه الانقلابات، ويعلن عن مدى أهلية المنعم الحقيقى للحمد والثناء.

وأما الصباح الثاني فإنه يذكر بصباح الحشر، نعم كما أن مجيء الصباح بعد هذا الليل ومجيء الربيع لهذا الشتاء معقول وضروري وحتمى، فإن مدى صباح الحشر وربيع البرزخ هو بنفس القطعية والثبوت."[1]

---

(١) " الكلمات " ص ٣٩٤٢.

ويقول في الكلمات: " لقد أحصيت ذات يوم عناقيد ساق نحيفة لعنب متسلق بغلظ إصبعين، تلك العناقيد التى هى معجزات الرحيم ذي الجمال، في بستان كرمه، فكانت مائة وخمسين عنقودا، وأحصيت حبات عنقود واحد منها فكانت مائة وعشرين فتأملت وقلت: لو كانت الساق الهزيلة خزانة ماء معسل وكانت تعطى باستمرار لما كانت تكفى أمام لفح الحرارة ما ترضعه لمئات الحبات المملوءة من شراب سكر الرحمة، والحال أنها قد لا تنال إلا رطوبة ضئيلة، فليزم أن يكون القائم بهذا العمل قادرا عن كل شيء فسبحان من تحير في صنعه العقول."[1]

فهذه كلها شواهد وأدلة من كلام النورسى ومن سلوكه اليومى العملى، على أن من المقاصد المرجوة من التربية السلوكية أن يذوق السالك لذة الحياة الدنيا وزينتها، وفي ذلك يشعر بالقرب من الله عز وجل وطاعته وعبادته فيزيده ذلك لذة إلى لذة.

ومعنى هذا أن التربية السلوكية عند هذا الرجل لا تنفصل عن الحياة الدنيا. ويتفرع عن هذا مقصد آخر هو مقصد عمارة الدنيا.

٢ – مقصد عمارة الدنيا ومواجهة التحديات:

إن التربية السلوكية عند بديع الزمان النورسى ليس من مقاصدها العزلة عن الناس بحجة أصل اتقاء الفتن والبعد عن مواطن التهم. وإنما القصد من السلوك عمارة الدنيا والسعى في وجوه الخير وسبل الرشاد. يقول رحمة الله عليه: "لا ينبغى أن تتحول الطريقة والحقيقة لدى الصوفيين من كونهما وسيلتين فيصيران غايتين، لأنه بذلك تنحسر الأعمال الدنيوية الشرعية المحكمة وآداب السنة السنية العملية إلى الدرجة الثانية من اهتمام السالك وتصبح صورية وشكلية."[2]

---

(١) " الكلمات " ص ٣٣٧

(٢) " المكتوبات " ص ٥٤٨

وواضح جدا من كلامه هذا أن طريقة السلوك إنما هى وسيلة إلى غاية، هى العمل في الحياة وعمارة الدنيا. فالتربية السلوكية هى التى تحمل المرء على الجد في العمل والاجتهاد في نشر الفضيلة والعناية بشؤون مجتمعه وأحوال أمته.

وهذا على خلاف المقرر عند عامة الصوفية من الانصراف عن أحوال الدنيا وهموم الناس. وقد روي أن رجلا من المحدثين سأل رجلا من الصوفية لماذا لم تشتهر تراجم الصوفية وأخبارهم كما اشتهرت أخبار المحدثين وتراجمهم، فأجابه بقوله:

وزاهد قد بات من ليلاه في شغل   ولم يزعج بشكواه إنسان

ومعنى هذا أن المتصوف الزاهد الذي يحمل نفسه على العزلة والفراغ من مشاغل الحياة وهموم الدنيا، لا يعرفه أحد لأنه لا يخالط الناس ولا يهتم بقضايا المجتمع وأحوال الناس في معايشهم وهمومهم.

وبالنسبة للأستاذ بديع الزمان النورسى فإن طريقته وسلوكه لا تستجيز له الغفلة عن الأحوال العامة لمجتمعه وهموم الناس في عصره. ومن ينظر في أخبار حياته يجده وقف عمره كله وجهده لخدمة هموم مجتمعه وعمارة البلاد وإرشاد العباد. ولما كان أمر ضمور الإيمان وظهور الإلحاد والشر معضلة عصره وزمانه وأصل المشكلات، فقد جعل حياته كلها وصرف جهده كله لإنقاذ الإيمان، فسعى في الأرض طول عمره عاملا مجتهدا محتملا المحن والشدائد. يقول:"إن هذه الدنيا دار حكمة وعلم، وليست دار جزاء وثواب. ولذا فلا تطلب فيها اللذائذ والأذواق ولا تقصد فيها الكرامات، وإنما ينبغى فيها الالتزام بالشريعة لأن الحقيقة والطريقة وسيلتان لخدمة الشريعة "فلا بد من ضبط أمور الحياة بقواعدها وسننها وقوانينها. وقد عرف عن بديع الزمان النورسى كراهية التعلق بالكرامات والخوارق، حتى إنه ذكر مرة لأصحابه أنه كان مرة مهموما مشغولا

لأن شخصا أساء إليه وظلمه، فخشى رحمه الله إن نـزلت مصيبة بهذا الرجل أو حل به بلاء -كما يحل بسائر البشر- أن ينسب ذلك إليه على انه من كراماته، ولهذا كان يدعو الله عز وجل ألا يصاب ذلك الرجل وقد أساء إليه وظلمه، بشر وأذى.

ومعنى ذلك أن المطلوب عمارة الأرض والسعى فيها بالتزام سنن الكون والحياة كما خلقها الله عز وجل. وإن عمارة الدنيا والسعى في خير البلاد والعباد يحتاج إلى علو همة ورباطة جأش وقوة شخصية وصبر وتحمل. ولهذا فإن من المقاصد المرجوة أيضا من التربية السلوكية حصول الأنس المعنوي والرقى في درجات الإيمان والعلو في مراتب اليقين.

٣- مقصد الأنس والرقى المعنوي والسمو الروحى:

يقول رحمه الله وهو يبين فوائد السلوك وغاية التربية السلوكية:" التخلص من وحشة الانفراد والوحدة في السير والسلوك، والشعور بالأنس المعنوي في الحياة الدنيا والبرزخ... فتندفع الأوهام والشبه عن النفس"[١] فمن فوائد السلوك أن يرتقى السالك درجات الإيمان ويعلو في مراتب اليقين. وتحت هذا الأصل أدخل الشيخ بديع الزمان النورسى معراج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "فمعراج الرسول هو سيره وسلوكه، وهو عنوان ولايته، إذ كما يعرج الأولياء إلى درجة حق اليقين من درجات الإيمان رقيا معنويا بالسير والسلوك الروحاني بدءا من أربعين يوما إلى أربعين سنة، كذلك الرسول وهو سلطان جميع الأولياء وسيدهم عرج بجسمه وحواسه ولطائفه جميعا لا بقلبه وروحه وحدهما... حتى بلغ أعلى المراتب وأسماها.. ورقي إلى العرش بسلم المعراج وشاهد ببصره بعين

---

(١) " المكتوبات " ص ٥٩١

اليقين– في مقام قاب قوسين أو أدنى– أعظم حقائق الإيمان، وهو الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، ودخل الجنة وشاهد السعادة الأبدية، وفتح باب الجادة الكبرى وتركه مفتوحا ليمضى جميع أولياء أمته بالسير والسلوك الروحاني، أي بسير روحاني وقلبى في ظل ذلك المعراج كل حسب درجته."[1]

ومعنى هذا أن المعراج النبوي هو التشخيص العملى لطريق السلوك والسير نحو منازل القرب. فالنبى قد ارتقى في المعراج إلى أعلى مقام لن يبلغه أحد بعده، لأن سلوكه وسيره سلوك مادي ومعنوي وحصل له الارتقاء المعنوي والمادي، ولهذا فهو سيد الأولياء وإمام المتقين وقدوة العارفين والسالكين. والاقتداء به في السلوك يقتصر على السلوك المعنوي الذي يحصل به الارتقاء المعنوي لعله يقترب من مقام رسول الله، أما بلوغه فإنه متعذر لأن الله تعالى خصه بالسلوك المادي والمعنوي، وأما غيره فليس له إلا السلوك المعنوي. فالرقى المعنوي سلوان للنفس وقوة لها فيرتفع السالك إلى المقام الإيماني الذي يكسبه لذة وقوة على احتمال المحن الدنيوية فيهون كل عذاب الدنيا أمامه فيتحقق فيه المثل القائل:" من عرف ما قصد هان عليه ما وجد". وهذا المقام هو مرتبة الكمال البشري المرجوة من السلوك. يقول رحمه الله عن هذه الفائدة: "العمل للوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل، وذلك بالتوجه القلبى إلى الله طوال سيره وسلوكه، وأثناء معاناته الروحية التى تسمو بحياته المعنوية، أي الوصول إلى مرتبة المؤمن الحق والمسلم الصادق، أي نيل حقيقة الإيمان والإسلام لا صورتيهما، ثم إن يكون الإنسان عبداً خالصاً لرب العالمين، وموضع خطابه الجليل، وممثلاً عن الكائنات من جهة، ووليّاً لله وخليلاً له، حتى كأنه مرآة لتجلياته سبحانه، وفي احسن تقويم حقاً فيقيم الحجة على أفضلية بني آدم على الملائكة.

(١) " المكتوبات " ص ٣٩٥٣٩٦

وهكذا يطير بجناحى الإيمان والعمل بالشريعة إلى المقامات العليا والتطلع من هذه الدنيا إلى السعادة الأبدية بل الدخول فيها".[1]

٤– مقصد اتقاء أمراض القلوب ونوازع النفس:

لقد كانت للشيخ بديع الزمان النورسى وقفات عميقة مطولة مع النفس الإنسانية وصفاتها وخصائصها وما أودع الله عز وجل فيها. وكانت له وقفات خاصة مع أمراض القلوب وأدوائها. وخلاصة ذلك أن النفس بحكم ما أودع فيها من الشهوات تميل إلى الشر واللهو والعبث كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاس حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ (آل عمران:١٤) وقد فصل بديع الزمان النورسى هذه المسألة في مناسبات كثيرة من رسائله، وخاصة في كلامه على أصل التعاون بين أهل الحق والإيمان، فذكر أن من أسباب العداوة بين المسلمين، الغفلة عن حقيقة النفس وصفاتها وعدم تعهدها بالتهذيب والرعاية والتزكية والصيانة. فقد يغتر العالم بعلمه وصاحب الحق بكونه على حق، فيزين له أنه قد استغنى عن التربية والسلوك وتهذيب النفس وتزكيتها، فيفتح الباب لغرائز النفس وطبائعها لتعمل عملها، وهى مفضية لا محالة إلى الشر، من العداوة والحسد والغرور والأنانية. يقول:"وإذا كان ثمة غرور وأنانية في النفس يتوهم المرء نفسه محقا ومخالفيه على باطل، فيقع الاختلاف والمنافسة بدل الاتفاق والمحبة وعندها يفوته الإخلاص ويحبط عمله ويكون أثرا بعد عين."[2]

ولهذا فإن من مقاصد التربية السلوكية اتقاء هذه الأمراض التى تعرض للقلوب فتشوش على الإيمان والأعمال والتصرفات والمعاملات. فلما كانت النفس على هذه الصفة من الميل إلى الشر، فإن السلوك حاجة وضرورة. وأصل

---

(١) " المكتوبات " ص ٥٩٣

(٢) " اللمعات " ص ٢٢٧

هذه المسألة حديث: (وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً) الحديث. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦) ويترتب عن هذا المقصد مقصد آخر:

٥– مقصد سلامة العقل وصفاء العلم:

إن من النظرات الدقيقة عند بديع الزمان النورسى، أن طاقة العقل قد تتعطل وينحرف في عمله، بسبب أمراض القلوب وغلبة الهوى عليها. ولهذا كان من مسالكه في التربية والتعليم تآلف العقل والقلب، فكل منهما يحتاج إلى تزكية وتربية، فتنمية العقل تكون بالعلوم المختلفة، وتنمية القلب بالتربية السلوكية. وان من أسباب انحراف البشر مع وجود العلوم المادية والإنسانية عدم الجمع في التربية بين العقل والقلب. ذلك أن أمراض القلب قد تشوش على أعمال العقل فتغلبه فيكون المرء تابعا لنفسه وهواه مخالفا مقتضيات عقله، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ﴾ (القصص:٥٠) يقول رحمه الله: "إن الإيمان لا يحصل بالعلم وحده، لذا إن هناك لطائف كثيرة للإنسان لها حظها من الإيمان. فكما أن الأكل إذا ما دخل المعدة ينقسم ويتوزع إلى مختلف العروق حسب كل عضو من الأعضاء، كذلك المسائل الإيمانية الآتية عن طريق العلم، إذا ما دخلت معدة العقل والفهم، فإن كل لطيفة من لطائف الجسم كالروح والقلب والسر والنفس وأمثالها تأخذ منها وتمصها حسب درجاتها. فإن فقدت لطيفة من اللطائف غذاءها المناسب، فالمعرفة إذن ناقصة مبتورة، وتظل تلك اللطيفة محرومة منها."[1]

ويقول: "إن نور الفكر ظلام يفجر ظلاما ما لم يتوهج بضياء القلب ويمتزج به فكما إذا لم يمتزج نهار العين الأبيض غير المنور بليلها الأسود فلا تكون بصرا،

(١) "المكتوبات" ص ٤٢٦

كذلك لا بصيرة لفكرة بيضاء لا توجد فيها سويداء القلب إذا لم يكن في العلم إذعان القلب فهو جهل، لأن الالتزام شيء والاعتقاد شيء آخر."[1]

إن التربية السلوكية تعمل على تحريك قلب الإنسان الذي يعتبر مركزا لجسمه ولولبا لحركته وتوجيهه إلى الله فيندفع بهذا كثير من اللطائف الإنسانية إلى الحركة والظهور فتتحقق حقيقة الإنسان.[2]

* * *

(١) " المكتوبات " ص ٦٠٣

(٢) " المكتوبات " ص ٥٩١

٥

نحو نظرية إسلامية للجمال من خلال رسائل النور لبديع الزمان النورسي(*)

مسألة عظيمة القدر، جليلة الشأن، جميلة المعنى، بديعة المبنى، تستوقف كل من يطالع رسائل النور أو يتأمل في حياة مؤلفها بديع الزمان سعيد النورسى، هى أن حياة الإنسان على ظهر الأرض وكل أحواله فيها وجميع ما تقع عليه حواسه قد اكتسى حلل الجمال. فقد كان بديع الزمان النورسى لهجا بالجمال مولعا به، لا يرى إلا وجوهه ولا ينظر إلا إلى آثاره. فحيثما نظر حدثك عن الجمال، إن نظر في القرآن الكريم رأى الجمال وإن نظر في الكون لم يشاهد سوى الجمال. يحدثك عن الجمال حيثما كان، ويصف لك ما يجده من لذته في كل ما يعرض له من الأحوال التى تحف بالإنسان ولا يسلم منها كل حى على ظهر الأرض، حتى في حال البلاء وفي وسط المصيبة وفي خضم المحنة. وهذا ما أدخل الحيرة في قلوب خصومه وأعدائه، لأنهم أرادوا أن يذيقوه العذاب فلا يعرف معنى لما ظنوه جمالا، ولا يجد شيئا مما توهموه لذة. لكن الأمر قد اضطرب عليهم وهم يرون أنهم كلما ضيقوا على الرجل وأوقعوه في المحنة، لم يزده ذلك سوى قوة وجلدا، لأنه كان يجد اللذة في صميم العذاب ويرتشف الجمال من صلب المحنة. فمن ينظر بميزان الحقائق المادية يرى أن بديع الزمان النورسى ليس له قوة مادية، ولا مال له ولا إمارة ولا سلطان، وخصومه ملكوا كل ذلك ووضعوا أيديهم على خيرات الأرض والبلاد

(*) قدم هذا البحث في ندوة "الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر: بديع الزمان النورسي نموذجا " بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير بالمغرب بتعاون مع مركز استانبول للثقافة والعلوم بتاريخ ٣١/ ٠٣-٠١/ ٤/ ٢٠٠٥.

والعباد، فكيف يمكن لهذا الرجل أن يقاوم ذلك! إن مثل حال بديع الزمان النورسى – بميزان حقائق الشهوة الجسدية والنفسية والقوة المادية – يحمل على القلق والضجر، والتسليم والاستسلام لواقع الحال من غير مقاومة ولا مغالبة. فخصومه ما كانوا يجدون صعوبة في تعذيبه وإذايته، ولهذا ذاق رحمه الله كل أنواع العذاب الدنيوي من الفقر والحاجة، والسجن والأسر وما يلازمهما من آلام فراق الأهل والأحبة، والنفى والإقامة تحت المراقبة والحراسة الدائمة. لكنه لم يكن يعبأ بمعاناة السجون ووحشة المنافي وغربتها وأحزانها، بل كان يجد اللذة وهو في أحضان العذاب، فكان دائما يجدا جمالا ماثلا بين عينيه، وسلوانا حاضرا بين جنبيه، ولذة غامرة في قلبه، تحجب كل ما يحف به من آلام الجسد بسبب المرض أو الغربة والنفى وغيرها من أنواع العذاب، وتنسيه كل عذاب ينزل به. فلننظر إليه في موقف من مواقف الشدة والمحنة وقد حجب عن الناس، فنأى عن كل قريب وبعد عن كل مؤنس حبيب، مع أثقال الشيخوخة وآثار المرض، فيقول عن حاله: "بينما كنت وحيدا بلا معين في "بارلا" تلك الناحية التابعة لمحافظة "إسبارطة" أعاني الأسر المعذب المسمى بالنفى، ممنوعا من الاختلاط بالناس، بل حتى المراسلة مع أي كان، فوق ما كنت فيه من المرض والشيخوخة والغربة، فبينما كنت أضطرب من هذه الحالة وأقاسى الحزن المرير، إذا بنور مشع من الأسرار اللطيفة للقرآن الكريم ومن نكاته الدقيقة يتفضل الحق سبحانه به على برحمته الواسعة الكاملة، فكنت أعمل جاهدا بذلك النور لتناسى ما أنا فيه من الحالة المؤلمة المحزنة، حتى استطعت نسيان بلدتي وأحبتى وأقاربى."[١]

وتزيد محنته لما وصلته رسالة من أحد تلامذته الأوفياء وقد فارقه منذ سبع سنوات، ولا أحد منهما يعلم مكان الأخر، وقد أبكته هذه الرسالة كثيرا لما قرأ

(١) اللمعات ص ٣٧٣ .

فيها أن تلميذه مازال وفيا له، وأن غاية أمنيته أن يعلم مكان أستاذه ليصل إليه ليقوم برعايته وخدمته، لكن أيدي الظلم حالت بينهما. ثم تزيد محنته بعد شهرين لما بلغه نبأ وفاة تلميذه هذا، وعن هذا قال رحمه الله: "لقد هزني هذا الخبر هزا عنيفا... وأورثني حزنا شديدا وألما عميقا للفراق المؤلم، يفوق ما كنت أعانيه من ألم الأسر المعذب وألم الانفراد والغربة الموحشة، وألم الشيخوخة والمرض."[1]
ثم يسترسل في بيان حاله فيقول: "كنت أذهب وأسرح في وديان "بارلا" وأجول في جبالها وحيدا منفردا وأجلس في أماكن خالية منعزلة، حاملا تلك الهموم والآلام المحزنة... ولكن على حين غرة انكشف سر الآية الكريمة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٨٨) انكشافا بينا بحيث جعلني أردد: يا باقي أنت الباقي، يا باقي أنت الباقي... وبه أخذت السلوان الحقيقي. أجل لقد رأيت بسر هذه الآية الكريمة، وعبر تلك الوديان الخالية، ومع تلك الحالة المؤلمة، رأيتها على رأس ثلاث جنائز كبرى... الأولى: رأيت نفسي كشاهد قبر يضم خمسا وخمسين سعيدا ماتوا ودفنوا في حياتي وضمن عمري الذي يناهز الخامسة وخمسين سنة. الثانية: رأيت نفسي كالكائن الحي الصغير جدا – كالنملة – يدب على وجه هذا العصر الذي بمثابة شاهد قبر للجنازة العظمى لمن هم بنو جنسي ونوعي، والذين دفنوا في قبر الماضي منذ زمن آدم عليه السلام. وأما الثالثة: فقد تجسمت أمام خيالي- بسر هذه الآية الكريمة- موت هذه الدنيا الضخمة، مثلما تموت دنيا سيارة من على وجه الدنيا كل سنة كما يموت الإنسان. وهكذا فقد أغاثني المعنى الإشاري للآية الكريمة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٩) وأمدني بنور لا يخبو، فبدد كل ما كنت أعانيه من الحزن... لقد علمتني هذه الآية الكريمة أنه

(١) نفسه ص ٣٧٤ .

مادام الله سبحانه وتعالى موجودا فهو البديل عن كل شيء، وما دام باقيا فهو كاف عبده، حيث إن تجليا واحدا من تجليات عنايته سبحانه يعدل العالم كله، وإن تجليا من تجليات نوره العميم يمنح تلك الجنائز الثلاث حياة معنوية أيما حياة، بحيث تظهر أنها ليست جنائز، بل ممن أنهوا مهامهم ووظائفهم على هذه الأرض فارتحلوا إلى عالم آخر."[1] ثم يمضى محاولا الإفصاح عن هذا الجمال الذي وجده فيقول:" ليرحل من يرحل يا إلهى فأنت الباقى وأنت الكافي، وما دمت باقيا فلتجل من تجليات رحمتك كاف لكل شيء يزول، وما دمت موجودا فكل شيء إذا موجود لمن يدرك معنى انتسابه إليك بالإيمان بوجودك ويتحرك على وفق ذلك الانتساب بسر الإسلام، فليس الفناء والزوال ولا الموت والعدم إلا ستائر للتجديد، وإلا وسيلة للتجول في منازل مختلفة والسير فيها. فانقلبت بهذا التفكير تلك الحالة الروحية المحرقة الحزينة، وتلك الحالة المظلمة المرعبة إلى حالة مسرة بهيجة ولذيذة، وإلى حالة منورة محبوبة مؤنسة. فأصبح لساني وقلبى بكل ذرة من ذرات جسمى يردد بلسان الحال قائلا: الحمد لله."[2] فانظر كيف تحول قبح العذاب وظلام الغربة والوحشة إلى جمال الأنس المعنوي والسمو الروحى.

وإذا كان إدراك الجمال عند عامةالبشر هو التنعم بالمأكل والمشرب والمسكن والمركب والمنكح، والأنس بالأهل والأحبة، وسائر لذات الجسد وشهوات النفس، فإن بديع الزمان النورسى قد جرد من كل ذلك، فلم يتفنن في أكل الأطعمة اللذيذة المتنوعة، ولم يرتع في الملابس الفاخرة، ولا تنعم بما تحبه النفس البشرية من اللهو واللعب، بل جرد نفسه حتى من كثير من المباحات التى يحل من خلالها التمتع بزينة الحياة الدنيا ونعم الله فيها مثل نعمة الزواج. لكنه

---

(١) اللمعات ٣٧٥ – ٣٧٦ .

(٢) نفسه ص ٣٧٦ – ٣٧٧ .

على رغم تجرده من ذلك كان لهجا بالجمال، فكان كلما تكلم تحس من كلامه أنه وجد جمالا غامرا، فيحاول الإفصاح عنه بكل ما أوتي من قوة على التعبير الجميل، فكان يفصح عن الجمال بالجمال. ومعنى هذا أن الجمال عنده أعظم من شهوة مادية ولذة عابرة، لأنه يشعر بالجمال ويدرك اللذة في حال انقطاع الأسباب المادية عنه بل وهو في حال الشدة ووسط المصيبة بحسب الميزان المادي ووفق الشهوة الجسدية. وليس ذلك لأنه لا يتألم للمصائب ولا لأنه لا يعبأ بالمحن – فهو بشر كالبشر – وإنما لأن كل ذلك عنده يجد له وجها من الجمال، فهو ينظر من منظار خاص ويعرف الجمال على معنى خاص ليس هو الذي ينصرف إليه عامة البشر بالنظر الظاهر العابر الذي لا يروم سوى الاستجابة لطلب لذة جسدية أو شهوة نفسية.

إن هذا الرجل قد عثر على معين الجمال وعرف حقيقته وموطنه، ووضع يده على أصله وعرف مراتبه وآثاره. فالجمال عنده على شكل نظرية – بالتعبير العلمى المعاصر – ومعناه أن الجمالية بناء شامخ كامل، له قواعده وأركانه التى يقوم عليها، وله أصوله التى ينطلق منها، وله فروعه وآثاره المترتبة على ذلك، فهى حلقات يشد بعضها برقاب بعض.

الإنسان يطلب الجمال الخالد

وأول ما يحسن البدء به لبيان نظرية الجمال التي كان يصدر عنها بديع الزمان النورسي ويهتدي بها ويسير في ضوئها، بيان ما اهتدى إليه من خلال تأملاته في حياة الإنسان على ظهر الأرض وما فيه من خصائص، وما ركب فيه من غرائز وشهوات قوية. فمن الأمور التي استأثرت باهتمام النورسي وشغلت تفكيره ونظره، ما يجده الإنسان من القوى العنيفة التي تسوقه بالقوة نحو طلب اللذة

والاستجابة للشهوات المادية، وكلما اجتهد في طلبها أحس بالحاجة إلى المزيد، فهي لا تقف عند حد. فلماذا لا يحقق الإنسان الارتواء ولا يصل إلى حد الاكتفاء كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًامَلْئًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا، ولا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ.[1] وقوله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَمَلِ) [2] وهي إشارة عجيبة وتعبير جميل بليغ في بيان صيرورة الجسد إلى الهرم والضعف بسير الزمان وتقدم عمر الإنسان، لكن مع بقاء القوة والشباب في طلب اللذة والحرص على الجمال المادي. فالجسد يذهب في خط مستقيم نحو الموت والزوال، لكن النفس لا تفتر عن طلب الجمال المادي، فكيف يمكن للعجز أن يساير القوة ! فلا سبيل إذن على ظهر الأرض إلى كمال الجمال. فالجمال الذي يدركه الإنسان في الدنيا ليس عين الجمال، وإنما شيء من الجمال بمنـزلة قبس يسير وظل حقير لأنه لو كان عين الجمال لأحس الإنسان منه بالاكتفاء والشبع والاستغناء عن طلب المزيد. وإنما غاية ما يدركه من اللذة وأقصى ما يناله من الجمال لا يمكنه أبدا أن يدعي أنه قد بلغ منه تمام الغاية وحقق كمال اللذة، فهو بمنـزلة عطشان يشرب من ماء أجاج، كلما شرب أحس بمزيد من الظمأ، فكأن الإنسان يبحث عن كمال لا يجده أبدا حتى يوارى التراب. ثم إنه ما من نعيم في الدنيا إلا وهو مشوب بمشقة وكلفة، وما من لذة إلا تمتزج بألم ولابد إما مقترنا بها أو معقبا لها. ويكفي من ذلك الخوف على الانقضاء، لأن الخوف من زوال النعمة عذاب. يقول ابن الجوزي في هذا المعنى: "رأيت النفس تنظر إلى لذات أرباب الدنيا العاجلة وتنسى كيف حصلت

---

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال.

(٢) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذرالله إليه في العمر

وما يتضمنها من الآفات. وبيان هذا أنك إن رأيت صاحب إمارة وسلطنة فتأملت نعمته وجدتها مشوبة بظلم... ثم هو خائف منزعج في كل أموره، حذر من عدو أن يسمه، قلق ممن هو فوقه أن يعزله، ... وإن رأيت صاحب تجارة رأيته قد تقطع في البلاد فلم ينل ما نال إلا بعد علة السن وذهاب زمان اللذة... وهذه الحالة هي الغالبة فإن الإنسان لا يكاد يجتمع له كل ما يحبه إلا عند قرب رحيله، فإن بدر ما يحب في بداية شبابه فالصبوة مانعة من فهم التدابير أو حسن الالتذاذ، والإنسان في حالة الصبوة لا يدري أين هو إلا أن يبلغ، فإذا بلغ كانت همته في المنكوح كيفما اتفق، وإن تزوج جاء الأولاد فمنعوه اللذة وانكسر في نفسه وافتقر إلى الكسب عليهم، فبينما هو قد دعك في تلك المديدة القريبة من الثلاثين وخطه الشيب فانفرق من نفسه لعمله أن النساء ينفرقن منه... ثم إن صاحب المال خائف على ماله، محاسب لمعامليه، مذموم إن أسرف وإن قتر، ولده يرصد موته... وهو مشغول بحفظ حواشيه، فقد مضى زمانه في محن، واللذات فيها خلس معتادة لا لذة فيها"[1]

ومعنى هذا أن قمة اللذة وكمال الجمال لا وجود له على ظهر الأرض، وأن كمال الجمال ليس من صفات الحياة الدنيا، وإنما الجمال الموجود في الدنيا قبس يسير من الجمال الكامل، وليس من جمال كامل إلا جمال الخالق العظيم عز وجل. فكل نقص يدل على الكمال، ولما لم يجد الإنسان كمال الجمال في الحياة على ظهر الأرض، دل ذلك بداهة على أن كمال الجمال ليس من الدنيا، لأن الدنيا من الدنو وكمال الجمال لايناسبه الدنو، إنما كمال الجمال يناسب كمال الجلال. فالإنسان مرشح إلى كمال اللذة عند رؤية الله تبارك وتعالى – وهو الجليل الجميل بالكمال والتمام – في الآخرة وإن لذة الدنيا إنما للتذكير وفتح الشهية إلى

---

(١) صيد الخاطر ص ٣٧٠٣٧٢ .

هذا النظر. فالإنسان يذهب من الأرض ويفارق الحياة الدنيا وهو أشد ما يكون حريصا عليها، لأنه لا يمكن أن يحس بالاكتفاء من اللذة والشبع الكامل التام من متعة الحياة. وهذا دليل واضح وشاهد ناطق أن الإنسان مرشح لرؤية جمال غير الذي يراه في الدنيا، وأن جمال الدنيا ولذتها ليست مقصودة لذاتها لأنها ليست لذة بذاتها، إنما جمال الدنيا ولذتها طريق يسلكه الإنسان إلى جمال آخر. فجميع الناس كما قال النورسي:" يغادرون دور الضيافة (أي الحياة الدنيا) هذه بسرعة ويغيبون عنها بلا ارتواء من نور ذلك الجمال والكمال، بل قد لا يرون إلا ظلالا خافتة منه عبر لمحات سريعة. فالرحلة إذن منطلقة إلى مشهد دائم خالد"[1] ولأنه "نحن نشاهد رحلة كل شخص واختفاءه بسرعة في دار ضيافة الدنيا هذه، دون أن يستمتع بإحسان ذلك السخاء إلا نزرا يسيرا بما يفتح شهيته فقط، ودون أن يرى من نور ذلك الجمال والكمال إلا لمحة خاطفة. إذن الرحلة منطلقة نحو متنـزهات خالدة ومشاهد أبدية."[2] وعبر بديع الزمان النورسي عن هذه الحقيقة أيضا بقوله: "... استعداد الإنسان غير المتناهي وآماله ورغباته غير المحصورة وأفكاره وتصوراته غير المحدودة وقوته الشهوية والغضبية غير المحددة. فنرى الإنسان يتأسف ويتأفف ويقول: ليت كذا وكذا، حتى لو منح ملايين السنين من العمر وتمتع بلذائذ الدنيا وحكم حكما نافذا في كل شيء، وذلك بحكم اللاتناهية المغروزة في استعداده، فكأن عدم الرضا هذا يرمز ويشير إلى أن الإنسان مرشح للأبد، ومخلوق للسعادة الأبدية كي يتمكن من تحويل استعداده غير المحصور من طور القوة إلى طور الفعل في عالم غير متناه وغير محدود بحدوده وأوسع بكثير من عالمه هذا... إن هذه الدنيا... لا تسع كمالات الإنسانية، بل تحتاج تلك

---

(١) المكتوبات ص ٥١ .

(٢) الكلمات ص ٧٢ .

الكمالات إلى عالم أرحب..."[1] فالحياة الدنيا إذن ليست موضعا لكمال الجمال، وإن تشوف الإنسان إلى الجمال في الدنيا إنما هو استعداد وترقب، وإثارة وتشويق، وتنبيه وتذكير.

كمال الجمال يقتضي البقاء وليس الزوال

ثم إن الجمال والزوال – عند بديع الزمان النورسي– ضدان لا يجتمعان، لأن الزوال قبح وشناعة، ولهذا كان الزوال والفناء أعظم مانع للإنسان في الدنيا من إدراك عين الجمال والاكتفاء من اللذة والنعيم. فالزوال – بالمنظور المادي الظاهر– عدو يترصد الإنسان في كل حين ليختطف منه أحبته من الأشخاص والأعيان وسائر اللذات. وهذا المعنى هو الذي عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم لما وصف الموت بهادم اللذات في قوله صلى الله عليه وسلم: (أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادم اللَّذَّاتِ.)[2] فمادام الزوال موجودا في الحياة الدنيا فلا سبيل إلى إدراك كمال الجمال وتمام اللذة. فمن كان في النعمة واللذة فهو يعرف لا محالة أنها تفارقه وأنه لا محالة مفارقها، وإن الخوف من زوال النعمة عذاب. فيتلخص من هذا كله أن الجمال الذي يدرك في الدنيا إنما هو قبس يسير من جمال الله سبحانه وتعالى، فهو تعالى جميل جمالا كاملا، فأرسل في الكون جزء من ذلك الجمال وأعطى لخلقه ومخلوقاته قبسا منه. وما يجده الإنسان في الحياة الدنيا من حب الجمال والحرص على اللذة والرغبة في المتعة، إنما هو بحث عن كمال الجمال، فلما تعذر كمال الجمال في الدنيا– بسبب قيد الزمان والمكان– بقي صور من الجمال وظلال منه، تدل الإنسان على كمال الجمال وتذكره به. فمن ظن أنه يصل

---

(١) صيقل الإسلام ص: ١٣٦١٣٧.

(٢) الترمذي كتاب الزهد، باب ما ورد في ذكر الموت، وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

إلى كمال الجمال في الحياة الدنيا فقد أخطأ التصور وطلب الأمر في غير موضعه، لأنه ظن ظل الجمال جمالا، وحسب وجدان الجمال في الدنيا والحال أن الارتواء من الجمال لا يكون إلا بالنظر إلى الجليل الجميل سبحانه وتعالى في الجنة التى هى دار جامعة لمعاني الجمال مع انتفاء الفناء والزوال. فحب البقاء في الإنسان إنما هو في أصله حب متوجه نحو الجليل الجميل، لكن لما كانت الدنيا موطن اختبار وتكليف فقد أخطأ كثير من البشر فتوجهوا بهذه المحبة إلى بعض ظلال هذا الجمال.

فالله سبحانه وتعالى هو صاحب الجمال المطلق، وما في الكون من جمال فهو أصله ومنه، فبداهة العقل تقتضى التوجه بالمحبة إلى صاحب الجمال، لكن من البشر من أحب ما في العالم من صور الجمال وظلاله، ونسى خالق العالم الذي حسنه وألبسه حلل الجمال، فأحبوا الخلق وزينته، ونسوا الخالق وجماله، فيعجبون بالشمس مثلا ويفتتنون بجمالها، ويقولون ما أعظم الشمس وما أجملها، ونسوا أن يقولوا ما أعظم خلق الشمس وخالقها، وما أعظم جمال من جمل الشمس وحسنها. وقد عبر بديع الزمان النورسى عن هذا المعنى واهتدى إليه من خلال وقفة للتأمل في خواطر نفسه فقال رحمه الله: "حينما جردني أرباب الدنيا من كل شي، وقعت في خمسة ألوان من الغربة... فرأيت أنه يسيطر على عشق في منتهى القوة للبقاء، وتهيمن على محبة شديدة للوجود، ويتحكم في شوق عظيم للحياة، مع ما يكمن في من عجز لا حد له، وفقر لا نهاية له. غير أن فناء مهولا مدهشا يطفئ ذلك البقاء ويزيله، فقلت مثلما قال الشاعر المحترق الفؤاد:

حكمة الإله تقضى فناء الجسد   والقلب تواق إلى الأبـــد
لهف نفسى من بلاء وكمـــد   حار لقمان في إيجاد الضمد

فطأطأت رأسي يائسا.. وإذا بالآية الكريمة "حسبنا الله ونعم الوكيل" تغيثني

قائلة: إقرأني جيدا بتدبر وإمعان، فقرأتها بدوري خمسمائة مرة في كل يوم، فكلما كنت أتلوها كانت تكشف عن بعض من أنوارها وفيوضاتها، فرأيت منها بعين اليقين – وليس بعلم اليقين- ...أن ما في من عشق البقاء ليس متوجها إلى بقائى أنا، بل إلى وجود ذلك الكامل المطلق وإلى كماله وبقائه، وذلك لوجود ظل لتجل من تجليات اسم من أسماء الجليل والجميل المطلق ذي الكمال المطلق... إلا أن هذه المحبة الفطرية ضلت سبيلها وتاهت بسبب الغفلة، فتشبثت بالظل وعشقت بقاء المرآة"[1] إن الإنسان يطلب اللذة بكل قواه وينجذب نحو الجمال، ولكن هيهات هيهات أن يقف عند حد، فهو في بحث مستمر عن الجمال ولو أنه لن يدرك كماله ومنتهاه لأن في نفسه قوة جاذبة تدفعه دفعا للبحث عن الجمال، ومادام ما يحصله في الحياة الدنيا لا يشفى غليله ولا يحقق مراده، فمعناه أن هذا الجمال ليس ينال في الدنيا وإنما الغاية الممكنة المرجوة تذوق نماذج من الجمال ورؤية ظلال منه وليس عينه وحقيقته، لأن عين الجمال وكماله لا يناسب مقام الدنيا التى من صفتها الزوال والفناء، وإنما كمال الجمال يقتضى البقاء وإنما البقاء في الدار الآخرة حيث جماع الجمال في الجنة وكماله ومنتهاه في النظر إلى وجه الخالق العظيم الجليل الجميل.

إنما في الكون من جمال إنما يفصح عن جمال خالقه عز وجل ويعرف به ويدل عليه، فمن كان محبا للجمال حقا متعلقا به، فليصرف محبته إلى الجمال المطلق.

تشوف الإنسان في الحياة الدنيا إلى وطنه الأصلى حيث كمال الجمال

مما يدل أيضا على أن الحياة الدنيا بحث عن كمال الجمال وسعى إليه وتدرج نحوه وليس إدراكه حقيقة، أن الإنسان أول ما وجد – وهو في صلب أبيه آدم- في

---

(١) اللمعات ص ٣٨٧ – ٣٨٨ .

الجنة وفيها من الجمال ما لا يخطر على بال بنى آدم وهم على ظهر الأرض. وفي الجنة تلقى الإنسان أول اختبار في معيار الجمال وحقيقته، فكان الأولى به وهو في نعيم الجنة أن يتجه نحو السمو والعلو ليطلب لذة النظر إلى وجه الجليل الجميل، لكنه نسى بإغراء من عدو له عنيد، فاتجه نحو الأسفل استجابة لشهوة عابرة وابتغاء لذة زائلة، فاختار الهبوط على العلو فأهبط من الجنة إلى الأرض، أي من الأعلى إلى الأدنى. وخلد الذكر الحكيم هذا المشهد في قول الله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٣٨) وقوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (الأعراف:٣٤). فاستعمل لفظ "الهبوط" ليفيد البون الشاسع بين المقامين، وإن الحياة على ظهر الأرض منزلة أدنى بالنسبة إلى الحياة في الجنة، وأن الحياة الدنيا توظيف وتكليف، وسعى إلى الرقى إلى الوطن الأصلى حيث كمال الجمال وغاية السعادة. ولكى تنمو الاستعدادات البشرية للرقى في مدارج الكمال نحو عالم البقاء حيث كمال الجمال، خلق الله تعالى في البشر قوى شهوية ومعنوية وأودع فيه نفحات روحية عظيمة يرقى بها من دركات اللذة الدنيوية العابرة إلى درجات الكمال. فالشهوات والغرائز البشرية تثور في الإنسان وهو على ظهر الأرض ليشاهد قبسا يسيرا من الجمال، ويذوق جزءا حقيرا من اللذة تدله على غيرها، ثم تثور القوى المعنوية لتسوقه إلى الجمال السرمدي فتذكره بجمال الخالق المنعم وجلاله فيكتسب محبته ويلتزم طاعته ويتشوف إلى لقائه، فتكون بذلك شهوات النفس ولذات الحياة الدنيا طريقا إلى اللذات الغامرة والجمال السرمدي في دار البقاء. "إذ المشاهد المشتاق لجمال سرمدي والعاكس الذي يعكسه كالمرآة، لابد أن يظل باقيا ويمضى إلى الأبد"[1] إن الحياة على ظهر الأرض إنما هي بحث عن كمال الجمال وسعي إليه وعمل من أجله. وكل ما يجده

---

(١) الكلمات ص: ١٣٦.

الإنسان وهو على ظهر الأرض من غرائز وشهوات ومن حواس وقوى مادية ومعنوية، إنما خلقت فيه ليجد القدرة على التواصل مع الجمال المبثوث في الكون من حوله، فيشاهد ويلمس ويذوق من هذا الجمال الذي هو بمنزلة نماذج يسيرة منتقاة من كمال الجمال في عالم البقاء فأرسلت في الكون الذي هو معرض لقبس يسير من الجمال، حتى إذا عرف هذا الجمال تذكر كمال الجمال في عالم البقاء، فيبقى في تشوف وترقب دائم ليوم اللقاء العظيم الذي تحصل فيه السعادة الكاملة بالنظر إلى وجه الجليل الجميل، و(مَن أحبَّ لقاءَ اللهِ، أحبَّ اللهُ لقاءَهُ) (١). يقول ابن الجوزي: "كل شيء خلق الله تعالى في الدنيا فهو أنموذج في الآخرة، وكل شيء يجري فيها أنموذج ما يجري في الآخرة...وهذا لأن الله تعالى شوق بنعيم إلى نعيم، وخوف بعذاب من عذاب". (٢)

هكذا إذن تبدأ رحلة الإنسان في البحث عن كمال الجمال، فينطلق أولا بربط التواصل مع جمال الكون لأنه ليس بالإمكان في الدنيا أبدع من نظام الكون وجمال الخلق وحسن الصنعة، فهو واجد فيه ما يذكره بكمال الجمال ويفتح شهيته إليه، لأن ما في الكون من الجمال والحسن إنما بثه الخالق المدبر الجليل الجميل، فهو قبس من نوره، فمنه يستمد الكون جماله وتأخذ المخلوقات كلها زينتها وتكتسى حلل الحسن والبهاء. وكأني ببديع الزمان النورسى قد أحس بالحاجة إلى تقديم الدليل الشاهد على ما ذهب إليه من أن جمال الكون قبس يسير من جمال الله، فذهب يلتمس من الشواهد الدالة على ذلك ما لا يمكن حصره، فيبدأ من جمال الكون نفسه لأنه سهل التناول ميسور الإدراك عند جميع البشر مهما اختلفت عقولهم ومقامات علمهم. جمال الكون يدل على جلال الله تعالى ويذكر بكمال

---

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله
(٢) صيد الخاطر ص ١٠٣ ١٠٤ .

جماله. فأول ما يقرره بديع الزمان النورسى، ويحشد الأدلة الكثيرة عليه كأنه يريد قطع الشك بعد هذا في هذه الحقيقة، أن كل ما في الكون من أصغر الأجزاء إلى أكبرها، من الذرات إلى المجرات وما بين ذلك من العوالم المتنوعة، بمنزلة ألسنة ناطقة تلهج بذكر خالقها وتعرف بمبدعها وتفصح عن جماله وجلاله سبحانه وتعالى. ولهذا طاف النورسى بنظر المتأمل المتدبر في كل أجزاء الكون، ونثر ذلك في رسائله بما لا يمكن في هذا المقام الضيق أن يأتي عليه حصر، فكانت بذلك رسائل النور عبارة عن سياحة روحية عقلية تطوف بك في أجزاء الكون وتوقفك على صور الجمال المبثوثة فيه وتعرض الكون أمامك كأنه معرض عجيب على أحسن ترتيب وأجمل تنسيق." إن من ينظر نظرة واسعة فاحصة إلى الكون، يرى أنه بمثابة مملكة مهيبة جدا في غاية الفعالية والعظمة، وتظهر له كأنه مدينة عظيمة تتم إدارتها إدارة حكيمة، وذات سلطنة وحاكمية في منتهى القوة والهيبة. ويجد أن كل شيء وكل نوع منهمك ومسخر لوظيفة معينة. فالآية الكريمة ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض ﴾ (الفتح: ٧) تشعر بمعاني الجندية في الموجودات التى تتمثل ابتداء من جيوش الذرات وفرق النباتات وأفواج الحيوانات إلى جيوش النجوم. كل أولئك جنود ربانية مجندة لله... مما يدل دلالة عميقة بالبداهة على وجود الحاكمية الواحدة المطلقة والآمرية الواحدة الكلية."[1] "إننا نشاهد على سطح الأرض كافة أن هناك خلقا وتصرفا وفعالية تجري في سعة مطلقة، ومع السعة تنجز في سرعة مطلقة، ومع السرعة والسعة يشاهد سخاء مطلق في تكثير الأفراد، ومع السخاء والسعة والسرعة تتضح سهولة مطلقة في الأمر مع انتظام مطلق وإبداع في الصنعة وامتياز تام، رغم الاختلاط الشديد والامتزاج الكامل ... لقد أحصيت (يقول النورسي) ذات يوم عناقيد ساق نحيفة لعنب متسلق – بغلظ

---

(١) الشعاعات ص ١٩٥ .

إصبعين – تلك العناقيد التى هى معجزات الرحيم ذي الجمال في بستان كرمه. فكانت مائة وخمسة وخمسين عنقوداً. وأحصيتُ حبّات عنقود واحد منها فكانت مائة وعشرين حبة. فتأملت وقلت: لو كانت هذه الساق الهزيلة خزانة ماء معسّل، وكانت تعطى ماءً باستمرار، لما كانت تكفى أمام لفح الحرارة ما ترضعه لمئاتِ الحبات المملوءة من شراب سكر الرحمة. والحال أنها قد لا تنال إلاّ رطوبة ضئيلة جداً، فيلزم أن يكون القائم بهذا العمل قادراً على كل شيء. فسبحان من تَحيَّرُ في صنعه العقول".[1] فلا يظهر في الكون سوى مظاهر الحسن وعلامات الجمال والإتقان والنظام، فهو مملكة جميلة مزينة، تدبر بعناية بالغة ودقة متناهية.

ثم يرتقى بنا النورسى مقاما آخر خلاصته أن جمال الكون هذا يدل على جمال خالقه لأنه لا يؤخذ الجمال إلا من الجميل." فكتاب الكون الكبير هذا إذ تعلمنا آياته التكوينية الدالة على وجوده سبحانه وعلى وحدانيته، يشهد كذلك على جميع صفات الكمال والجمال والجلال للذات الجليلة. ويثبت أيضاً كمال ذاته الجليلة المبرأة من كل نقص، والمنـزّهة عن كل قصور. ذلك لأن ظهور الكمال في أثر ما، يدل على كمال الفعل الذي هو مصدره، كما هو بديهى، وكمال الفعل هذا يدلّ على كمال الاسم، وكمال الاسم يدل على كمال الصفات، وكمال الصفات يدل على كمال الشأن الذاتي، وكمال الشأن الذاتي يدل على كمال الذات– ذات الشؤون – حَدساً وضرورة وبداهة."[2] لأنه "محال أن يكون كتاب بلا كاتب، ولا سيما كتاب كهذا الذي تتضمن كل كلمة من كلماته كتاباً خُطّ بقلم دقيق، والذي تحت كل حرف من حروفه قصيدة دُبجت بقلم رفيع. وكذلك من أمحل المحال أن يكون هذا الكون من غير مبدع، حيث إن هذا الكون كتاب على

(١) الكلمات ص ٣٣٧ .

(٢) الكلمات ص ٣٤٢ .

نحو عظيم تتضمن كل صحيفة فيه كتباً كثيرة، لا بل كل كلمة منها كتاباً، وكل حرف منها قصيدةً.. فوجه الأرض صحيفة، وما أكثر ما فيها من كتب! والشجرة كلمة واحدة، وما أكثر ما فيها من صحائف! والثمرة حرف، والبذرة نقطة.. وفي هذه النقطة فهرس الشجرة الباسقة وخطة عملها. فكتاب كهذا ما يكون إلا من إبداع قلم صاحب قدرة متصف بالجمال والجلال والحكمة المطلقة. أي أن مجرد النظر إلى العالَم ومشاهدته يستلزم هذا الإيمان، إلاّ مَنْ أسكَرته الضلالة!."[1]

فهذا ما تفصح عنه جميع أجزاء الكون وجميع أنواع الموجودات وكافة أصناف المخلوقات، إنها ألسنة ناطقة بجمال خالقها وجلاله، فهو إذن كريم جميل: "يعرّف نفسه ويحبّبُها إليك بهذا الحشد من الألسنة التى لا تعد ولا تحصى، وإن أردت أن تصرف نفسك عن ذلك التعريف، فما عليك إلاّ أن تكمم جميع هذه الأفواه، وتسكت تلك الألسنة كافة وأنى لك هذا ... فما عليك إلا الإصغاء إليها."[2] فإن أنواع الجمال الزاهر وأشكال الحسن الباهر التى تتلألأ على وجوه الكائنات السريعة الأفول، ثم تتابع هذا الجمال وتجدده بتجدد هذه الكائنات، واستمراره باستمرار تعاقبها، إنما يظهر أنه ظل من ظلال تجليات جمال سرمدي لا يحول ولا يزول... ويدل على أن تلك الموجودات إنما تمثل إشارات وعلامات على ذلك الجمال... ثم إن قلم التجميل والتحسين الذي يبدع نقوشه في وجه الكائنات، يدل بوضوح على جمال أسماء مالك ذلك القلم المبدع. وهكذا فالجمال الذي يشع من وجه الكون... والروعة والإبداع في مجموع الكون كله،.. يفتح نافذة لطيفة جداً ونورانية ساطعة أمام العقول والقلوب اليقظة، يتجلى

---

(١) نفسه ص ٦٠ .

(٢) نفسه ص ٨٠٥ .

منها ذلك الجميل ذو الجلال، الذي له الأسماء الحسنى، وذلك المحبوب الباقى والمعبود الأزلي."[1] إن خالق هذه الموجودات متصف بجميع أوصاف الكمال"لأنه من المقرر: أن ما في المصنوع من فيض الكمال، مقتبس من ظل تجلى كمال صانعه.. فبالضرورة يوجد في الصانع جل جلاله من الجمال والكمال والحسن ما هو أعلى بدرجات غير متناهية حتماً من عموم ما في الكائنات من الحسن والكمال والجلال، إذ الإحسان فرع لثروة المحسن ودليل عليها... والتحسين (فرع) لحسن المحسن المناسب له".[2]

فالحسن والجمال المبثوث في الكون قبس من جمال الله سبحانه وتعالى، وجمال الله تعالى جمال يليق بجلاله وعظمته، فهو جمال مطلق، أما جمال الموجودات فهو قبس يسير منه، لأن صاحب الجمال المطلق هو الذي بثه في الكون وأرسل فيه جزء منه، فمن هذه الجزء تستمد الحسن والجمال جميع الموجودات التى تمر من الوجود على اختلاف أصنافها وتنوع عوالمها. يقول الحق تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاس وَاللهُ بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥).

أخرج ابن أبى حاتم في تفسيره عن ابن عباس أن قوله "مثل نوره" معناه: "مثل نور المؤمن كالمشكاة، وأن الله تعالى أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة" فأثبت لله تعالى النور. وأخرج أيضا عن السدي: "الله نور السماوات والأرض" قال: "فبنوره أضاءت السماوات والأرض". ونقل الطبري عن غير

(١) نفسه ٨١٧ – ٨١٨ .

(٢) صيقل الإسلام ص ١٣٣ – ١٣٤ .

واحد أنه عنى بذلك النور الضياء، وقالوا: "معنى ذلك: "ضياء السماوات والأرض"، وأخرج عن أبي بن كعب في قوله "الله نور السموات والأرض" قال: فبدأ بنور نفسه". وفي صحيح مسلم (عن أَبِى مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْس كَلِمَاتٍ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ (وَفِى رِوَايَةِ أَبِى بَكْرٍ النَّارُ) لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)[1] قال النووي: "...قال صاحب العين والهروي وجميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين: معنى سبحات وجهه: نوره وجلاله وبهاؤه"[2] وعند مسلم أيضا (عَنْ أَبِى ذَرٍّ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ قَالَ: نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ) ومن طرق آخر عنه(رأيت نورا).[3] وعند مسلم أيضا (عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ)[4] قال النووي: "اختلفوا في معناه فقيل إن معناه أن كل أمره سبحانه وتعالى حسن جميل وله الأسماء الحسنى وصفات الجمال والكمال، وقيل جميل بمعنى مجمل ككريم وسميع بمعنى مكرم ومسمع. وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله: معناه جليل. وحكى الإمام أبو سليمان الخطابى أنه بمعنى ذي النور والبهجة أي مالكهما. وقيل معناه جميل الأفعال بكم باللطف والنظر إليكم يكلفكم اليسير من العمل ويعين عليه ويثيب عليه الجزيل ويشكر عليه."[5] وجمال الله تعالى يشمل ذلك كله فإنه تعالى جميل في ذاته جميل في

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام...

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٣ ص ١٤ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان، باب قوله عليه السلام: نور أنى أراه...

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

(٥) شرح النووي على مسلم ٢ / ٩٠ .

أسمائه وصفاته جميل في أفعاله وتصرفاته، وكل ذلك يتجلى في الكون، ففيه الزينة الظاهرة وجمال الصورة، وفيه جمال المعاني وجمال الأفعال والتصرفات. فكل جمال مادي أو أثر نظام وإتقان في الكون من الله عز وجل ومن فعله وأمره، وكل ما يجري في الكون من تدبيره وتصرفه، وتصرف الجميل جميل وكل أمره جميل. وكما قال النورسي: "تعال تأمل في هذا الجمال الزاهى والحسن الباهر ضمن هذا الانتظام والنظافة والميزان، بحيث جعل هذا الكون العظيم على صورة مهرجان في منتهى الجمال والبهجة، وعلى صورة معرض بديع في منتهى الزينة والروعة، وعلى صورة ربيع زاه تفتحت أزاهيره توا... نعم إن كل نوع من أنواع الكائنات، بل حتى كل فرد من أفرادها قد نال حسب قابليته حظا من جمال الأسماء الإلهية الحسنى التى لا منتهى لجمالها.[1] وأيضا "فإن كل ما يشاهد على جميع المصنوعات من أنواع الكمال المتنوعة وأضراب الجمال المختلفة وألوان الحسن المتغايرة يدل دلالة في غاية القطعية ويشهد شهادة في منتهى الصراحة على كمالات لا حد لها ومحاسن لا نهاية لها في أفعال الصانع الجليل وفي أسمائه وفي صفاته وفي شؤونه وفي ذاته المقدسة، بما يلائم ويوافق قدسيته ووجوبه وتعاليه، ويدل كذلك على جمال متنوع عال سام هو أرفع من الكون طرا."[2] فالإتقان والنظام، والنظافة والحسن، والكرم والإنعام، والرفق والرحمة، والخير والبر وغير ذلك من وجوه الجمال المادي والمعنوي المبثوثة في الكون - كله — مستمد من جمال ذاته تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله. "فالحسن والجمال الظاهر في المخلوقات الجميلة في هذا العالم كله، والصنع البديع المشاهد في المصنوعات الجميلة كلها يشهد شهادة قاطعة على حسن أفعال الصانع الجليل وجمالها. وإن

---

(١) الشعاعات ص ٣٦ .

(٢) نفسه ص ٨٧

الحسن في أفعاله تعالى وجمالها يدل بلا ريب على حسن العناوين المشرفة على تلك الأفعال وجمالها، أي على حسن الأسماء وجمالها. وإن حسن الأسماء وجمالها يشهد شهادة قاطعة على حسن الصفات المقدسة وجمالها التى هى منشأ تلك الأسماء. وإن حسن الصفات وجمالها يشهد شهادة قاطعة على حسن الشؤون الذاتية وجمالها التى هى مبدأ تلك الصفات. وإن حسن الشؤون الذاتية وجمالها يدل بالبداهة ويشهد شهادة قاطعة على حسن الذات... بمعنى أن للصانع الجميل جمال وحسن لا حد له يليق بذاته المقدسة، بحيث إن ظلا من ظلاله قد جمل هذه الموجودات كلها. وأن له سبحانه جمالا منـزها مقدسا بحيث إن جلوة من جلواته قد أضفت الجمال على الكون كله، ونورت دائرة الممكنات كلها بلمعات حسن وجمال وزينتها بأبهى زينة".[1] فالجمال في أسماء الله وصفاته وأفعاله وذاته. فبسبب جمال ذاته احتجب عن الظهور بذاته عن المخلوقات في الدنيا، لأن الذوات المدركة في الدنيا يحكمها الزمان والمكان، فكانت رؤية جمال ذاته مؤجلة إلى دار البقاء، فكان حجابه النور فاحتجب من شدة الظهور عن أهل الدنيا الفانية، لكن جمال ذاته يدل عليه جمال أسمائه الحسنى وجمال أفعاله الظاهرة في الكون، فهو "الظاهر الباطن". فأفعاله تعالى وأسماؤه ظاهرة آثارها الجميلة في الكون ظهورا قاطعا لأنه "عندما ينظر إلى هذا الكون بنظر العبرة، يشعر الوجدان والقلب، بحدس صادق، أن الذي يجمّل هذه الكائنات ويزيّنها بأنواع المحاسن لا شك أن له جمالاً وكمالاً لا منتهى لهما، ولهذا يظهر الجمال والكمال في فعله"[2] وجميع وجوه الإحسان والكرم والإنعام، ومظاهر التجدد في الكون، من آثار أسماء الله الحسنى ومن تجلياتها الجميلة. فأسماء الله الحسنى تجمل الكون

(١) الشعاعات ص ٨٦ .
(٢) الكلمات ص ٧٤٢ .

بتجلياتها وآثارها. ومن تجليات جمال أسماء الله الحسنى في الكون ما يحصل من التبدل المستمر في العالم والتجدد في الموجودات من غير توقف، وتصريف الأحوال في كل آن وحين، لأن كل اسم من أسماء الله الحسنى يقتضى ظهورا. فاسم المحيى مثلا يقتضى ظهورا فيتجلى أثره في الكون في كل وقت وحين، فيظهر جماله من خلال ما يشاهد في الكون من تجدد عملية الإحياء للأرض في كل فصل، والإحياء للإنسان والحيوان، ففى كل لحظة حياة ترسل في الكون في عالم الإنسانوالحيوان والنبات وسائر المخلوقات، فذلك كله من تجلى جمال اسم "المحيى" الذي يظهر في الكون فيجمله. وكذلك اسم "المميت" فلا معنى للحياة لولا الموت ففى ظهور تجليات "المحيى" وتجليات"المميت" جمال للكون، لأن عملية الإحياء والإماتة في الكون لا تتوقف، ففى كل لحظة أحياء يولدون وأموات يزولون في عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد وسائر الموجودات مهما اختلفت خصائصها وطبيعة خلقتها، وفي كل لحظة من لحظات الحياة على ظهر الأرض زمن يموت ويزول وزمن يحيى ثم ما يلبث أن يزول. في كل حين تشهد الأرض موكب جنازة كبيرة لمن أنهوا مهامهم من المخلوقات والموجودات، و وفي الحين نفسه موسم كبير لمواليد جديدة تتسلم مهامها. فكل ذلك من تجلى اسمى "المحيى" و"المميت". "فإن للأسماء الحسنى تجليات متنوعة لا تحد، فتنوع المخلوقات ناشئ عن تنوع تلك التجليات... فإن تلك الأسماء المختلفة – لكونها دائمة وسرمدية – تقتضى ظهورا دائما سرمديا أي تقتضى رؤية نقوشها، أي تقتضى رؤية وإراءة جلوة جمالها وانعكاس كمالها في مرايا نقوشها. أي تقتضي تجديد كتاب الكون الكبير آنا فآنا."(١)

---

(١) المكتوبات ص ٣٧٣

وجمال هذا التجدد الناشئ عن تجليات الأسماء الحسنى هو الذي ارتشفه إبراهيم عليه السلام فعبر عنه بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين﴾ (الشعراء:٧٨-٨١). "وإن شئت أن تشاهد جلوة من أنواع حسن أسماء الجميل ذي الجلال المتجلية على مرايا الموجودات، فانظر بعين خيالية واسعة إلى سطح الأرض لتراه كحديقة صغيرة أمامك واعلم أن الرحمانية والرحيمية والحكيمية والعادلية وأمثالها من التعابير، إنما هي إشارات إلى أسماء الله تعالى وإلى أفعاله وإلى صفاته وإلى شؤونه الجليلة. فانظر إلى أرزاق الأحياء-وفي مقدمتها الإنسان- إنها ترسل بانتظام بديع من وراء ستار الغيب، فشاهد جمال الرحمانية الإلهية. (فهذا من تجلي جمال اسم الرحمان وظهوره)......"[1] "فإن لكل اسم من الأسماء الحسنى جمالا خاصا به، جمالا مقدسا منزها بحيث عن جلوة من جلواته تجمل عالما ضخما بكامله."[2] وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ما يدل على هذا المعنى ويشهد له لما بين صلى الله عليه وسلم أن ما في الكون من الرحمة جزء من مائة جزء من رحمة الله. (عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الأَرْض جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ)[3] فما يشاهد من آثار الرحمة والرفق والحدب الموجود في الأرض قبس من رحمة الله، "وإن رحمة جميع الوالدات وحنانهن ما هي إلاّ لمعةُ تجلٍ من تجليات الرحمة الإلهية الواسعة" [4].وما يجمل حياة الإنسان من

---

(١) الشعاعات ص ٨٩ – ٩٠ .

(٢) نفسه ص ٩١ .

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب ، باب جعل الله الرحمة مائة جزء.

(٤) الكلمات ص ٢٩ .

رحمة الوالدة ولدها ورفق الكبير بالصغير وما يجده الإنسان في صدره من الرقة للحنو على غيره ...كل ذلك جزء من رحمة الله أرسله في الكون. وكذلك سائر الأخلاق لأن الخلق في حقيقته إنما هو هندسة الجمال في السلوك، فكل تصرف من تصرفات البشر وفق خلق الرحمة إنما هو تجلى لرحمة الله وقبس منهاوأثر لاسم "الرحيم" واسم "الرحمن". فالخلق جمال في سلوك الإنسان وهو لمعة من جمال الله تعالى. وكذلك العلم مثلا فهو جمال لعقل الإنسان وزينة للحياة البشرية على ظهر الأرض، وكل علم البشر على امتداد زمن الحياة الدنيا إنما هو نزر يسير من علم الله، فهو تعالى عليم بكل شيء، وليس للبشر من العلم سوى ما أذن به تعالى، فما في الحياة الدنيا من جمال العلم إنما هو من تجليات علم الله ومن لمعات اسم "العليم" كما قال تعالى ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ويستفاد منه أن علم البشر جزء من علم الله أذن الله به فأرسله في الأرض، فكل علم تتيسر به حياة الناس إنما هو اقتباس من علم الله الجليل الجميل.

يثبت من كل ما تقدم أن كل وجوه الجمال المادي والمعنوي في الكون إنما هو لمعة يسيرة من جمال الله أو بتعبير النورسى إن: "مجموع ما في الكائنات من الكمال والجمال إنما هو ظل ضعيف مفاض بالنسبة إلى كماله عز كماله، وإلى جماله جل جماله".[1] وقد عبر عن هذا المعنى أبو حامد الغزالي كما نقل عنه المناوي في "فيض القدير" في شرحه لحديث (إِنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ) قال المناوي: "له الجمال المطلق ومن أحق بالجمال من كل جمال في الوجود من آثار صنعته فله جمال الذات وجمال الصفات وجمال الأفعال ولولا حجاب النور على وجهه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه من خلقه. (يحب الجمال) أي التجمل منكم في الهيئة أو في قلة إظهار الحاجة لغيره وسر ذلك أنه كامل في

---

(١) المثنوي العربي النوري ص ٥٢ .

أسمائه وصفاته فله الكمال المطلق من كل وجه ويحب أسماءه وصفاته ويحب ظهور آثارها في خلقه فإنه من لوازم كماله، وهو وتر يحب الوتر جميل يحب الجمال عليم يحب العلماء جواد يحب الجود قوي يحب القوي فالمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف حيي يحب أهل الحياء والوفاء، شكور يحب الشاكرين، صدوق يحب الصادقين، محسن يحب المحسنين إلى غير ذلك ... كما قال حجة الإسلام ليس في الإمكان أبدع مما كان، فالعالم جمال الله وهو الجميل المحب للجمال فمن أحب العالم بهذا النظر فما أحب إلا جمال الله إذ جمال الصنعة لا يضاف إليها بل إلى صانعها..

فبهذه الأدلة وغيرها يثبت النورسي أن ما يجده الإنسان في الحياة الدنيا من الجمال ليس جمالا حقيقة لأنه زائل أولا، ثم لأنه ليس خالصا وإنما هو جمال منقوص تقترن به معوقات تمنع كمال السعادة في الدنيا ولذلك لا يحصل منه الاكتفاء، فهو إذن ظلال وتجليات لجمال الخالق عز وجل جمل به الكون، وزين حواسا وشهوات في الإنسان ليبقى في تواصل مع الكون فيدرك هذا القبس اليسير من جمال الله تعالى حتى يبقى على ذكر للجمال الكامل متشوفا إليه عاملا من أجله مسخرا كل حياته وطاقاته من أجله. فبهذا تكون الحياة على ظهر الأرض عبارة عن تواصل مستمر مع جمال الله تعالى الكامل الباقي من خلال نماذج منه ومراياه المبثوثة في الكون، لأن الكون – في النظرة النورسية – عبارة عن مرايا شبه شفافة لجلال الله تعالى وجمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله. فالحياة تشويق وإعداد لبلوغ كمال اللذة وغاية السعادة في دار البقاء، وترشيح للارتشاف الدائم من كمال الجمال في جنة الخلد حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وحيث تمام السعادة بالنظر إلى وجه الحق تبارك وتعالى. ومن الشواهد على هذا ما أخرجه مسلم من حديث (صُهَيْب بن سنانٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ، فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ قَالَ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ) وفي طريق آخر زيادة: ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [1] وفي لفظ عند أحمد: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نُودُوا يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ مَوْعِدًا عِنْدَ اللهِ لَمْ تَرَوْهُ فَقَالُوا وَمَا هُوَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَتُزَحْزِحْنَا عَنِ النَّارِ وَتُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ قَالَ فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ وفي لفظ عند ابن ماجه، فَوَاللهِ مَا أَعَطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ يَعْنِي إِلَيْهِ وَلا أَقَرَّ لأَعْيُنِهِمْ)[2] وعند ابن ماجة أيضا – بسند ضعيف لكن يشهد له غيره – (عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُءُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَقَالَ السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ قَالَ وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ قَالَ فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَلا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ وَيَبْقَى نورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ)[3] وعند ابن أبي الدنيا في "صفة الجنة" (الحديث ٨٣) عن سمرة قال: أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الفردوس هي أعلى الجنة وأرفعها، وأحسنها الرؤية والزيادة. وهذه الأخبار كلها في معنى قول الله تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: ٢٦) وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَة. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢ – ٢٣) وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين: ١٥) فمن نظر إلى ربه فقد رأى عين الجمال

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب إِثْبَاتِ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الآخِرَةِ رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(٢) ابن ماجه في مقدمة السنن .

(٣) نفسه .

وأدرك غاية اللذة وقمة السعادة، ومن حجب وحرم النظر فقد حرم الجمال كله ولم يبق له إلا القبح والشر كاملا غير منقوص. فكل هذا الجمال المبثوث في الكون ليسا إلا نزرا يسيرا للتذكير بجمال الله والدلالة عليه والترغيب فيه ليبدأ الإنسان العروج نحوه من الحياة الدنيا. فكل لذات الدنيا وجمالها هي مسالك نحو هذا الجمال وطريق إليه، فهي لفتح الشهية والتشوف والإعداد للرقي. ومن أجل هذا القصد يفصح الحق تبارك وتعالى عن تجليات لهذا الجمال في الكون، فجعل الأرض معرضا عجيبا يرى فيها الإنسان نماذج من الجمال تدله على الجمال المطلق، فما يجده الإنسان من محبة الدنيا وما يحس به من قوة دافعة نحو الجمال إنما هو شوق يأخذه نحو جمال الله تعالى. ولهذا كان محبة الدنيا عند النورسي – على هذا الوجه – سلوكا نحو السمو الروحي والرقي المعنوي، لأن تناول اللذة في الدنيا مع استحضار أنها هدية من الخالق عز وجل وقبس يسر من جماله وأنها لا تساوي إلا نزرا يسيرا جدا من لذة النظر إلى وجهه تعالى في عالم البقاء، يحمل على محبته عز وجل والشوق إلى لقائه للنظر إلى وجهه وإدراك الغاية المرجوة من اللذة والسعادة. وعن هذا المعنى يفصح النورسي بقوله:" أنظر إلى ما لا يعد ولا يحصى من الجواهر النادرة المعروضة في هذه المعارض، والأطعمة الفريدة اللذيذة المزيّنة بها الموائد، مما يُبرز لنا أن لسلطان هذه المملكة سخاءً غير محدود، وخزائن ملأى لا تنضب.. ولكن مثل هذا السخاء الدائم، ومثل هذه الخزائن التي لا تنفد، يتطلبان حتماً دار ضيافة خالدة أبدية، فيها ما تشتهيه الأنفس. ويقتضيان كذلك خلود المتنعمين المتلذذين فيها، من غير أن يذوقوا ألم الفراق والزوال؛ إذ كما أن زوال الألم لذة فزوال اللذة ألم كذلك.. وانظر إلى هذه المعارض، ودقق النظر في تلك الإعلانات، وأصغ جيداً إلى هؤلاء المنادين الدعاة الذين يصفون عجائب مصنوعات السلطان – ذي المعجزات –

ويعلنون عنها، ويظهرون كماله، ويفصحون عن جماله المعنوي الذي لا نظير له، ويذكرون لطائف حسنه المستتر. فلهذا السلطان إذن كمال باهر، وجمال معنوي زاهر، يبعثان على الإعجاب. ولاشك أن الكمال المستتر الذي لا نقص فيه يقتضي إعلانه على رؤوس الأشهاد من المعجبين المستحسنين، ويتطلب إعلانه أمام أنظار المقدّرين لقيمته. أما الجمال الخفي الذي لا نظير له، فيستلزم الرؤية والإظهار، أي رؤية جماله بوجهين. أحدهما: رؤيته بذاته جمالَه في كل ما يعكس هذا الجمال من المرايا المختلفة. ثانيهما: رؤيته بنظر المشاهدين المشتاقين والمعجبين المستحسنين له. وهذا يعني أن الجمال الخالد يستدعي رؤية وظهوراً، مع مشاهدةٍ دائمةٍ، وشهودٍ أبدي.. وهذا يتطلب حتماً خلودَ المشاهدين المشتاقين المقدّرين لذلك الجمال، لأن الجمال الخالد لا يرضى بالمشتاق الزائل. ولأن المشاهد المحكوم عليه بالزوال يبدل تصور الزوال محبته عداءً، وإعجابه استخفافاً، وتوقيره إهانةً، إذ الإنسان عدو لما يجهل ولما يقصر عنه.. ولما كان الجميع يغادرون دور الضيافة هذه بسرعة ويغيبون عنها بلا ارتواء من نور ذلك الجمال والكمال، بل قد لا يرون إلا ظلالاً خافتة منه عبر لمحات سريعة.. فالرحلة إذن منطلقة إلى مشهد دائم خالد...." [1]

ثم ينطلق بنا النورسي ويأخذ بعقولنا وقلوبنا في سياحة عجيبة، ويشدنا إليه بقوة تأملاته وعمق أفكاره وجميل عباراته وتتابع براهينه وتنوع أدلته، فنحس معه دائما بالرغبة في المزيد من التأمل، فيسعفنا بالمزيد وكأنه يغرف من بحر. فلا يمكن لنا سوى أن نردد معه: "أمن الممكن لجود وسخاء مطلقين، وثروة لا تنضب، وخزائن لا تنفد، وجمال سرمدي لا مثيل له، وكمال أبدي لا نقص فيه، أن لا يطلب دار سعادةٍ ومحل ضيافةٍ، يخلد فيه المحتاجون للجود، الشاكرون له،

---

(١) الكلمات ص ٥١ .

والمشتاقون إلى الجمال، المعجبون به؟ إن تزيين وجه العالم بهذه المصنوعات الجميلة اللطيفة، وجعل الشمس سراجاً، والقمر نوراً، وسطح الأرض مائدة للنعم، وملأها بألذ الأطعمة الشهية المتنوعة، وجعل الأشجار أواني وصحافاً تتجدد مراراً كل موسم.. كل ذلك يظهر سخاءً وجوداً لا حد لهما. فلابد أن يكون لمثل هذا الجود والسخاء المطلقين، ولمثل هذه الخزائن التى لا تنفد، ولمثل هذه الرحمة التى وسعت كل شئ، دارَ ضيافة دائمة، ومحل سعادة خالدة يحوي ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وتستدعى قطعاً أن يخلد المتلذذون في تلك الدار، ويظلوا ملازمين لتلك السعادة ليبتعدوا عن الزوال والفراق، إذ كما أن زوال اللذة ألم فزوال الألم لذة كذلك، فمثل هذا السخاء يأبى الايذاء قطعاً."[1] فلابد إذن لصاحب هذا الجمال وهذا الجود والسخاء أن يتجلى بكمال جماله لمن يستحقه، ممن كان يتشوف إليه في الدنيا وكان يرى ظلاله وتجلياته في مرايا مصنوعاته، فيتفكر في جماله ويذكر جلاله فيتمنى لقاءه ويرجو نيله وإدراكه فيجعل حياته على ظهر الأرض معراجا إلى ذلك الجمال. " أي إن الأمر يقتضى وجود جنة أبدية، وخلود المحتاجين فيها؛ لأن الجود والسخاء المطلقين يتطلبان إحساناً وإنعاماً مطلقين، والإحسان والإنعام غير المتناهيين يتطلبان تنعماً وامتناناً غير متناهيين، وهذا يقتضى خلود إنعام مَن يستحق الإحسان إليه، كى يظهر شكره وامتنانه بتنعمه الدائم إزاء ذلك الإنعام الدائم.. وإلا فاللذة اليسيرة – التى ينغّصها الزوال والفراق– في هذه الفترة الوجيزة لا يمكن أن تنسجم ومقتضى هذا الجود والسخاء."[2] فليس للإنسان سوى أن يبدأ الرقى والسمو من خلال ربط الصلة بمرايا الجمال المتجددة حتى ينتهي زمن الزوال، فيدخل عالم الخلود

---

(١) الكلمات ص ٧٠.

(٢) نفسه.

حيث يدرك قمة السعادة ويجد تمام اللذة في كنف صاحب كمال الجمال والجلال، في جنة الخلد والنظر إلى وجه الكريم الجميل سبحانه وتعالى. فهذه هى حقيقة الجمال وأصله ولبه وجوهره. فالجمال جمال الله تعالى في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، وكل جمال في ما سواه من الخلق والعالمين إنما هو قبس منه وضع دليلا إليه ومذكرا به، والحياة على ظهر الأرض كلها سعى إليه ووسيلة للرقى نحوه. فكل لذة مادية أو معنوية يجدها الإنسان في الدنيا فللتذكير والتنبيه:" فالتلذذ بالأطعمة الشهية وتذوق الفواكه الطيبة مع التذكر بأنها إحسان من الله سبحانه وإنعام من الرحمن الرحيم، يعنى المحبة لاسم "الرحمن" واسم "المنعم" من الأسماء الحسنى... ثم إن محبتك للوالدين واحترامهما إنما يعودان إلى محبتك لله سبحانه إذ هو الذي غرس فيهما الرحمة والشفقة (وهما من جمال أسمائه وصفاته المبثوث في الكون) حتى قاما برعايتك وتربيتك بكل رحمة وحكمة... أما محبة الزوجة وهى رفيقة حياتك، فعليك بمحبتها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا الرحمة الإلهية وإياك أن تربط محبتك بها برباط الجمال الظاهري السريع الزوال (لأنه وسيلة فقط إلى كمال الجمال) بل أوثقها بالجمال الذي لا يزول ويزداد تألقا يوما بعد يوم، وهو جمال الأخلاق والسيرة الطيبة المنغرزة في أنوثتها ورقتها. وإن أحلى ما فيها من جمال وأسماه هو في شفقتها الخالصة النورانية (وهى من تجليات جمال رحمته الله) فجمال الشفقةهذا وحسن السيرة يدومان ويزدادان إلى نهاية العمر، وبمحبتهما تصان حقوق هذه المخلوقة اللطيفة الضعيفة، وإلا تفقد حقوقها في وقت هى أحوج ما تكون إليها بزوال الجمال الظاهري... فمن هذه الزاوية تصبح هذه المحبة لله... ثم محبة الربيع والشوق إليه تكون في سبيل الله ومتوجهة إلى أسمائه الحسنى، من حيث كونه أجمل صحيفة لظهور نقوش الأسماء الحسنى النورانية. فالتفكر في الربيع من هذه الزاوية محبة متوجهة إلى

الأسماء الحسنى."[1] وهكذا يغدو كل"الحسن والجمال، واللذة والنعمة المأخوذة من جميع الموجودات نوع ظل من تجلي جماله سبحانه وحسن أسمائه جل وعلا"[2] وتكون الحياة الدنيا كلها مرآة لجمال الله تعالى وجمال أسمائه وصفاته وأفعاله وذاته، ومزرعة للجمال الدائم والسعادة الغامرة في الجنة حيث النظر إلى وجه الجليل الجميل سبحانه وتعالى. و" إن كل من يحمل قلباً حياً، لا شك انه يحب من كان ذا جمال وكمال وإحسان وهذه المحبة تتزايد وفق درجات ذلك الجمال والكمال والإحسان، حتى تبلغ درجة العشق والتعبد. فيضحى صاحبها بما يملك في سبيل رؤية ذلك الجمال، بل قد يضحى بدنياه كلها لأجل رؤيته مرة واحدة. وإذا علمنا أن نسبة ما في الموجودات من جمال وكمال وإحسان إلى جماله وكماله وإحسانه سبحانه وتعالى لا يبلغ أن يكون لُميعات ضئيلة بالنسبة للشمس الساطعة. فإذن تستطيع أن تدرك — إن كنت إنساناً حقاً – مدى ما يورثه من سعادة دائمة ومدى ما يبعث من سرور ولذة ونعمة، التوفيق إلى رؤية مَن هو الأهل لمحبة بلا نهاية وشوق بلا نهاية ورؤية بلا نهاية في السعادة بلا نهاية."[3]

وكأني ببديع الزمان النورسى يحب أن يعرف العالم كله هذا المعنى الجميل فيصيح بأعلى صوته:" أيها الناس إن سيدنا مليك هذا القصر الواسع البديع، يريد ببنائه هذا وبإظهار ما ترونه أمام أعينكم من مظاهر، أن يعرف نفسه إليكم فاعرفوه واسعوا لحسن معرفته. وإنه يريد بهذه التزيينات الجمالية، أن يحبب نفسه إليكم، فحببوا أنفسكم إليه، باستحسانكم أعمالهوتقديركم لصنعته، وإنه يتودد إليكم ويريكم محبته بما يسبغه عليكم من آلائه ونعمه وإفضاله، فأحبوه بحسن إصغائكم لأوامره وبطاعتكم إياه. وإنه يظهر لكم شفقته ورحمته بهذا الإكرام

(١) الكلمات ص ٧٦٤ – ٧٦٥ – ٧٦٦

(٢) المكتوبات ص: ٢٩٧.

(٣) الكلمات ص ٦٩٨ .

والإغداق من النعم فعظموه أنتم بالشكر. وإنه يريد أن يظهر لكم جماله المعنوي بآثار كماله في هذه المصنوعات الجميلة الكاملة فأظهروا أنتم شوقكم ولهفتكم للقائه ورؤيته ونيل رضاه."[1] فغاية الأمر في الحياة الدنيا أن يربط الإنسان الاتصال مع الكون الذي هو بمنـزلة معرض بديع فيكون في " مقام التنـزيه بإمتاع النظر إلى دقة اللطف في خلق الأشياء، ورقة الجمال في إتقانها، فيكون في وظيفة المحبة والشوق إلى جمال الفاطر الجليل والصانع الجميل"[2] فما في الحياة الدنيا من مظاهر الحسن والجمال إنما هى مرايا لجمال الخالق العظيم المتصف بكمال الجلال والجمال، وتناول لذات الدنيا والتنعم بمرايا الجمال المبثوث فيها ليس مقصودا لذاته لأنه زائل والزوال لا يناسب الجمال والسعادة، وإنما المقصد من تناولها تذكر المنعم بها وتذكر جماله والتشوف إليه، ثم الإعداد لليوم العظيم يوم الجزاء الأوفى وتذوق الجمال الحق في جنة المأوى حيث كمال السعادة وقمة اللذة في النظر إلى وجه الخالق العظيم ذي الجلال والإكرام، هكذا يعلمنا النورسى النظر إلى الجمال، وهذا سبب وجدانه الجمال في كل شىء لأنه في كل لحظة من حياته لا ينفصل عن معرض الكون الذي يرى فيه تجليات جمال الخالق العظيم وجمال أسمائه الحسنى، فيبقى في ذكر دائم مستمر لكمال جلاله وجماله، متشوفا إليه فينسى كل عوارض الحياة، ويحتمل كل مشقة وعذاب في الدنيا لأنها معراج إلى الجمال السرمدي وطريق إليه.

فهذه بعض معالم نظرية الجمال كما تبدو في رسائل النور. والنظرية بناء يشد بعضه برقاب بعض، ولهذا فإن نظرية الجمال كما سبق بيانها لها لوازم ومقتضيات وآثار ممتدة في حياة المسلم، فهى تلازمه في اليوم والليلة، والسفر والحضر وفي سائر أحوال حياته ومحطات عمره.

---

(١) الكلمات ص ١٣٠ .

(٢) نفسه ص ١٣٤ مع بعض التصرف.

آثار نظرية الجمال وفروعها وفوائدها العملية

إن الفوائد العملية والآثار الواقعية لنظرية الجمال هذه تبدأ من الحياة الدنيا نفسها ثم ترتقى فائدة بعد أخرى، –من خلال الشوق والتشوف إلى كمال الجمال – حتى يعبر السالك من دار الزوال إلى دار البقاء حيث يظفر بما تملكه الشوق إليه مدة الحياة الدنيا فيجد كمال اللذة فيشعر بالاكتفاء ويحس بتمام السعادة وهو ينظر إلى وجه الجليل الجميل فلا يطلب شيئا بعده فلا يزيد على قوله: "الحمد لله رب العالمين" كما بين الحق تبارك وتعالى في القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم. دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ٩ – ١٠). وما بين مقام عالم الزوال في الدنيا وعالم البقاء في الآخرة تحصل للمسلم الفوائد الآتية:

١ – فائدة التعلق بالجمال الباقى واعتبار الجمال المادي وسيلة إلى الجمال الحق. فاستحضار جمال الخالق عز وجل من خلال تجلياته في الكون، والنظر إلى كل الجمال المبثوث في الوجود وكونه ظلا يسيرا من سنا جماله تعالى، يورث الشوق إلى أصل الجمال وكماله ويحمل على التشوف في كل حين إلى لقاء الجليل الجميل للتنعم بالجمال الحق. " فكل إنسان يشعر في وجدانه بلهفة شديدة لرؤية سيدنا سليمان عليه السلام الذي أوتي الكمال، ويشعر أيضاً بشوقٍ عظيم نحو رؤية سيدنا يوسف عليه السلام الذي أوتي شطر الجمال، فيا ترى كم يكون مدى الشوق واللهفة لدى الإنسان لرؤية جمال مقدس وكمال منـزّه، الذي من تجليات ذلك الجمال والكمال، الجنة الخالدة بجميع محاسنها ونعيمها وكمالاتها التى تفوق بما لا يحد من المرات جميع محاسن الدنيا وكمالاتها.."[1] وإن المتشوف

(١) الكلمات ص ٧٧٩ .

إلى لقاء الجليل الجميل يشتاق دائما إلى معرفة ما يرضيه وما يطلبه منه لأن المحب لمن يحب مطيع. وهكذا فليس في الحياة الدنيا من الجمال سوى ما يقود إلى رضوان الجليل الجميل عز وجل، فتكون بذلك كل طاعة جمالا يتلذذ به وتتقلد المعصية كل مظاهر القبح. وعلى هذا تكون الحياة الدنيا طريقا سالكا نحو الجمال الخالد في دار البقاء يوم لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه عز وجل. وفي أثناء هذا السلوك تحصل للسالك لذتان عظيمتان أولاهما: التلذذ بالجمال المادي المبثوث في الكون وثانيهما التلذذ المعنوي باستحضار جمال الله، وإن هذه اللذة المادية إنما هى ظل يسير من جماله وأثر من إنعامه والتفاته إلى عبده. فإن "محبتك للأشياء الجميلة والأمور الطيبة، لما كانت محبة في سبيل الله، وفي سبيل معرفة صانعها الجليل بحيث يجعلك تقول: ما أجمل خلقه، إن هذه المحبة في حد ذاتها تفكر ذو لذة ومتعة، فضلاً عن أنها تفتح السبيل أمام أذواق حب الجمال والشوق إلى الحسن لتتطلع إلى مراتب أذواق أسمى وأرفع، وتريه هناك كنوز تلك الخزائن النفيسة فيتملاها المرء في نشوة سامية عالية؛ ذلك لأن هذه المحبة تفتح آفاقاً أمام القلب ليحوّل نظره من آثار الصانع الجليل إلى جمال أفعاله البديعة، ومن جمال الأفعال إلى جمال أسمائه الحسنى، ومن جمال الأسماء الحسنى إلى جمال صفاته الجليلة، ومن جمال الصفات الجليلة إلى جمال ذاته المقدسة. فهذه المحبة وبهذا السبيل إنما هى عبادة لذيذة وتفكر رفيع ممتع في الوقت نفسه."(1)

فالشهوات والغرائز البشرية تثور في الإنسان وهو على ظهر الأرض ليشاهد قبسا يسيرا من الجمال، ويذوق جزءا حقيرا من اللذة تدله على غيرها، ثم تثور القوى المعنوية لتسوقه إلى الجمال السرمدي، فتكون بذلك شهوات النفس ولذات الحياة الدنيا طريقا إلى اللذات الغامرة والجمال السرمدي في دار البقاء

---

(1) الكلمات ص ٧٧٢ .

فتجتمع لصاحب هذا السلوك لذة الدنيا ولذة الشوق إلى لقاء الخالق المنعم "إذ المشاهد المشتاق لجمال سرمدي والعاكس الذي يعكسه كالمرآة، لابد أن يظل باقيا ويمضى إلى الأبد"[1].

٢ - **الولوع بالجمال ومحبته**: لما كان كل جمال الكون المادي والمعنوي ظلا يسيرا لجمال الله تعالى فإن من محبة الله محبة خلقه الذي هو ظل لجماله، ومن محبة الجميل التشبه بجماله عز وجل. "إذ ما دام رب العالمين له جمال مطلق وكمال مطلق – بشهادة آثاره ومصنوعاته– وإن الجمال والكمال محبوبان لذاتيهما، فمالك ذلك الجمال والكمال إذن له محبة بلا نهاية لجماله وكماله، وتلك المحبة تظهر بوجوهٍ عدة وأنماط كثيرة في المصنوعات؛ فيولي سبحانه مصنوعاته حبَّه لما يرى فيها من أثر جماله وكماله"[2] فالمتأمل في هذه المصنوعات المبثوثة في الكون يجد " أن فيها فعل التحسين في منتهى الجمال وفعل التزيين في منتهى الروعة، فبديهى أن مثل هذا التحسين والتزيين يدلان على وجود إرادة التحسين وقصد التزيين لدى صانع تلك المصنوعات. فتلك الإرادة الشديدة تدل بالضرورة على وجود رغبة قوية سامية ومحبة مقدسة لدى ذلك الصانع نحو صنعته... لذا فمن البديهى أن يكون أحب مخلوق لدى الخالق الكريم الذي يحب مصنوعاته هو مَن يتصف بأجمع تلك الصفات، ومَن يُظهر في ذاته لطائف الصنعة إظهاراً كاملاً، ومن يعرفها ويعرِّفها، ومَن يحبِّب نفسه ويستحسن بإعجاب وتقدير - جمال المصنوعات الأخرى."[3]

فمن يستحضر هذا المعنى ينظر بعين التحسين والتقدير لكل ما خلق الله تعالى لأنه مرايا جماله، فلا يستجيز لنفسه أبدا أن يقبح ما جمل الله أو يدنس ما حسنه

(١) الكلمات ص: ١٣٦

(٢) الكلمات ص ٦٨٥ .

(٣) الكلمات ص ٦٩١ .

الخالق الجميل من مخلوقاته. ومن هنا فإن نظرية الجمال هذه أصل راسخ لحماية البيئة التى هى من المعضلات البشرية الكبرى في العصر الحاضر. فلا يمكن لمن ينظر من هذا المنظار أن يفسد جمال شجر أو نبات أو ماء لأنه يرى فيه فعل التحسين والتجميل من الخالق العظيم ويتذكر به جماله وجلاله عز وجل. ولهذا جعل النبى صلى الله عليه وسلم حماية البيئة وحفظ جمال الكون والطبيعة من شعب الإيمان والأمارات الدالة عليه التى يجب أن يتصف بها كل مسلم فقال صلى الله عليه وسلم: (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إلا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ)[1] وقد عبر عن هذا المعنى أبو حامد الغزالي كما نقل عنه المناوي في "فيض القدير" في شرحه لحديث (إن الله جميل يحب الجمال) قال المناوي: (يحب الجمال) أي التجمل منكم في الهيئة أو في قلة إظهار الحاجة لغيره وسر ذلك أنه كامل في أسمائه وصفاته فله الكمال المطلق من كل وجه ويحب أسماءه وصفاته ويحب ظهور آثارها في خلقه فإنه من لوازم كماله، وهو وتر يحب الوتر جميل يحب الجمال عليم يحب العلماء جواد يحب الجود قوي يحب القوي فالمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف حيى يحب أهل الحياء والوفاء، شكور يحب الشاكرين، صدوق يحب الصادقين، محسن يحب المحسنين إلى غير ذلك... كما قال حجة الإسلام ليس في الإمكان أبدع مما كان، فالعالم جمال الله وهو الجميل المحب للجمال فمن أحب العالم بهذا النظر فما أحب إلا جمال الله إذ جمال الصنعة لا يضاف إليها بل إلى صانعها.."

٣ - **رؤية الجمال في كل شيء حتى في المحن والمصائب**: فمادام الخالق المدبر جميلا فكل فعله جميل. "فما نراه قبحاً في بعض المخلوقات، والآلام والأحزان التي تخلفها بعض الأحداث والوقائع اليومية لا تخلو أعماقُها قطعاً من

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان.

أوجه جميلة، وأهداف خيرة، وغايات سامية، وحكم خبيئة، تتوجه بكل ذلك إلى خالقها الكريم كما قدّر وهدى وأراد. فالكثير من الأمور التى تبدو -في الظاهر - مشوشة مضطربة ومختلطة، إن أنعمتَ النظر إلى مداخلها طالعتك - من خلالها - كتابات ربانية مقدسة رائعة، وفي غاية الجمال والانتظام والخير والحكمة."[1] وإن "هناك تحت الأستار القبيحة ظاهراً نتائج في منتهى الجمال"[2]

وإذا كان الموت أكبر المصائب التى تنزل بالإنسان على ظهر الأرض فإن نظرية الجمال النورسية تقدمه في حلل الحسن والجمال لأنه من فعل الجميل الجليل. "إن الموت في حقيقته تسريح وإنهاء لوظيفة الحياة الدنيا، وهو تبديل مكان وتحويل وجود، وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها؛ إذ كما أن مجيء الحياة إلى الدنيا هو بخلق وبتقدير إلهى، كذلك ذهابها من الدنيا هو أيضاً بخلق وتقدير وحكمة وتدبير إلهى ... فموت الأثمار والبذور والحبوب الذي يبدو ظاهراً تفسخاً وتحللاً هو في الحقيقة عبارة عن عجن لتفاعلات كيمياوية متسلسلة في غاية الانتظام ... وهذا يعنى أن موت البذرة هو مبدأ حياة النبات الجديدة، أزهاراً وأثماراً... فلئن كان موت النبات - وهو في أدنى طبقات الحياة- مخلوقاً منتظماً بحكمة، فكيف بالموت الذي يصيب الإنسان وهو في أرقى طبقات الحياة؟ فلا شك أن موته هذا سيثمر حياة دائمة في عالم البرزخ، تماماً كالبذرة الموضوعة تحت التراب والتى تصبح بموتها نباتاً رائع الجمال والحكمة. (ثم يسترسل رحمه الله في بيان أوجه الجمال في الموت) الموت إنقاذ للانسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا ومن تكاليف المعيشة المثقلة. وهو باب وصال في الوقت نفسه مع تسعة وتسعين من الأحبة الأعزاء في عالم البرزخ، فهو

(١) الكلمات ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٢) ملحق أميرداغ ص ٢٨١

إذن نعمة عظمى! إنه خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيق المضطرب، ودخول في رعاية المحبوب الباقي وفي كنف رحمته الواسعة، وهو تنعم بحياة فسيحة خالدة مستنيرة لا يزعجها خوف، ولا يكدرها حزن ولا همّ... إن الشيخوخة وأمثالها من الأسباب الداعية لجعل الحياة صعبة ومرهقة، تبيّن مدى كون الموت نعمة تفوق نعمة الحياة. فلو تصورت أن أجدادك مع ما هم عليه من أحوال مؤلمة قابعون أمامك حالياً مع والديك اللذين بلغا أرذل العمر، لفهمت مدى كون الحياة نقمة، والموت نعمة ... الموت - الذي هو أخو النوم- رحمة ونعمة عظمى للمبتلين ببلايا يائسة قد تدفعهم إلى الانتحار."[1] فالموت -وهو في ظاهره زوال وعدم- طريق البقاء وسبيل الوصال مع الأحبة، وعبور نحو الجمال الباقي في كنف رحمة الخالق العظيم ورؤية وجه الجميل الجليل حيث قمة السعادة وغاية اللذة.

٤ - العلوم الكونية اكتشاف لآثار جمال الله ومعرفة بجلاله ودالة عليه، فهي بمنزلة ألسنة مختلفة لكنها تفصح عن معنى واحد هو جمال الله وجلاله. فعلوم الكون تبحث في الصنعة المبثوثة في العوالم، ولما كانت الموجودات كلها في النظرة الجمالية النورسية كلمات دالات على معان في غيرها، أي إنها مكتوبات ربانية تاليات لأسماء الله الحسنى، وليست دالة على معان في نفسها، فجميع علوم الكون لا يمكن أن تكون سوى مسالك تدل على جمال الخالق عز وجل وتفصح عن جماله وتعرف به. فقد.."ثبت بالبحث والتحري الدقيق والاستقراء والتجارب العديدة للعلوم أن: الخير والحسن والجمال والإتقان والكمال هو السائد المطلق في نظام الكون وهو المقصود لذاته، أي هو المقاصد الحقيقية للصانع الجليل. بدليل أن كل علمٍ من العلوم المتعلّقة بالكون يطلعنا بقواعده الكلية على

(١) المكتوبات ص ٨ - ٩ .

أن في كل نوع وفي كل طائفة انتظاماً وإبداعاً بحيث لا يمكن للعقل أن يتصور أبدع وأكملَ منه. فمثلاً: علم التشريح الذي يخص الطب، علم المنظومة الشمسية الذي يخص الفلك وبقية العلوم التى تخص النباتات والحيوانات، كل منها تفيدنا بقواعدها الكلية وبحوثها المتعددة النظام المتقن للصانع الجليل في ذلك النوع وقدرته المبدعة وحكمته التامة فتبيّن جميعها حقيقة الآية الكريمة: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة: ٧)"[1]

عبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاحِدٌ   وَكُلٌّ إِلَى ذَاكَ الجمال يشِيرُ [2]

إن الإنسان والكون والطبيعة وجميع الموجودات مرآة لأسماء الله الحسنى وتجليات لصفاته العليا عز وجل. فمعرفة أحوال الإنسان وصفاته الخلقية والمعنوية، واكتشاف حقائق الكون وقوانين الطبيعة إنما هو استكشاف الأسماء والصفات. فالعلوم المادية كلها إنما هى استنطاق للكون وما فيه من الموجودات بحثا عن بارئها واكتشافا لتجليات أسماء مدبرها والقائم على أمرها، فهى بذلك طريق وسلوك إلى الرقى المعنوي والسمو الروحى الذي يحصل بمعرفة الله تعالى ومحبته من خلال أفعاله وصفاته المتجلية في خلقه عز وجل، ثم التشوف – من خلال تجليات جماله في الكون – إلى لقائه للتنعم بالجمال الحق الخالد. فالعلوم المادية كلها إنما هى نظر إلى الإنسان وإلى الآفاق بمطالعة كتاب الكون لاكتشاف تسبيحاته لأنه ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء : ٤٤) ولأن الكون العظيم بمثابة حلقة ذكر، وبمنزلة مسجد عظيم تلهج فيه أنواع لا تحصى من الكائنات بأسماء الله الحسنى وتشهد بصفاته العليا. فالنظر في المخلوقات بما فيها من تجليات أسماء خالقها وصفات بارئها يحصل منه جمال عظيم هو لذة معرفة الخالق المنعم جل وعلا ومحبته، الناشئة من معرفة إنعامه وإفضاله. فعلى

---

(١) صيقل الإسلام ص ٥٠٢ .

(٢) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ص ٤٥ .

هذا النحو تكون علوم الدنيا كلها طريقا إلى الجمال وسبيلا سالكا إلى اللذة المعنوية الناشئة من معرفة الخالق ومحبته. وإن القرآن الكريم ليدل على هذا الطريق فيذكر الموجودات ليس لذاتها، وإنما لمعانيها وأصلها وغايتها. يقول النورسى في بيان ذلك: "إن القرآن الكريم إنما يبحث عن الكائنات استطرادا للاستدلال على ذات الله وصفاته وأسمائه الحسنى، أي يفهم معاني هذا الكتاب كتاب الكون العظيم كى يعرف خالقه... إن القرآن يستخدم الموجودات لخالقها لا لأنفسها... فمثلا يبحث عن الشمس لا للشمس، ولا عن ماهيتها، بل لمن نورها وجعلها سراجا ... وما الانتظام والنظام إلا مرايا معرفة الصانع الجليل..."[1] فمعرفة خصائص الشمس وماهيتها و"أنها كتلة نارية عظيمة تدور في مستقرها حول نفسها، تطايرت منها شرارات سيارة" ليس علما حقيقة لأنه لا يحصل منه رقى معنوي وروحى فهو خال من الجمال، لأن هذه المعرفة وقفت عندالموجود لذاته، ولم تنظر لما قبله ولا لما بعده ولا لخالقه ومدبر أمره، وهذا غاية ما انتهى إليه الفكر الفلسفى، فحصل منه الضياع وشاع فكر العبث، لأنه حول العالم إلى شيء تافه بلا خالق ولا مدبر، لا شيء قبله ولا شيء بعده، وحول معنى الموت إلى صورة الإعدام الأبدي والفناء النهائى والنهاية المرعبة المخيفة.

ولهذا جعل القرآن الكريم علوم الدنيا لذاتها علما لظاهر الحياة الدنيا، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧). وأمر تعالى بالإعراض عن مثل هذا العلم في قوله عز وجل: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ (النجم: ٢٩ - ٣٠)[2] ومعنى ذلك أن علوم الدنيا إنما يعتد بها لما فيها من فائدة التعريف بجمال الله وجلاله من خلال الدلالة على ظلال جماله وتجليات أسمائه المبثوثة في المصنوعات، لأن "كل علم من العلوم... يبحث عن الله دوما، ويعرف بالخالق

---

(١) المكتوبات ص: ٢٦٩.

(٢) ينظر ملحق أميرداغ ص: ٣٥٤٣٥٥ فما بعدها.

الكريم بلغته الخاصة..."[1] أي أنه يرقى به البشر فيدرك الرحمة والإحسان والتزيين والتحسين الإلهى ليقابل ذلك بالشكر والمحبة والتشوف إلى جماله الخالد.

خلاصة خاتمة

هذه هى معالم نظرية الجمال كما تبدو في رسائل النور وكما أفصح عنها بديع الزمان النورسى في مواضع متفرقة من رسائله، وهى بحق نظرية لأنها مترابطة الأجزاء، ولها قواعد وأصول وجزئيات وفروع. وخلاصتها أن الإنسان على ظهر الأرض يتشوف نحو الجمال الخالد والسعادة التامة، لكن الجمال الحق والسعادة الخالدة الكاملة ليست إلا في المقام في دار المقامة حيث ما لا عين رأت وأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وحيث النظر إلى وجه الجليل الجميل الخالق العظيم سبحانه وتعالى. ولما تعذر ذلك في الدنيا بحكم التكليف وقيد الزمان والمكان والضعف والعجز الملازمين للإنسان فيها، فقد نصب الخالق العظيم في الكون علامات دالة على جماله وجلاله وبث في الكون مرايا شبه شفافة لجماله وخلق في الإنسان أجهزة وحواسا وجوارح وغرس فيه غرائز وشهوات حتى يبقى دائما على اتصال مع العالم من حوله فيذوق نزرا يسيرا من الجمال يدله على غيره ويذكره بجمال الله وجلاله فيبقى طيلة حياته متشوفا نحو جمال الله الخالد فتكون حياته كلها سيرا وسلوكا نحو الجمال الكامل الخالد. وأثناء سير الإنسان هذا تحصل له فوائد جليلة عظيمة تجتمع فيها لذة الدنيا وزينتها ولذة الشوق إلى لقاء الجليل الجميل في الدنيا، ثم يبلغ الأمر تمام غايته في الدار الآخرة حيث كمال الجمال وتمام السعادة في جنة النعيم والنظر إلى وجه الخالق العظيم الجليل الجميل.

---

(١) الشعاعات ص: ٢٥٧ .

اللّهم ارزقنا لذة محبتك والشوق إلى لقائك أبدا ما حيينا، وارزقنا لذة النظر إلى وجهك والدخول في رحمتك الواسعة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وتول برحمتك الأستاذ بديع النورسى وجميع علماء المسلمين آمين والحمد لله رب العالمين.

٦

أركان الوحدة الإسلامية وقواعدها العملية عند بديع الزمان النورسي(*)

مسألة محيرة حقا، تثير العجب والأسف في نفس كل منصف غيور على دينه حريص على أحواله أمته.كيف بأمة تتبع رسولا- أول ما بعث - أعلن تقبيحه للعداوة والشقاق، وهي لا تكف عن التنازع والخصومة! فكيف يستجيز المسلون اليوم العداوة والشقاق بينهم والقرآن الكريم الذي هو سر حياتهم وقائدهم إلى آخرتهم قد جعل الخصومة من أكبر المنكرات وعد الأخوة والائتلاف من أعظم الطاعات واعتبر وحدة المسلمين وتعاونهم من الفرائض الواجبات! ويزيد العجب درجات عندما تجد التراشق بالتهم وتبادل التجريح والتقبيح بسبب العداوة والخصومة لا يفتر حتى بين أهل العلم من المسلمين ممن يرجع إليهم في التماس سبل الهدى والاسترشاد إلى الخير والطاعات !

إن مسألة تجاوز هذا الخلاف المذموم بين المسلمين وترسيخ وحدة جامعة بينهم على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم ودولهم، من الفرائض العظيمة التي لا تنزل- في درجة وجوبها – عن بقية الفرائض المعلومة من الدين بالضرورة. فالظاهر الواضح أن شعائر العبادات الفرائض من صلاة وصوم وزكاة وحج ليست مضيعة كما ضيعت فريضة الأخوة والوحدة. والشاهد على ذلك أن

(*) ألقي هذا البحث بمؤتمر حول الوحدة الإسلامية في فكر النورسي، بالمعهد العالمي لوحدة الأمة الإسلامية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا بتعاون مع مركز استانبول للثقافة والعلوم بتاريخ ٦ – ٧ غشت ٢٠٠٥ .

المساجد تعمر بالمصلين في كل البلاد الاسلامية وغير الإسلامية، والحجاج والمعتمرون لا ينقص عددهم وإنما في ازدياد عاما بعد عام، وملايين العباد والمحسنين لا يكفون عن التضرع بالدعاء خاشعين متواضعين. لكن مع هذا كله فإن أحوال المسلمين لا تسر أحدا، فهم في ضعف وعجز، لا يقام لعقائدهم اعتبار في العلاقات الدولية، ولا أثر لشريعتهم في المعاهدات التي يكونون طرفا فيها ،ولا وزن لهم عند غيرهم ممن يشتركون معه في العيش على ظهر الأرض. وهذا ليس له من سبب سوى موت حياة الأخوة بينهم وفشو الاستبداد والشقاق والنزاع بسبب إعجاب كل ذي رأي برأيه، وعدم اعتباره للرأي المخالف، ورسوخ العصبية للمذاهب وغياب منهج تدبير الخلاف وضبطه .ويحصل هذا في الوقت الذي ترتقي فيه الأمم الأخرى في مراتب الوحدة والتعاون في مجالات الحياة المتنوعة السياسية والاقتصادية والفكرية، وترسيخ فكرة الديمقراطية التي جعلوها خلاصة جامعة لمناهج تدبير الخلاف وتبادل الرأي والاستشارات والاستفتاءات من أجل الترجيح والاختيار عند الاختلاف، فلا يكون الاختلاف في الآراء سببا للعداوة والخصومة وإنما هو ثراء وقوة .

إن وحدة المسلمين فريضة معلومة من الدين بالضرورة .ولكن كيف السبيل إلى الوحدة ، والاختلاف بين المذاهب الإسلامية لا يمكن أن ينقطع ؟ وكيف يمكن ترسيخ وحدة جامعة بين المسلمين اليوم وهم دول مختلفة ؟ إن الوحدة المرجوة يجب أن تأخذ في الاعتبار كل هذا. ولهذا فإن ترسيخ الوحدة الاسلامية عمل عظيم وجهد كبير جدا وكما قال الشاعر:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا   فما حيلة المضطر إلا ركوبها

إن ترسيح الوحدة الإسلامية ينبغي أن ينطلق أولا من الشعور بالحاجة إلى فقه الخلاف أي المناهج التي يتم بها تدبير الخلاف والافادة من كل ذوي رأي،

وضوابط الاختيار بين الآراء من غير أن يحرك ذلك عداوة ولا يثير خصومة. فتدبير الخلاف علم وصناعة فلا بد من ترسيخ هذه الصناعة في مجال العمل والسلوك بعد ترسيخها في العقول والقلوب.

وإن تجربة بديع الزمان سعيد النورسي في تركيا تستحق التوقف والتأمل والبحث والدراسة. فقد كان هذا الرجل عالما مجددا بهمة عالية وإيمان قوي من غير كلل ولا ملل.

فقد آمن يقينا أن الايمان قلعة حصينة، وأن الإيمان صنو المحبة والوحدة، وعدو الخصومة والعداوة. ولهذا وقف حياته رحمه الله على بناء الإيمان في النفوس وفي مهمته هذه عرض لكل الأمراض التي تنزل بجسد الأمة الإسلامية فتعوق سيرها وتمنع انطلاقها نحو الرقي في مدارج الحضارة .وكانت مسألة الوحدة الإسلامية محل عناية كبيرة عنده، فكان المرة بعد المرة يضع يده على داء الشقاق والنزاع وينبه إلى خطورة العداوة والتدابر.

ولم يقف رحمه الله عند الجوانب النظرية للوحدة الإسلامية وإنما وضع منهجا للوحدة من خلال قواعد عملية تراعي أحوال المسلمين في العصر الحاضر، وبث هذه القواعد في رسائله وكررها في مواضع كثيرة منها. وإذا كانت أحوال العالم الإسلامي في حياته- من الضعف والعجز – لم تمكنه من رؤية الوحدة الإسلامية كما تصورها فقد جعل من طلبته –طلبة النور– نموذجا مصغرا يقدم من خلاله معالم تصوره للوحدة الإسلامية العامة. وقد استمد النورسي الأركان والقواعد المنظمة للوحدة الإسلامية من أصول الشريعة وقواعدها العامة ومقاصدها الكلية التي تواردت عليها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن الخبرة الإنسانية والتجربة البشرية عبر الزمان والمكان وما أقيم عليها من الحقائق التي تجمعها العلوم الاجتماعية والنفسية والحضارية، وراعى فيها أيضا واقع

المسلمين المعاصر في تعدد دولهم واختلاف طوائفهم ومذاهبهم الكلامية والفقهية ووجود تنظيمات مختلفة تتنافس في خدمة الإيمان وتجديده في القلوب وترسيخ عقيدة الإسلام وقيمه في المجتمعات المسلمة المعاصرة.

فمن خلال رسائل النور لبديع الزمان النورسي، وتجربته في التربية مع طلبته الذين كانوا معه في العمل على بناء الإيمان وترسيخ الفضيلة، وامتداد هذا العمل العظيم إلى أيامنا هذه عن طريق جهود طلبة النور وما هم عليه من العمل الجاد المنظم والمنضبط يمكن استنباط قواعد الوحدة الإسلامية وطرقها ومناهجها كما تصورها النورسي رحمه الله. وهذا ما يمكن تفصيله من خلال الأركان والقواعد الآتية مرتبة على نحو يجعلها بمنزله حلقات يشد بعضها برقاب بعض، فكل مرحلة تتوقف على التي قبلها وكل قاعدة تؤدي إلى التي بعدها. فالوحدة الإسلامية عند النورسي تقوم على أركان وأصول ثابتة وتسير على قواعد عملية واضحة تكسبها النظام والضبط ويسر التنفيذ والتطبيق.وقد أعطى تصورا عاما جامعا لحد هذه الوحدة ومعالمها فقال " فالمراد هو الإتحاد الموجود الثابت بين جميع المؤمنين بالقوة أو بالفعل. وليس المراد جماعة استانبول أو في الأناضول إذ إن قطرة من ماء تحمل صفة الماء، فلا أحد خارج هذا الاتحاد، ولا يخصص هذا العنوان بأحد. وتعريفه الحقيقي هو: أن أساس هذا الإتحاد يمتد من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال... ومركزه : الحرمان الشريفان.. وجهة وحدته: التوحيد الإلهي .. عهده وقسمه: الايمان.. نظامه الداخلي: السنة النبوية الشريفة.. قوانينه: الأوامر والنواهي الشرعية .. مقر اجتماعاته: جميع المدارس والمساجد والزوايا.. ناشر أفكار تلك الجماعة نشرا خالدا إلى الأبد: جميع الكتب الإسلامية وفي المقدمة القرآن الكريم وتفاسيره (ورسائل النور أحد تلك التفاسير في زماننا هذا) وجميع الصحف الدينية والجرائد النزيهة التي تهدف إلى إعلاء كلمة

الله.. ومنتسبوه: جميع المؤمنين ورئيسه: فخر العالمين صلى الله عليه وسلم."[1]
فالوحدة الإسلامية لا تستثني أحدا من المسلمين ولا تخرج طائفة ولا جماعة من أهل الإسلام، وإنما كل مذهب له مكانة بين غيره من المذاهب الإسلامية. وكل فكرة أو إجتهاد من أهل الإجتهاد من المسلمين له حظه من الإعتبار. وكل مجال من مجالات العمل وكل وسيلة من وسائط النظر والإجتهاد ينزل منزلته ويوضع في موضعه فكل له فائدته، من المسجد والمدرسة والزاوية والكتاب والجريدة والمجلة والمحاضرة والموعظة وغيرها من المجالات والوسائل المتنوعة التي يتحرك فيها المسلمون الذين اتخذوا من الكعبة قبلة واحدة لهم فجعلوا الحرمين الشريفين مركزا لهم، لأنه الموطن الوحيد في العالم الذي تتجه إليه وجوههم وأجسامهم في كل يوم وتهوي إليه أفئدتهم في كل حين ويثوبون إليه المرة بعد المرة .وهذا من مقتضيات ما يحمله كل مسلم في قلبه من التوحيد، وما يخضع له من الأوامر والنواهي الشرعية، وما تنتظم به أعماله وتصرفاته اليومية من السنة النبوية المطهرة التي هي عند كل مسلم المثل الأعلى والنموذج الحي للرقي في منازل الفضل والخير.

وبعد هذا الإجمال يأتي البيان والتفصيل من خلال أركان ضابطة وانطلاقا من قواعد كلية .

١ – المحبة والأخوة فريضة شرعية والوحدة والتعاون قمة العبادة:

إن أول خطوة في المنهج النورسي لبناء الوحدة الإسلامية هي ترسيخ فكر التعاون والإجتماع. ولهذا لا يفتأ رحمه الله ينبه المرة بعد المرة إلى أن المحبة والتعاون فريضة شرعية وضرورة إيمانية .فالإيمان والعداوة ضدان لا يجتمعان وإنما أجدر صفة بقلب المؤمن هي المحبة "لأن الإيمان يؤسس الأخوة بين كل

(١) " سيرة ذاتية " ص ٩٧.

شيء، ولا يشتد الحرص والعداوة والحقد والوحشة في روح المؤمن، إذ بالدقة يرى أعدى عدوه نوع أخ له."[1] ويقرر النورسي في بداهة عجيبة مذهبه هذا بقوله: "إن مذهبي هو إبداء الحب للمحبة، وإظهار الخصام للعداء، أي أن أحب شيء إلي في الدنيل هي المحبة، وأبغض شيء عندي هو الخصام والعداء".[2] ولقد بث النورسي هذا المعنى في رسائله بصيغ متنوعة وفي مواضع متفرقة مما يفيد أن من يوطن نفسه على المحبة هو في قمة العبادة لأنه يدل على متعهد نفسه بالتزكية والتربية. وهذا ركن للوحدة عند النورسي عظيم، لأن الوحدة تقتضي التعاون والاجتماع، وهما مفضيان بالضرورة إلى المنافسة في الأعمال والتزاحم في الخدمة، وهما مفضيان إلى الغيرة وما ينشأ عنها من التحاسد والعداوة وهو ضرر يعوق الوحدة. ولهذا وجب تعهد النفس بالتزكية والتربية لحملها على إلتزام خلق الإيثار والتواضع والمحبة. وهذا سبب ما نجده واضحا عند النورسي من العناية البالغة بالنفس البشرية وصفاتها وما يعرض لها من الأمراض حتى جعل أمراض النفوس من أهم أسباب العجز والضعف الذي نزل بأهل الإسلام في العصر الحاضر فذكر منها تسرب اليأس، وموت الصدق في الحياة الاجتماعية والسياسية، وحب العداوة، والجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض، وسريان الاستبداد، وحصر الهمة في المنفعة الشخصية."[3] وهي كلها أمراض تحل بالقلوب، ولهذا كان تعهد النفس بالتزكية والتربية الإيمانية ركنا تقوم عليه الوحدة لأن الوحدة لا تقوم على التنافر والعداوة. وقد اعتبر النورسي قلب المرء ونفسه أول ما يجب أن يراعيه ضمن أعماله ووجباته في اليوم والليلة مهما كانت الظروف والأحوال. وقد ضور هذا المعنى تصويرا جميلا بليغا. فعندما كانت الحرب العالمية على أشدها وقد شغلت الناس وأخذت بعقولهم،

---

(١) " المثنوي العربي النوري " ص ١٥٨.

(٢) " صيقل الإسلام " ص ٤٢٣.

(٣) ينظر : " صيقل الإسلام " ص ٤٩١٤٩٢.

لاحظ الطلبة أن النورسي لا يهتم كثيرا بأخبار الحرب ولا يتابع أطوارها فأجابهم في ذلك بقوله: "إن رأسمال العمر قليل، ورحلة العمر هنا قصيرة، بينما الواجبات الضرورية والمهمات التي كلفنا القيام بها كثيرة، وهذه الواجبات هي كالدوائر المتحدة المركز حول الإنسان، فابتداء من دائرة القلب والمعدة والجسد والبيت والمحلة والمدينة والبلاد والكرة الأرضية والبشرية وانتهاء إلى دائرة الأحياء قاطبة والعالم أجمع كلها دوائر متداخلة بعضها في البعض الآخر، فكل إنسان له نوع من الوظيفة في كل دائرة من تلك الدوائر وأقربها إليه، بينما أصغر الواجبات وأقلها شأنا ودواما هي في أعظم تلك الدوائر وأبعدها عنه... لكن لما كانت الدائرة العظمى فاتنة جذابة فهي تشغل الإنسان بأمور غير ضرورية له وتصرف فكره إلى أعمال لا تعنيه بشيء، حتى تجعله يهمل واجباته الضرورية في الدائرة الصغيرة القريبة منه، فيهدر عندئذ رأسمال عمره، ويضيع عمره سدى."[1] فانظر كيف جعل رحمه الله تعهد القلب بالرعاية والتزكية من أول المهمات وأعظم الواجبات. وما ذلك إلا لأن الوحدة تقتضي الانتساب الحقيقي إلى فكر الجماعة، وهو لا يحصل إلا لمن زكت نفسه واتصف بالتواضع والإخلاص والمحبة. ومن دون ذلك تحصل المنافسة المفضية إلى الشقاق والعداوة لأن التعصب والأنانية أصل الخصومة والتدابر وكلها تؤثر في قوة المجتمع ومكانة الأمة، لأن "الحياة نتيجة الوحدة والاتحاد، فإذا ذهب الاتحاد المندمج الممتزج، فالحياة المعنوية تذهب أيضا أدراج الرياح. فالآية الكريمة ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال:٤٦). تشير إلى أن التساند والترابط إذا اختل تفقد الجماعة مذاقها."[2] ويزيد النورسي هذا المعنى بيانا فيقول: "إن مما تعلمته من الحياة الإجتماعية البشرية طوال حياتي، وما أملته علي التتبعات والتحقيقات هو: أن أجدر شيء بالمحبة هو المحبة نفسها، وأجدر صفة بالخصومة هي الخصومة

(١) " الثمرة " ص ٢١ – ٢٢ (ط : الأحمدية للنشر – الدار البضاء – المغرب).
(٢) " ملحق بارلا " ص ٥٨ .

نفسها، أي أن صفة المحبة التي هي ضمان الحياة الإجتماعية البشرية والتي تدفع إلى تحقق السعادة هي أليق للمحبة، وإن صفة العداوة والبغضاء التي هي عامل تدمير الحياة الإجتماعية وهدمها هي أقبح صفة وأضرها وأجدر أن تتجنب وتنفر منها."[1] فالوحدة فريضة واجبة ومن أركانها التي تقوم عليها المحبة والتعاون، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب فتكون المحبة والأخوة فريضة شرعية والتعاون عبادة عظيمة. ويصيح النورسي بكل قواه ليبلغ هذا المعنى إلى جميع أهل الإيمان ليعرفوا أن الأمر جد كله وأنها مسألة حياة أو موت بالعيش تحت أغلال الذلة والمسكنة فيقول: "أيها المؤمنون! إن كنتم تريدون حقا الحياة العزيزة، وترفضون الرضوخ لأغلال الذل والهوان، فأفيقوا من رقدتكم، وعودوا إلى رشدكم، وادخلوا القلعة الحصينة المقدسة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) وحصنوا أنفسكم بها من أيدي أولئك الظلمة الذين يستغلون خلافاتكم الداخلية .. وإلا تعجزون عن الدفاع عن حقوقكم بل حتى عن الحفاظ على حياتكم، إذ لا يخفى أن طفلا صغيرا يستطيع أن يضرب بطلين يتصارعان، وإن حصاة صغيرة تلعب دورا في رفع كفة ميزان وخفض الأخرى ولو كان فيهما جبلان متوازنان. فيا معشر أهل الايمان! إن قوتكم تذهب أدراج الرياح من جراء أغراضكم الشخصية وأنانيتكم وتحزبكم، فقوة قليلة جدا تتمكن من أن تذيقكم الذل والهلاك. فإن كنتم حقا مرتبطين بملة الإسلام فاستهدوا بالدستور النبوي العظيم: (المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ، يشدُّ بعضُه بعضًا) وعندما فقط تسلمون من ذل الدنيا وتتجهون من شقاء الآخرة."[2] وقد وضع النورسي آيات القرآن الكريم دساتير جامعة لهذه المسألة ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات: ١٠) وقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ

---

(١) " صيقل الإسلام " ص ٥٠٩ .

(٢) " المكتوبات " ص ٣٥٠.

وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت :٣٤) وقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران :١٣٤).

لأن "ما يسببه التحيز والعناد والحسد من نفاق وشقاق في أوساط المؤمنين، وما يوغر في صدورهم من حقد وغل وعداء، مرفوض أصلا .ترفضه الحقيقة والحكمة، ويرفضه الإسلام الذي يمثل روح الإنسانية الكبرى، فضلا عن العداء ظلم شنيع يفسد حياة البشر الشخصية والإجتماعية والمعنوية، بل هو سم زعاف لحياة البشرية قاطبة."[1] وإذا كانت الوحدة فريضة شرعية فإن الشقاق والنزاع معصية عظيمة، ولهذا قال النورسي في الخطبة الشامية: "إن تكاسلكم وعدم مبالاتكم وتقاعسكم عن العمل لتحقيق الإتحاد الإسلامي والوحدة الحقيقية للأمة الإسلامية، إنما هو ضرر بالغ وظلم فاضح."[2]

٢- من حقائق الحياة: امتزاج الحق بالباطل والصواب بالخطأ والحسنة بالسيئة:

وهذه من أصول الشريعة وكلياتها التي عدها النورسي من الأركان المهمة أيضا، التي تقوم عليها الوحدة. وخلاصته أن كل حق في الحياة البشرية ممتزج بباطل، وأن كل باطل لا يخلو من حق، وأن الإيمان لا يعني العصمة من المعصية، والورع لا يقتضي انتفاء الغفلة والخطأ بالمرة لأن كل ابن آدم خطاء وخير الخطاءين التوابون. ووجه ذلك أن من أسباب العداوة والشقاق ما يصدر من المعاصي والأخطاء من المسلمين وما يعرض للبعض من ظن كونه على صواب وغيره على خطأ ظاهر، مع الغلو في ذلك إلى درجة الحكم بالإطلاق ونفي كل صواب عن غيره بسبب ما يظهر له من بعض الباطل الذي صدر منه.

---

(١) " المكتوبات " ص ٢٣٩ .

(٢) " صيقل الإسلام " ص ٥١١ .

وبمقتضى هذا الركن لا يخلو كل مسلم من خير ولا كل مذهب من حق، فيكون العمل بمنهج النظر إلى جهة الحق في الباطل وصرف النظر عن جهة الباطل في الحق. "فالحياة الاجتماعية المؤقتة للمجتمع البشري والحضارة الانسانية ... يوجد فيها الخير والشر والطيب والخبيث والطاهر والقذر معا. فالعاقل هو من يعمل على قاعدة: "(خد ما صفا... دع ما كدر) فيسير مع سلامة القلب واطمئنان الوجدان."(١) وإن امتزاج الحق بالباطل والصواب بالخطأ له حكمة عظيمة وهي أن تثبت الحقائق النسبية ويبقى التفاوت في الفضل والأجر والخلاف في العمل والنظر، فيتحقق التكليف، ولتتميز الآخرة بالحقائق القطعية وانقطاع الخلاف. ففي وجود الخطأ والصواب حكمة وفائدة، فيجب أن ينظر إلى اختلاف الفهم والنظر بهذه الحكمة فيكون ثراء وقوة وليس ضعفا وشرا، لأنه – كما يقال – "إن خيرا لا شر فيه هو الجنة وإن شرا لا خير فيه هو النار". وإلى هذه الحكمة يشير النورسي بقوله: "يا أخي يا ذا القلب اليقظ! إن القدرة تتجلى في جمع الأضداد، فوجود الألم في اللذة، والشر في الخير، والقبح في الحسن، والضر في النفع، والنقمة في النعمة، والنار في النور .. فيه سر عظيم. أتعرف لماذا؟ إنه لكي تثبت الحقائق النسبية وتتقرر، وتتولد أشياء كثيرة من شيء واحد وتنال الوجود وتظهر، فالنقطة تتحول خطا بسرعة الحركة، واللمعة تتحول بالدوران دائرة من نور. فوظيفة الحقائق النسبية في الدنيا هي حبات تنشأ منها سنابل، إذ هي التي تشكل طينة الكائنات وروابط نظامها وعلائق نقوشها. أما في الآخرة فهذه الأوامر النسبية تصبح حقائق حقيقية. فالمراتب التي في الحرارة إنما هي ناشئة من تخلل البرودة فيها. ودرجات الحسن فيها من تداخل القبح، فالسبب يصبح علة. فالنور مدين للظلام، واللذة مدينة للألم، ولا متعة من دون المرض، ولولا الجنة لما عذبت

---

(١) " الكلمات " ص ٣٦ .

جهنم، فهي لا تأكل إلا بالزمهرير، بل لولاه لما أحرقت جهنم إحراقا تاما. فذلك الخلاق القدير أظهر حكمته العظيمة في خلق الأضداد، فتجلت هيبته وبهاؤه. وذلك القدير الدائم أظهر قدرته في جمع الأضداد، فظهرت عظمته وجلاله."[1] فكذلك اختلاف النظر والاجتهاد فائدته أن تتلاقح الأنظار وتتناظر الأفكار والاجتهادات فيحصل التنوع الذي هو تجدد وفي التجدد لذه وجمال. وبهذا يوضع كل مذهب في موضعه ويبحث لكل رأي عن مكانه وينزل في محله المناسب. وكأن النورسي قد أحسن بغموض هذا الركن، وحتى لا يوصف بالتجريد والخيال فهو يسعفنا بأمثلة عملية تشهد لهذا وتؤيد إمكانية التطبيق. ففي عرضه للمذاهب الكلامية القديمة كان يستحضر هذا الركن ويعمل بمقتضاه فكان ينظر في كل مذهب إلى أحسن مافيه ويعمل كل نظر ورأي في أنسب مواضعه وأجدرها به فلا يحكم بالصواب المطلق في كل شيء ولا بالخطأ المطلق في كل شيء. ففي ذكره لمذهب الجبرية ومذهب المعتزلة في القدر يقول: "إن الشريعة تنظر إلى الماضي وإلى المصيبة بنظر القدر الإلهي، فالقول هنا للجبرية .أما المستقبل والمعاصي فتنظر إليهما بنظر التكليف الإلهي، فالقول هنا للمعتزلة. وهكذا تتصالح الجبرية والمعتزلة. ففي هذه المذاهب الباطلة تتدرج حبة من حقيقة، لها محلها الخاص بها، وينشأ الباطل من تعميمها."[2] وهذا المنهج نجده عند المحققين من علماء الإسلام عبر العصور، ومنهم مثلا ابن تيمية لما قال في تعليقه على المعتزلة: "فإن المعتزلة وإن كانت أقوالهم متضمنة لبدع منكرة، فإن فيهم من العلم والدين، والاستدلال بالأدلة الشرعية والعقلية، والرد على من هو أبعد عن الإسلام ... من أهل الملل والملاحدة ... ما أوجب أن يدخل فيهم جماعات من

---

(١) " الكلمات " ص ٨٦٤ – ٨٦٥ .

(٢) نفسه ص ٨٥٢ – ٨٥٣ .

أهل العلم والدين."[1] فما حكم على مذاهبهم بالباطل مطلقا وإنما ببعض الباطل، ثم أثبت لهم ما يظهر له الصواب فيه من أقوالهم، لأن كل واحد وكل مذهب يؤخد منه ويرد. ويقول ابن تيمية أيضا: "فإنه ما من فرقة إلا وفيها خلق كثير ليسوا كفارا بل مؤمنين فيهم ضلال وذنب يستحقون به الوعيد كما يستحقه عصاة المؤمنين ... فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته، فإن كثيرا من المنتسبين للسنة فيهم بدعة."[2] فما من أحد إلا يمتزج فيه الخطأ والصواب في علمه ونظره، وتجتمع الحسنة والسيئة في عمله وفعله ولا بد. وإذا كان هذا الامتزاج حقيقة فليس صوابا إصدار الأحكام بالإطلاق "فما أعظم ضرر الإطلاق في مقام التقييد، والتعميم في مقام التخصيص! ومن هذا تتعادى الاجتهادات المتآخية."[3] فمن أسس الوحدة وأركانها مراعاة هذه الحقيقة والعمل بها لئلا تتعادى الاجتهادات المتآخية كما قال النورسي. وإذا كان الأمر كذلك فتقويم الخير والشر والصواب والخطأ يكون بحسب الغالب، وهي القاعدة الثالثة .

٣- الخير والصواب يقوم على منهج التغليب :

ومعناه أن الحكم بالصلاح على جماعة أو فرد من المسلمين لا يشترط فيه أن يكون سالما من كل عيب، وإنما من كان صلاحه غالبا فهو الصالح ومن كان فساده غالبا فهو الفاسد. وحتى وجود المعاصي والذنوب لا يجوز أن يحجب روابط الإسلام الأخرى. ولا يجوز هجر عالم من المسلمين لصدور خطأ منه لأن صوابه قد يغلب خطأه، ولأنه لا أحد يعرى من الخطأ. ولهذا قرر النورسي أن المحاسن التي يتصف بها كل مسلم غالبة على غيرها فلا تجوز عداوته لوجود

---

(١) منهاج السنة النبوية " ٤/ ١٣٥ . (تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم . ط :٢ ١٤١٩ هـ ١٩٨٨ م – المغرب)
(٢) منهاج السنة النبوية " ٥ ص ٢٤١ .
(٣) " صيقل الإسلام " ص ١٧٨ .

صفات أخرى ذميمة فيه. فإن "أسباب المحبة هي الإيمان والإسلام والإنسانية وأمثالها من السلاسل النورانية المتينة والحصون المعنوية المنيعة. أما أسباب العداوة والبغضاء تجاه المؤمن فإنما هي أمور خاصة تافهة تفاهات الحصيات. لذا فإن إضمار العداء لمسلم إضمارا حقيقيا، إنما هو خطأ جسيم لأنه استخفاف بأسباب المحبة التي هي أشبه بالجبال ... إن الود والمحبة والأخوة هي من طباع الإسلام وروابطه. والذي يحمل في قلبه العداء، فهو أشبه ما يكون بطفل فاسد المزاج يروم البكاء بأدنى مبرر للبكاء، وقد يكون ما هو أصغر من جناح ذبابة كافيا لدفعه إلى البكاء. أو هو أشبه ما يكون برجل متشائم لا يحسن الظن بشيء مادام سوء الظن ممكنا.، فيحجب عشر حسنات للمرء بسيئة واحدة. ومن المعلوم أن هذا مناف كليا للخلق الإسلامي القاضي بالإنصاف وحسن الظن."[1] ولأن "وجود تفاح فاسد في بستان لا يضر بالبستان، ووجود نقد مزور في خزينة لا يسقط قيمة الخزينة. ولما كانت السيئة تعد واحدة بينما الحسنة بعشر أمثالها، فالإنصاف يقتضي عدم الإعتراض وتعكير صفو القلب تجاه الحسنات إذا ماشوهدت سيئة واحدة وخطأ واحد."[2] فالعداوة بين أهل الإسلام منكر عظيم لأن مايجمع بينهم أعظم من دواعي الشقاق والنزاع، وأعظم جامع كلمة التوحيد التي عليها قامت السموات والأرضون، وهي سبب النجاة ومفتاح النعيم الخالد يوم القيامة لأنه "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة" فمن عادى مسلما فقد أهان هذه الصفة ولم يعرها اهتماما. " إن إضمار العداء للمؤمن والحقد عليه ظلم عظيم، لأنه إدانة لجميع الصفات البريئة التي يتصف بها المؤمن بجريرة صفة جانية فيه."[3] وقد كرر النورسي هذا الأصل غير مرة ولا مرتين لغفلة كثير من

---

(١) " صيقل الإسلام " ص ٥١٠ .
(٢) " ملحق بارلا " ص ٦٢ .
(٣) " المكتوبات " ص ٣٤٢ .

أهل الإسلام عنه فبغض المسلم لأخيه المسلم بل إن عداوة الإنسان للإنسان ظلم في نظر الحقيقة. "فيا من امتلأ صدره غلا وعداء لأخيه المؤمن، ويا عديم المروءة! هب أنك في سفينة أو دار ومعك تسعة أشخاص أبرياء ومجرم واحد. ورأيت من يحاول إغراق السفينة أو هدم الدار عليكم، فلا مراء أنك – في هذه الحالة– ستصرخ بأعلى صوتك محتجا على ما يرتكبه من ظلم قبيح، إذ ليس هناك قانون يسوغ إغراق سفينة برمتها تضم مجرمين طالما فيها برئ واحد .فكما أن هذا ظلم شنيع وغدر فاضح، كذلك انطواؤك على عداء وحقد مع المؤمن الذي هو بناء رباني وسفينة إلهية، لمجرد صفة مجرمة فيه، تستاء منها أو تتضرر، مع أنه يتحلى بتسع صفات بريئة بل بعشرين منها : كالإيمان والإسلام والجوار .. الخ. فهذا العداء والحقد يسوقك حتما إلى الرغبة ضمنا في إغراق سفينة وجوده، أو حرق بناء كيانه، وما هذا إلا ظلم شنيع وغدر فاضح."[1]

ويكفي في هذا المقام قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يحلُّ لِمُسلِمٍ أن يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام).[2] لأن وحدة العقيدة تقتضي وحدة جميع حملتها. " نعم! إن الايمان بعقيدة واحدة، يستدعي حتما توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد، ووحدة العقيدة هذه، تقتضي وحدة المجتمع... إن خالقكما واحد، مالككما واحد، معبودكما واحد، رازقكما واحد .. وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ الألف. ثم إن نبيكما واحد، دينكما واحد، قبلتكما واحدة، وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ المائة. ثم، إنكما تعيشان معا في قرية واحدة، تحت ظل دولة واحدة، في بلاد واحدة .. وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ العشرة. فلئن كان هناك إلى هذا القدر من

---

(١) " المكتوبات " ص ٣٤٠

(٢) " صحيح البخاري " كتاب الأدب، باب الهجرة.

الروابط التي تستدعي الوحدة والتوحيد والوفاق والاتفاق والمحبة والأخوة، ولها من القوة المعنوية ما يربط أجزاء الكون الهائلة، فما أظلم من يعرض عنها جميعا ويفضل عليها أسبابا واهية أوهن من بيت العنكبوت، تلك التي تولد الشقاق والنفاق والحقد والعداء، فيوغر صدره عداء وغلا حقيقيا مع أخيه المؤمن! أليس هذا إهانة لتلك الروابط التي توحد؟ واستخفافا بتلك الأسباب التي توجب المحبة ؟ واعتسافا لتلك العلاقات التي تفرض الأخوة ؟ فإن لم يكن قلبك ميتا ولم تنطفئ بعد جذوة عقلك فستدرك هذا جيدا."[1] ومعنى هذا كله أن أخوة المسلمين وتعاونهم من البدهيات المقررة، لأن روابط الإيمان والإسلام راجحة على كل ما قد يكون سببا للعداوة، وإن الحكم يكون للغالب. ولما كان الأمر كذلك فالواجب أن يكون نظر المسلم واجتهاده وعمله مرتبطا بروح الجماعة وفكر الأمة.

٤ – بناء الشخصية المعنوية عن طريق الارتباط بروح الجماعة :

فكل اجتهاد ونظر، وكل عمل يجب أن يرتبط بفكر الجماعة لأن غيابه يقتضي الأنانية وهي تقتضي النزاع والشقاق. ولبيان هذا يقرر النورسي في بداهة عجيبة أن هذا الزمان زمن الشخصية المعنوية، فلا مكان فيه للعمل الفردي والتفكير الأناني، ولا حياة لأمة من غير وحدة ونظام، والوحدة مشروطة بتعلق كل فرد بالشخصية المعنوية للجماعة أي الارتباط بالتوجه العام للمجتمع. وقد صور النورسي الأمة الواحدة بحوض عظيم ينبغي للفرد إلقاء شخصيته وأنانيته فيه وإذابتها.[2] فلو بقي كل فرد على أنانيته بقي حوض الجماعة فارغا. فالأهمية والقيمة تكونان حسب الشخصية المعنوية للجماعة وينبغي ألا تؤخد بنظر

---

(١) " المكتوبات " ص ٣٤٠ – ٣٤١.

(٢) ينظر " الملاحق " ملحق قسطموني ص ١٠٠.

الاعتبار ماهية الفرد المادية الفردية الفانية.[1] "إن الأمة باقية، بينما الفرد فان"[2] فإن "لم يكن لفكر الجماعة غاية وهدف مثالي، أو نسيت تلك الغاية، أو تنوسيت، تحولت الأذهان إلى أنانيات الأفراد وحامت حولها. أي: يتقوى "أنا" كل فرد، وقد يتحدد ويتصلب حتى لا يمكن خرقه ليصبح "نحن" فالذين يحبون "أنا" أنفسهم لا يحبون الآخرين حبا حقيقيا."[3] ويصور النورسي هذا الأمر تصويرا جميلا لا يملك أحد سوى التسليم به لقوته وبداهته، فيحملنا إلى صلب المجتمع وينتقل بنا إلى مجال الحياة العملية اليومية المدنية للفرد والمجتمع فيقول رحمه الله: "من كانت همته نفسه فليس من الإنسان لأنه مدني بالطبع، فهو مضطر لأن يراعي أبناء جنسه، فإن حياته الشخصية يمكن أن تستمر بحياته الاجتماعية. فمثلا: إن الذي يأكل رغيفا عليه أن يفكر كم يحتاج إلى الأيدي التي تحضر له ذلك الرغيف. فهو يقبل تلك الأيدي معنى. وكذا الثوب الذي يلبسه، كم من الأيدي والآلات والأجهزة تضافرت لتهيئته وتجهيزه. وقيسوا على منوال هذين المثالين لتعلموا أن الانسان مفطور على الارتباط بأبناء جنسه من الناس لعدم تمكنه من العيش بمفرده، وهو مضطر إلى أن يعطي لهم ثمنا معنويا لدفع احتياجاته، لذا فهو مدني فطرة. فالذي يحصر نظره في منافعه الشخصية وحدها إنما ينسلخ من الإنسانية ويصبح حيوانا مفترسا، اللهم إلا من لا حيلة له وله معذرة حقيقية."[4]

وفي هذا المقام تحضر مسألة خطيرة قد تشوش على هذا الأصل، وهي خاصية حب الظهور في الإنسان ونيل الشهرة ونسبة العمل إليه، وهي غريزة

---

(١) نفسه.
(٢) " صيقل الاسلام " ص ٤١٩.
(٣) " اللمعات " ص ٨٥١ .
(٤) " صيقل الاسلام " ص ٤١٣ ٤١٤.

راسخة قوية، فكيف يمكن الجمع بين الشخصية المعنوية للجماعة وبين حب "الأنا" المغروز في البشر. وهنا يسعفنا النورسي مرة أخرى بدرره الغالية، ويلقي إلينا بذهبه الخالص وجواهره النفسية، فيقرر أن نشوة حب الظهور تحل محلها نشوة أعظم وهي كسب الفرد نشوة الشعور العام الذي ينشأ من فكر الأمة، " فهي سر عظيم وحكمة إلهية ونظام أكمل، أن فردا خارقا في نوعه يمنح القيمة والأهمية إلى أفراد نوعه بالستر والخفاء، ودونك المثال: الولي في الإنسان، والأجل في العمر، فقد ظلا مخفيين. وكذا ساعة الإجابة في الجمعة وليلة القدر في رمضان، والإسم الأعظم في الأسماء الحسنى. والسر اللطيف في هذه الأمثلة وقيمتها العظيمة هي أن في الإبهام إظهارا، وفي الإخفاء إثباتا. فمثلا في إبهام الأجل موازنة لطيفة بين الخوف والرجاء، موازنة بين توهم البقاء في الدنيا وثواب العاقبة. فالعمر المجهول الذي يستغرق عشرين سنة أرجح من ألف سنة من عمر معلوم النهاية، لأنه بعد قضاء نصف هذا العمر يكون المرء كأنه يخطو خطوات إلى منصة الإعدام. فالحزن المستمر المتلاحق لا يدع صاحبه يتمتع بالراحة والسلوان."(١) فالظهور الحقيقي للفرد يكون مع الخفاء عندما تكسب الأمة كلها ثمرات جهده، وهذا ما يشير به النورسي على كل فرد من المسلمين بقوله: "إدفن مزاياك تحت تراب الخفاء لتنمو ياذا المزايا ويا صاحب الخاصية! لا تظلم بالتعين والتشخص، فلو بقيت تحت ستار الخفاء، منحت إخوانك بركة وإحسانا، إذ من الممكن ظهورك في كل أخ لك، وأن يكون هو أنت بالذات، وبهذا تجلب الأنظار والاحترام إلى كل أخ"(٢) فالنورسي يتصور الفرد المسلم في رباط معنوي وفكري ومادي مع الشخصية المعنوية للجماعة. وهذا المعنى هو المشار إليه في حديث:

---

(١) " الكلمات " ص ٨٦٦.

(٢) " الكلمات " ص ٨٦٦.

(ترى المؤمنينَ: في تراحُمِهم، وتوادِّهم، وتعاطُفِهم، كمثلِ الجسدِ، إذا اشتكى عضوًا، تداعى لَه سائرُ جسدِه بالسَّهرِ والحمَّى).[1]

٥ – قوة الوحدة وسلامتها في تلاقح الأفكار:

فالوحدة لا تعني منع الخلاف وقطع سبيل النظر، فحرية الاجتهاد والنظر مكفول لا ينقض، ومع الاجتهاد يحصل الخلاف ولابد. وإنما غاية الأمر ضبط الخلاف وتنظيمه ليكون ثراء وقوة، وذلك ببيان مواطنه ومجالاته، وأنواعه وجهاته، وغاياته ومقاصده. وأول ما يقرر النورسي في هذا الموضع أن المسلمين – بعد اتفاقهم في الأصول العامة للشريعة وأركانها الضرورية القطعية – لا يضرهم أبدا أن يختلفوا فيما سوى ذلك من الفروع الجزئيات لأن "أركان الدين وأحكامه الضرورية نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المفسرة له، وهي تشمل تسعين بالمائة من الدين، أما المسائل الخلافية التي تحتمل الاجتهاد فلا تتجاوز العشرة منه. فالبون إذن شاسع بين أهمية الأحكام الضرورية والمسائل الخلافية. فلو شبهنا (يقول النورسي) المسائل الاجتهادية بالذهب لكانت الأحكام الضرورية وأركان الإيمان أعمدة من الألماس تابعة لعشرة منها من الذهب. وهل يجوز أن يوجه الاهتمام إلى التي من الذهب أكثر من تلك التي من الألماس؟."[2] فكل خلاف بعد هذا يجب الاحتفاء به لأنه يحرك مدارك المجتهدين، وتتلاقح به أفهامهم وتتناظر به أفكارهم، وهذا مظهر قوة وعافية وليس مظهر ضعف لأن" تصادم الآراء ومناقشة الأفكار لأجل الحق وفي سبيل الوصول إلى الحقيقة إنما يكون عند اختلاف الوسائل مع الاتفاق في الأسس والغايات، فهذا النوع من الاختلاف يستطيع أن يقدم خدمة جليلة في الكشف عن

---

(١) " صحيح البخاري " كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.
(٢) " صيقل الاسلام " ص ٣٤٧ .

الحقيقة وإظهار كل زاوية من زواياها بأجلى صور الوضوح. ولكن إن كانت المناقشة والبحث عن الحقيقة لأجل أغراض شخصية وللتسلط والاستيلاء وإشباع شهوات نفوس فرعونية ونيل الشهرة وحب الظهور، فلا تتلمع بارقة الحقيقة في هذا النوع من بسط الأفكار، بل تتولد شرارة الفتن"[1] فالخلاف ثراء وركن للوحدة لأن" الاتحاد امتزاج للأفكار."[2]

٦ – كل اجتهاد يفيد الظن وليس القطع:

وهذه قاعدة عظيمة ومسألة دقيقة، وقع بسبب الجهل بها والغفلة عنها فساد كبير وشقاق عظيم. فمن مظاهر الضعف عند أهل الاسلام في العصر الحاضر، التي كان لها أثر في شدة التدابر والشقاق بين المسلمين، عدم قبول الخلاف في الأفكار. فتجد العالم يجتهد في فروع الشريعة، لكنه يقدم نظره على أنه غاية الأمر وتمام الصواب من غير احتمال غلط ولا ترك المجال للمخالف. وقد امتد هذا إلى عامة المسلمين، فكل طائفة تتعلق بنظر عالمها وإمامها وشيخ جماعتها، وكل من خالفه ناصبته العداء وربما قد يوصف بالفسق والمروق عن الدين. وسبب هذا توهم القطع في ما يصدر من اجتهاد واعتبار رأي العالم صوابا مطلقا لا يجوز مخالفته. والحقيقة أن كل اجتهاد يصدر من البشر وكل فهم للشريعة من عالم من علماء الإسلام في كل زمان ومكان، إنما له صفة الظن. أي إن من كان من أهل الاجتهاد وله الخبرة في المجال الذي يجتهد فيه – إذا اجتهد – فكل ما ينتهي إليه إنما هو صواب على جهة الظن وليس على جهة القطع، لأن الحكم بالقطع لا يحتمل الخلاف. ثم إن هذه الحقيقة تتفق مع حقيقة الحياة والإنسان. فالبشر عرضة لمؤثرات كثيرة مثل السهو والغفلة، والشهوة والهوى، والعجز البشري

---

(١) " المكتوبات " ص ٣٤٧ – ٣٤٨.

(٢) " صيقل الإسلام " ص ٤٢١.

ونزعات النفس، ولهذا فكل اجتهادات البشر في المجالات المختلفة والعلوم المتنوعة تحكمها صفة النسبية وليس الإطلاق، أي أن كل اجتهاد بشري له صفة الظن في درجة الصحة وليس صفة القطع. وإنما صفة القطع لما ثبت في القرآن الكريم والسنة النبوية من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة وهي أركان الشريعة وأصولها وكلياتها التي لا يختلف فيها. فالعمل بهذه القاعدة يحفظ الوحدة والاجتماع مع وجود الخلاف. وكل هذه المعاني قد انقدحت في ذهن النورسي وكانت ماثلة في عقله وهو يتدبر أسباب الشقاق بين المسلمين ويحاول وضع المسالك الناجعة لعلاج هذا الداء. يدل على هذا قوله: "عندما تعلم أنك على حق في سلوكك وأفكارها، يجوز لك أن تقول: "إن مسلكي حق أو هو أفضل" ولكن لا يجوز لك أن تقول: "إن الحق هو مسلكي أنا فحسب" لأن نظرك الساخط وفكرك الكليل لن يكونا محكا ولا حكما يقضي على بطلان المسالك الأخرى."[1] وقد اعتبر هذه الحقيقة دستورا يتبع لاتقاء العداوة والشقاق. ثم ذكر هذا أيضا في سياق الوسائل التي قدمها لبناء الوحدة الإسلامية واعتبر هذا المسلك دستورا أيضا فقال: "أيها العالم الإسلامي! إن حياتك في الاتحاد. إن كنت طالبا للإتحاد فاتخذ هذا دستورك : لا بد أن يكون "هو حق" بدلا من "هو الحق". و"هو حسن" بدلا من "هو الحسن" إذ يحق لكل مسلم أن يقول في مسلكه ومذهبه: ان هذا "حق" ولا أتعرض لما عداه. فإن يك جميلاً فمذهبي أجمل. بينما لا يحق له القول في مذهبه: إن هذا هو "الحق" وما عداه باطل. وما عندي هو "الحسن" فحسب وغيره قبيح وخطأ! إن ضيق الذهن وانحصاره على شيء، ينشأ من حب النفس ثم يكون داءً، ومنه ينجم النزاع.."[2]

---

(١) " المكتوبات " ص ٣٤٢

(٢) " الكلمات " ص ٨٦٣.

فلترسيخ الوحدة لابد من ترسيخ هذه القاعدة وتشهيرها، فيعتبر كل حكم ونظر واجتهاد متصفا بالظن، فيحكم العالم على ما انتهى إليه بالصواب ولكن مع فتح المجال لأحتمال الصواب في رأي غيره ممن يخالفه، فتكون الاجتهادات المختلفة معتبرة، ويأتلف أصحابها بدلا من اختلافهم، لأن كل طرف يرى صواب مذهبه على جهة الظن، وخطأ مخالفه على جهة أيضا، لأن القطع ليس إلا لأصول الدين وقواعده الكلية. ومما يترتب عن هذه القاعدة من الفوائد قاعدة أخرى وهي العمل بمنهج مراعاة الخلاف.

٧- مراعاة الخلاف في الاجتهاد:

إن من أسباب الشقاق التعصب للمذاهب والآراء، وهو مرض خطير لأنه يدل على الغرور والأنانية. "وإذا ما كان ثمة غرور وأنانية في النفس يتوهم المرء نفسه محقا ومخالفيه على باطل، فيقع الاختلاف والمنافسة بدل الاتفاق والمحبة، وعندما يفوته الاخلاص ويحبط عمله ويكون أثرا بعد عين."[١] وهذا المرض مخالف أيضا لحقيقة الحياة والإنسان التي تقتضي نسبية الحق في نظر الإنسان واجتهاده، لأن المتعصب يعطي الصواب المطلق لرأيه ومذهبه، والخطأ المطلق لرأي غيره. فهو بهذا كأنه يمنع عن غيره النظر فيكون منكرا لحق غيره وهذا استبداد وجور. وهو أيضا يمنع الثراء واليسر الذي يحصل من تعدد الآراء من أجل بلوغ الحقيقة، لأن التنوع في الأفكار واختلاف الأنظار جمال وسعة لأن "الحقيقة تتظاهر جلية من تصادم الأفكار ومناقشة الآراء وتخالف العقول."[٢] فتنوع الأفكار والاجتهادات فيما هو قابل للخلاف من قضايا الحياة وأمور الشريعة تيسير ورفع للحرج، لأن التنوع المنضبط جمال ونظام. ولترسيخ هذه

---

(١) " اللمعات " ص ٢٢٨.

(٢) " المكتوبات " ص ٣٤٧.

الحقيقة يأخد النورسي بعقولنا فيلتمس الشواهد من الكون الذي هو بمنزلة كتاب شاهد أودع فيه الخالق العظيم من العبر والدلالات الكثير، ومنها وجود الجمال في التنوع وتجلي النظام في الكثرة. يقول رحمه الله "إن عدم الانتظام الظاهر في نجوم السماء، يجعل كل نجم منها غير مقيد وكأنها مركز لأكثر النجوم ضمن دائرة محيطها، فتمد خيوط العلاقات وخطوط الأواصر إلى كل منها إشارة إلى العلاقات الخفية فيما بين الموجودات قاطبة. وكأن كل نجمة – كنجوم الآيات الكريمة – تملك عيونا باصرة إلى النجوم كافة ووجوها متوجهة إليها جميعا. فشاهد كمال الانتظام في عدم الانتظام."(١) فكذلك تنوع أفكار الناس واختلاف اجتهاداتهم، جعله الله تعالى – وهو الحكيم العليم– من حقائق الحياة وسننها من أجل التيسير حتى تتكامل الأنظار وتتعاون الاجتهادات. فمن "محاسن الخلقة والفطرة تقسيم المحاسن، ومنه انقسام المشارب، ومنه تفريق المساعي، ومنه امتثال فروض الكفاية في الخلقة، ومنه تقسيم الأعمال."(٢) فهذه النظرة النورسية تقتضي أن الاجتهادات المختلفة ينظر إليها بعين الرضا والاستحسان، والتكامل والانسجام وكأنها أدوية مختلفة باختلاف الأمراض فيوضع كل موضعه." فالأدوية تتعدد حسب تعدد الأدواء، ويكون تعددها حقا.. وهكذا الحق يتعدد، والحاجات والأغذية تتنوع، وتنوعها حق .. وهكذا الحق يتنوع، والاستعدادات ووسائل التربية تتشعب، وتشعبها حق.. وهكذا الحق يتشعب. فالمادة الواحدة قد تكون داء ودواء حسب مزاجين اثنين.. إذ تعطى نسبية مركبة وفق أمزجة المكلفين، وهكذا تتحقق وتتركب."(٣) فكل رأي معتبر يصلح أن يعمل به في موضع دون آخر، لأن الأحكام قد تختلف باختلاف الزمان والمكان والأعراف

---

(١) " الكلمات " ص ١٥١.

(٢) " صيقل اللإسلام " ص ١٨٠.

(٣) " الكلمات " ص ٨٦٤.

كما هو مقرر عند المحققين من علماء الإسلام، وإن العالم المجتهد قد يعمل بالمذهب المرجوح الضعيف في نظره، إذا اقتضت المصلحة ذلك، كما لو كان التمسك بمذهبه قد يثير فتنة بسبب ظروف الزمان والمكان، وكل هذا موجود عند الأئمة المجتهدين من علماء الإسلام. وإذا كان الأمر كذلك فالمنهج المتبع في اختلاف الاجتهادات هو منهج مراعاة الخلاف، ومعناه أن يجتهد من هو أهل للاجتهاد مع استحضاره أن هناك اجتهادات أخرى لغيره من العلماء، فيصدر حكمه مع العطف على رأي مخالفه وفسح المجال له وللعمل بمذهبه. وهذا ما سماه النورسي "الاختلاف الايجابي البناء". قال: "ومعناه أن يسعى كل واحد لترويج مسلكه وإظهار صحة وجهته وصواب نظرته، دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين أو الطعن في وجهة نظرهم وإبطال مسلكهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلا. أما الاختلاف السلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا النوع من الاختلاف مردود أصلا... حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأي عمل إيجابي بناء."[1] وسماه أيضا "العمل الإيجابي البناء" وقال إنه العلاج الوحيد لمرض التعصب وضيق الأفق العلمي "وهو عمل المرء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب، من دون أن يرد إلى تفكيره أو يتدخل في علمه عداء الآخرين أو التهوين من شأنهم، أي لا ينشغل بهم أصلا. بل عليه أن يتحرى روابط الوحدة الكثيرة التي تربط المشارب المعروضة في ساحة الإسلام – مهما كان نوعها – والتي ستكون منابع محبة ووسائل أخوة واتفاق فيما بينها فيتفق معها."[2] فكل مجتهد يراعي غيره و"إن صاحب كل مذهب

(١) " المكتوبات " ص ٣٤٧.

(٢) " اللمعات " ص ٢٢٨ – ٢٢٩.

يحكم حكما مطلقا مهملا من دون أن يعين حدود مذهبه، إذ يدعه لاختلاف الأمزجة، (أي يدع هامشا للمخالف ويترك له مجالا للتحرك فلا يعترض على العمل بمذهب مخالفه وإنما يراعيه ويفسح له المجال) ولكن التعصب المذهبي هو الذي يولد التعميم ولدى الالتزام بالتعميم ينشأ النزاع."[1]

فهذا الذي صوره النورسي هنا هو الذي عبر عنه غيره من علماء الإسلام المتقدمين بمراعاة الخلاف الذي هو في حقيقتة اتساع نظر كل مجتهد للتواصل والتكامل مع غيره من المجتهدين المخالفين له، وذلك بفتح المجال أمام المخالف للعمل بمذهبه وعدم التضييق عليه أو الإنكار، بل أكثر من ذلك قد يعمل بمذهب غيره الذي يعتبره خطأ إذا اقتضت المصلحة ذلك. وأعظم مصلحة تراعى في هذا المقام مصلحة وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم ومنع الشقاق والعداوة بينهم. ولهذا قالوا إن كل مجتهد عند الحكم على مذهبه ومقارنته بمذهب مخالفه لا يقول "الحق والباطل" وإنما "الصواب والخطأ" و" الراجح والمرجوح" وهو ماذكره النورسي في قوله: "إن صاحب كل مسلك حق يستطيع القول " إن مسلكي حق وهو أفضل وأجمل" من دون أن يتدخل في أمر مسالك الآخرين، ولكن لا يجوز له أن يقول: "الحق هو مسلكي فحسب" أو "إن الحسن والجمال في مسلكي وحده" الذي يقضي على بطلان المسالك الأخرى وفسادها."[2] وعبر عن مسألة العمل بالمرجوح الضعيف لمصلحة الوحدة ومنع الشقاق بقوله "إن كان الاتفاق في الحق اختلافاً في الأحق، يكون الحقُ أحقَّ من الأحقِّ، والحسنُ أحسنَ من الأحسن."[3]

---

(١) " الكلمات " ص ٨٦٤.

(٢) " اللمعات " ص ٢٢٩.

(٣) " الكلمات " ص ٨٦٣.

فهذه هي قاعدة مراعاة الخلاف التي اعتبرها النورسي دستورا للعالم الإسلامي من أجل اتقاء داء العصبية والإفادة من تنوع المشارب واختلاف المدارك فيكون الاختلاف ثراء وقوة. فمراعاة الخلاف يحمل كل مجتهد على عدم الإلزام بمذهبه مراعاة لمن يخالفه، لأن اجتهاده ليس له قوة الإلزام، إنما قوة الإلزام عندما يكون الحكم تشريعا وهذه مرحلة تالية ودرجة أعلى من هذه، ولهذا وجب التفريق بين الاجتهاد وبين التشريع.

٨- وجوب التفريق بين الاجتهاد وبين التشريع :

إن الاجتهاد الذي يصدر عن العالم له صفة الظن، فهو لا يحكم برد ما سواه وإنما يعتد به ويترك المجال للعمل به. ومعنى هذا أن الاجتهاد عندما يصدر من العالم ليس له صفة الوجوب والإلزام، أي ليس له أن يلزم به الناس ويمنع عنهم العمل بما سواه. فالاجتهاد معلم وليس ملزما. ولا يكون اجتهاد العالم تشريعا ملزما حتى يحظى بموافقة التوجه العام للعلماء في الأمة وتزكية الجمع المعتد به فيحظى بموافقة الجمهور. يقول النورسي: "كل من لديه استعداد وقابلية على الاجتهاد وحائز على شروطه، له أن يجتهد لنفسه في غير ما ورد فيه النص، من دون أن يلزم الآخرين به، إذ لا يستطيع أن يشرع ويدعو الأمة إلى مفهومه. إذ فهمه يعد من فقه الشريعة ولكن ليس الشريعة نفسها، لذا ربما يكون الإنسان مجتهدا ولكن لا يمكن أن يكون مشرعا. فالدعوة إلى أي فكر كان مشروطة بقبول جمهور العلماء له، وإلا فهو بدعة مردودة، تنحصر بصاحبها ولا تتعداه، لأن الإجماع وجمهور الفقهاء هم الذين يميزون ختم الشريعة عليه."[1] فنظر المجتهد ليس عين الحقيقة وصلب الشريعة وإنما فهم للشريعة لأنه ظني يحتمل الخطأ، فلا يكون

(١) " الكلمات " ص ٨٤٨.

ملزما إلا بالتواضع عليه وتزكيته بموافقة الجمع الغفير من الأمة، فتزكية الجمهور هي التي تكسب الاجتهاد القوة وصفة التشريع الملزم.

فهذه القواعد الثلاث الأخيرة تقي من العداوة التي قد تنشأ من تعدد الآراء واختلاف الاجتهادات، لأن كل عالم لا يقطع بصحة رأيه ولا يجزم بخطإ غيره، وإنما يراعي كل اجتهاد مخالف، فتبقى جميع الاجتهادات محل اعتبار حتى تأتي تزكية الجمهور فيتعين التشريع. ولكن حصول تزكية الجمهور تحتاج إلى ضبط وتنظيم لأن علماء الإسلام كثيرون متفرقون في البلدان. وهنا يحيلنا النورسي على الشورى العلمية من خلال منهج عملي هو العمل من خلال مؤسسة "مجلس الشورى".

٩- تدبير الاجتهاد والتشريع عن طريق "مجلس شورى الاجتهاد"

عرض النورسي لهذه المسألة في سياق كلامه على دار الحكمة والمشيخة الإسلامية في الدولة العثمانية، وقد أبان رحمه الله عن نظر عميق وفكر سديد في هذا الموضوع. فقد قرر من غير تردد أن وضع المشيخة الإسلامية لا يفي بالغرض المرجو منها وهو تدبير أمر الاجتهاد والفتوى في الشريعة وتنظيم الشورى بين علماء الإسلام لاتقاء الفوضى من تعدد المذاهب وكثرة الآراء .فأحوال المجتمعات الإسلامية حصل فيها تغيير كبير لم يعهد في القديم، فتجددت القضايا والوقائع، وكثرت التنظيمات في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع، وأصبحت الأمم كلها تتوجه نحو منهج تدبير أمور الدولة وقضايا المجتمع عن طريق التدوال وتبادل الآراء والشورى في إطار "الديمقراطية النيابية" من أجل ضبط الخلاف وتدبيره والإفادة السليمة من آراء جميع أهل الخبرة. ولهذا أبدى النورسي استغرابه كيف يبقى أمر الاجتهاد في قضايا أمة – كثيرة العدد و في قضايا كثيرة متجددة – بيد شخص واحد أو أشخاص معدودين! يقول في هذا: "فبينا نرى الوزارة تستند أصلا إلى ثلاثة مجالس شورى – وقد لا توفي هذه المجالس

حاجاتها الكثيرة – نجد أن المشيخة قد أودعت إلى اجتهاد شخص واحد، في وقت تعقدت فيه العلاقات وتشابكت حتى في أدق الأمور، فضلا عن الفوضى الرهيبة في الآراء الاجتهادية، وعلاوة على تشتت الأفكار وتدني الأخلاق المريع الناشئ من تسرب المدنية الزائفة فينا. من المعلوم أن مقاومة الفرد تكون ضعيفة أمام المؤثرات الخارجية، فلقد ضحي بكثير من أحكام الدين مسايرة للمؤثرات الخارجية ... ولقد أظهر الزمان أن هذه المشيخة الإسلامية – التي تمثل الخلافة – ليست خاصة لأهل استانبول أو للدولة العثمانية، وإنما هي مؤسسة جليلة تعود للمسلمين عامة. فوضعها الحالي المنطفئ لا يؤهلها للقيام بأعباء إرشاد استانبول وحدها ناهيك عن إرشاد العالم الإسلامي ! لذا ينبغي أن تؤول هذه المشيخة إلى درجة ومنزلة تتمكن بها كسب ثقة العالم الإسلامي فتكون كالمرآة العاكسة لمشاكل المسلمين، وتغدو منبعا فياضا للإجتهادات والأفكار. وعندها تكون قد أدت مهمتها حق الأداء تجاه العالم الإسلامي."[1]

فهذا الزمان لم يعد يحتمل هذا الوضع، وإنما الواجب أن تسري في الإجتهادات التشريعية الروح المعنوية للجماعة، ويقترح النورسي مجلسا للشورى يجمع علماء الإسلام عن البلاد الإسلامية، ولا عبرة بمكانه إنما العبرة أن يمثل الروح المعنوية الجماعية للمسلمين فإن "الحاجة أستاذ لكل أمر ... فالحاجة شديدة لمثل هذا المجلس الشوري الشرعي، فإن لم يؤسس في مركز الخلافة فسيؤسس بالضرورة في مكان آخر."[2] "فالزمان الآن زمان الجماعة، والحاكم شخص معنوي ينبثق من روح الجماعة. فمجالس الشورى تملك تلك الشخصية، فالذي يفتي ... ينبغي أن يكون شخصا معنويا نابعا من مجلس شورى

(١) " صيقل الإسلام " ص ٣٥٢.

(٢) " صيقل الإسلام " ص ٣٥٣.

عال، كي يتمكن من أن يسمع صوته للآخرين، ويسوق ذلك الحاكم إلى الصراط السوي في أمور الدين."[1] فعلى هذا المنهج تبقى حرية الإجتهاد مكفولة وبابه مفتوحا لمن حصل آلاته، فتتحرك عقول المجتهدين من غير حجر ولا حرج، وتتلاقح الأفكار وتتناظر الأفهام، وعندما يتمحض الاختيار للعمل والتشريع فإن مجلس الشورى – بعد التداول العلمي الحر المنصف – يمنح تزكية العمل فيكتسب الحكم صفة التشريع. وهذا ما يفهم من قول النورسي: "إن كل من يجد في نفسه كفاءة واستعدادا للاجتهاد يمكنه أن يجتهد، ولكن لا يكون هذا الاجتهاد موضع عمل إلا عندما يقترن بتصديق نوع من إجماع الجمهور ... فكما نرى في كتب الشريعة أن مدار الفتوى: الإجماع ورأي الجمهور، يلزم الآن ذلك أيضا ليكون فيصلا قاطعا لدابر الفوضى الناشبة في الآراء."[2]

ويرى النورسي أن روح الشورى يجب أن تسري في كل العلوم الشرعية، ويقدم مثالا على ذلك من تفسير القرآن الكريم، فيفصح عن رغبة تدل على وضعه مشروعا علميا عظيما للتفسير عن طريق الشورى بين أهل الخبرة في المجالات المختلفة، لأن القرآن الكريم ليس كتاب لغة فحسب ولا كتاب تشريع للحلال والحرام فقط، وإنما فيه حقيقة الكون والحياة والإنسان، فليكن منهج التفسير قائما على تكامل أنظار الخبراء في هذه المجالات كلها. يقول رحمه الله: "إن الذي يستطيع أن يكون أستاذا على الأفكار العامة هو الأفكار العلمية العامة أيضا. فبناء على هذا واستنادا إليه، أريد تشكيل مجلس شورى علمي منتخب من العلماء المحققين كل منهم متخصص في علم، ليقوموا بتفسير عظيم ويجمعوا المحاسن المتفرقة في التفاسير ويهذبوها. وهذا الأمر مشروط بأن تكون الشورى مهيمنة في

---

(١) " صيقل الإسلام " ص ٣٥٢٣٥٣.
(٢) " صيقل الإسلام " ص ٣٥٣

كل شيء، والأفكار العامة مراقبة وحجية الإجماع حجة عليه."[1] لكن روح الشورى في مجال العلم لا تكفي للوحدة والاتحاد، وإنما لا بد أن تمتد أيضا إلى مجال الحكم وتدبير الشأن العام وهنا أيضا يقترح النورسي الإفادة من الديمقراطية النيابية.

١٠ – نبذ الاستبداد وتنظيم الشورى عن طريق النظام النيابي البرلماني:

لترسيخ هذه القاعدة اعتبر النورسي الاستبداد شركا خفيا ورذيلة منافية للايمان ومجافية لحقيقة الحياة التي تقضي بأن بناء الحضارة يقتضي الوحدة والوحدة تقتضي الاندماج في المجتمع، مع التواضع والتفكير بروح الجماعة، والارتباط بالشخصية المعنوية للأمة. إن الايمان الذي هو أساس حياة المسلم يقتضي التواضع والتواصل مع الجماعة، ولا يكون الإيمان أبدا وسيلة للإكراه ولا سببا للاستبداد والتسلط، وإنما "أهم مشرب لدى أهل الفضيلة هو الاندماج في المجتمع بالعجز والفقر والتواضع."[2] و"إن من أشد ظلم البشر إعطاء ثمرات مساعي الجماعة لشخص، وتوهم صدورها منه، فيتولد من هذا الظلم شرك خفي، إذ توهم صدور محصل كسب الجماعة وأثر جزئهم الاختياري من شخص، لا يمكن إلا بتصور ذلك الشخص ذا قدرة خارقة ترقت إلى درجة الإيجاد، وما آلهة اليونانيين والوثنيين، إلا تولدات من أمثال هذه التصورات الظالمة الشيطانية."[3] "فالرأي الشخصي المستبد والتفكير الانفرادي ... يبدد أعمال الإنسان رغم أنه مكلف بفطرته برعاية حقوقه ضمن رعايته لحقوق الآخرين."[4] وفي رصد لأسباب التخلف في العالم الإسلامي المعاصر يذكر منها

(١) " صيقل الإسلام " ص ٣٧.
(٢) " اللمعات " ص ٢٥٩.
(٣) " المثنوي العربي النوري " ص ١٧٨.
(٤) " صيقل الإسلام " ص ٤٣٣.

النورسي "تفشي روح الاستبداد"[1] فهو من موانع ظهور جمال الإسلام ومحاسنه في العصر الحاضر، وهو من الأمراض التي "جعلتنا نقف على أعتاب القرون الوسطى في الوقت الذي طار فيه الأجانب – وخاصة الأروبيين – نحو المستقبل."[2] ولا يحصر النورسي هذا الداء في الحكم فقط وإنما هو مرض أصيب به حتى العلماء وشيوخ الصوفية وقادة التنظيمات الإسلامية.[3] ثم يؤكد النورسي رحمه الله أن "مفتاح سعادة المسلمين في حياتهم الإجتماعية إنما هو "الشورى" فالآية الكريمة تأمرنا باتخاذ الشورى في جميع أمورنا، إذ يقول سبحانه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى: ٣٨). أجل فكما أن تلاحق الأفكار بين أبناء الجنس البشري إنما هو شورى على مر العصور بوساطة التاريخ، حتى غدا مدار رقي البشرية وأساس علومها، فإن سبب تخلف القارة الكبرى التي هي آسيا عن ركب الحضارة إنما هو لعدم قيامها بتلك الشورى الحقيقية."[4]

وبحسب النظرة النورسية فإن المقصد أن تتحقق الشورى في كل مجالات الحياة وتكون روحا تسري في كل ميدان وعند كل فريق، ثم لا يضر بعد ذلك أن تختلف الوسائل إذا تحقق هذا المقصد. ولهذا لا يمانع النورسي من إعمال مبادئ الديمقراطية إذا أشربت روح الشريعة ودخلت تحت أصولها، بل يرى أن جوهر الديمقراطية الذي هو نبذ الاستبداد، والحكم بفكر الجماعة والجمهور هو من مقاصد الشريعة. ولهذا يرى النورسي أن التوجه نحو أوربا لاقتباس نظم الحكم يدل على غفلة وجهل بأحكام الشريعة ومقاصد الإسلام، فأصول النظام الجمهوري مثلا موجودة في الشريعة، بل إن الخلفاء الراشدين إنما تم توليهم عن

(١) " صيقل الإسلام " ص ٤٣٣.
(٢) " صيقل الإسلام " ص ٤٩٦.
(٣) ينظر : " صيقل الإسلام " ص ٤٩١ – ٤٩٢ .
(٤) " صيقل الإسلام " ص ٥١٤ .

طريق الاختيار الحر من الشعب. ولهذا يقول النورسي: "فالجمهورية عبارة عن العدالة والشورى وحصر القوة في القانون، أليس من الجناية على الإسلام أن تستجدى الأحكام من أوروبا ولنا شريعة غراء تأسست قبل ثلاثة عشر قرنا؟ إن هذا الاستجداء شبيه بالتوجه إلى غير القبلة في الصلاة. إن القوة لابد أن تكون في القانون وإلا فسيتفشى الاستبداد في الكثيرين."(١) ومثله يقال عن النظام النيابي البرلماني الذي هو أرقى ما وصل إليه الاجتهاد في الفكر الغربي، فجوهره هو تنظيم الخلاف والاجتهاد للتشريع عن طريق الشورى وهو من مقاصد الشريعة، فإذا أدخل هذا النظام تحت ظل الشريعة فهو مفيد ناجع لتدبير أمور المجتمع.(٢) وأشار النورسي إلى هذا في خطاب أمام مجلس الأمة التركي عام ١٩٢٣ فكان مما قال: "إن تصرفات هذه القافلة المجاهدة من أعضاء هذا المجلس العالي بالغة الأهمية ... إن هذا العصر عصر الجماعة، إذ الشخصية المعنوية – التي هي روح الجماعة – أثبت وأمتن من شخصية الفرد. وهي أكثر استطاعة على تنفيذ الأحكام الشرعية... إن الشخصية المعنوية تعكس روح العامة، فإن كانت مستقيمة فإن إشراقها وتألقها يكون أسطع وألمع من شخصية الفرد ..."(٣)

١١ – العيش في الحاضر والتحلل من أغلال التاريخ السيئة :

إن من معوقات الوحدة الإسلامية، مامضى في تاريخ الإسلام من الوقائع السيئة التي تثير المشاعر وتستفز نوازع الخصومة والعداء، وخاصة الوقائع المتعلقة بالخلاف المذهبي والسياسي بين طوائف المسلمين. وإن التاريخ لا

---

(١) " صيقل الإسلام " ص ٥٢٧ .

(٢) ينظر: "مفتاح أهداف الجمهورية في ضوء الأفكار السياسية لبديع الزمان النورسي" المؤتمر العالمي حول بديع الزمان النورسي.إسطنبول ١٩٩٢م.

(٣) " المثنوي العربي النوري " ص ٢٠٣ ٢٠٤ .

يمكن تغييره، ولكن يمكن ضبط التعامل معه على النحو الذي يحفظ الوحدة. ولهذه المسألة أصل في القرآن الكريم وهو قول الله عز وجل ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة :١٣٤) وهي إشارة وإرشاد وأمر إلى وجوب ضبط التاريخ والتحرر من أغلاله، واتقاء سلبياته، خاصة في الوقائع التي تؤثر في وحدة الأمة. وقد تنبه النورسي – وهو يضع أركان الوحدة الإسلامية وقواعدها – إلى هذه المسألة، فوضع منهجا للتعامل مع هذا الجانب من التاريخ، وخلاصته الكف عن الخوض واتقاء الجدال في هذه الوقائع، وإن وقعت الحاجة العلمية إليها فإنها تذكر بحذر شديد وعلى النحو الذي لا يحرك مشاعر هذا الفريق أو ذاك من المسلمين. يستفاد هذا من قول النورسي: "إن طرق البحث أو حتى التفكر في ذلك الجرح العميق الذي أبكي العالم الإسلامي قبل ألف وثلاثمائة سنة والذي دفع أهل الحقيقة جميعا إلى إطلاق الزفرات والحسرات، يؤلمني ألما لا يطيقه مشربي الخاص ... إن هناك ضرورة الآن إنقاذ أهل الإيمان من لدغات ثعابين ماردة تهاجمهم هجوما شرسا من حيث حقائق الإيمان وتنفث سمومها القاتلة في الكثيرين أمام أنظارنا ... فما دام الوضع هكذا، فإن الانسلاخ من هذا الزمان الحالي والذهاب إلى عصور سابقة ومشاهدة الظلم الرهيب الواقع على أهل البيت، يسحق روحي أكثر، ويفت في القوة المعنوية، ويعذبني عذابا لا يوصف."[1] ويسعفنا النورسي رحمه الله بأنموذج ومثال لطريقة عرض هذه الوقائع من غير استفزاز ولا تحريك نوازع العداء. ففي ذكره رحمه الله للمحن التي نزلت بآل البيت فنظر إليها وركبها في سياق منزلتهم العظيمة عند الله تعالى ومقامهم السامي في الدار الآخرة لقاء ما صبروا عليه من فتن الزمان ومحنه، وهذا في قوله: "ومادام الذين ظلموا أهل البيت يرون عقابهم

(١) " الملاحق " ملحق أميرداغ ص ٣٠١.

الآن في الآخرة عقابا أليما بما لا يدع حاجة إلى معاونتنا بالهجوم على الظلمة، وينال أهل البيت المظلومين – ثواب ما قاسوا من عذاب مؤقت – درجة عظيمة لا تبلغها عقولنا لسعتها ورفعتها، فالأولى إذن تهنئتهم بألوف التهاني من حيث نيلهم تلك الرحمة الواسعة وليس التألم لحالهم الآن. إذ مثلما أنهم حازوا ملايين المراتب والسعادات الباقية في الآخرة مقابل بضع سنين من المتاعب والآلآم، كذلك أصبح كل منهم سيدا وسلطانا معنويا وإماما في عالم الحقيقة بدلا من سلطنة دنيوية فانية في مدة حياتهم الدنيوية وحاكميتها المؤقتة وسياستها المضطربة، التي لا أهمية لها، وصاروا أئمة الأولياء والأقطاب بدلا من ولاة الولايات ... لذا لا ينسجم ومشربنا النظر إلى غدر الظالمين، ولا حتى التفكر فيه، حيث قد نال الظالمون عقابهم والمظلومون ثوابهم بما هو فوق طوق عقولنا، فالانشغال بمثل تلك المسائل يلحق الضرر بالوظيفة القرآنية التي كلفنا بها، ولا سيما والمصائب تنزل تترى على الدين في الوقت الحاضر."[1]

وفي عرضه لمذهب الشيعة الذي يخالفه النورسي لأنه من أهل السنة والجماعة، عندما يضطر إلى إيراد الوقائع التاريخية تجده لطيف العبارة ملتزما الاحتياط لئلا يصدر منه مايستفز الشيعة أو يحرك غضبهم. فقد بين رأيه في مذاهب الشيعة في "اللمعات"[2] وبعد مناقشة هادئة لهم بادر بالقول: "فيا أهل الحق الذين هم أهل السنة والجماعة! ويا أيها الشيعة الذين اتخذتم محبة أهل البيت مسلكا لكم! ارفعوا فورا هذا النزاع فيما بينكم، هذا النزاع الذي لا معنى له ولا حقيقة فيه، وهو باطل ومضر في الوقت نفسه. وإن لم تزيلوا هذا النزاع فإن الزندقة الحاكمة الآن حكما قويا تستغل أحدكما ضد الآخر وتستعمله أداة لإفناء

(١) " الملاحق " ملحق أميرداغ ص ٣٠٢.

(٢) ينظر من " اللمعات " ص ٣٢٣٨.

الأخر ومن بعد إفنائه تحطم تلك الأداة أيضا. فيلزمكم نبذ المسائل الجزئية التي تثير النزاع، لأنكم أهل التوحيد، بينكم مئات الروابط المقدسة الداعية إلى الأخوة والاتحاد."[1] فبهذا قدم النورسي المثال على كيفية التعامل مع التاريخ واتقاء ما قد يضر بالوحدة.

إن قطع الخلاف – الفقهي أو المذهبي – بالمرة بعيد المنال، وإنما الغاية المرجوة التي لا يجوز البقاء دونها هو تدبير هذا الخلاف وإجراؤه على النحو الذي يحفظ الوحدة ويمنع العداوة. وهذا هو الرهان العظيم أمام علماء الإسلام من جميع المذاهب: الوحدة والتعاون بين جميع أهل الإسلام مع بقاء حرية النظر والاجتهاد بشروطه، ومراعاة المذاهب الإسلامية المختلفة بعضها بعضا فيما لا يمكن الاتفاق فيه. وهذا ما يجعل الوحدة أمانة عظيمة وتكليفا ثقيلا، ولولا ذلك ما أنزل الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم الجماعة والوحدة تلك المنزلة العالية فكانت حقا فريضة شرعية، وكان الالتزام بها قمة العبادة. ولهذا فمن قواعد الوحدة الإسلامية التي كانت حاضرة عند النورسي التزام آداب الخلاف.

١٢ – تدبير الخلاف علم وصناعة لها قواعد وآداب وشروط:

إذا كانت الوحدة لا تعني أبدا منع الخلاف، فإن من قواعدها الحافظة لها اعتبار الخلاف علما يجب تعلمه، وصناعة يجب تنظيم أمرها وضبط قواعدها وشروطها، لأنه بخلاف ذلك سيكون الخلاف سببا للعدواة والشقاق. فالواجب التزام آداب الخلاف بين العلماء وأهل الفكر والثقافة أولا، ثم ترسيخه بين عامة المسلمين عن طريق التربية والتعليم، فيتعلم الخلاف وآدابه وشروطه كما تتعلم سائر فروع المعرفة ومناهجها وطرقها. وقد ذكر النورسي في مواضع متفرقة من

---

(١) " اللمعات " ص ٣٨.

رسائله كثيرا من آداب الخلاف وضوابطه، ومنها عدم التعيين والكف عن ذكر الأسماء، واتقاء تعيين الأشخاص في مقام الرد والتخطئة. فإذا تعين مثلا على عالم الرد والتصحيح بحسب ما ظهر له فليكن الرد على الأفكار من غير نسبتها على التعيين، وذلك لقطع طريق نزعات النفس عند المخالف، وليبقى الأمر في مجال الإنصاف. وهذا المسلك واضح في رسائل النور فكثيرا ما نجد النورسي يناقش الأفكار ويحللها من غير نسبتها إلى أحد. بل إن الكثير من الأفكار التي ناقشتها إنما هي أفكار متداولة في عصره عند بعض العلماء والمتصوفة والفلاسفة وغيرهم من أهل الفكر والثقافة. فكان يذكر الفكرة ويعرضها كما هي من غير نسبتها إلى أحد، ثم يكر عليها بالمناقشة والتحليل من غير تقبيح ولا تجريح.(1)

فهذا هو المشروع العظيم للوحدة الإسلامية الذي كان النورسي يتشوف إليه. لكنه رحمه الله لم تكتحل عينه برؤيته، فرحل عن الدنيا في شتاء الإسلام، بحسب تعبيره. ولكنه رحمه الله قد رسخ هذه الأصول والقواعد في طلبته، فكأنه يقول للمسلمين: "إن أحوال عصري وأهوال زماني حالت دون تحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة، ولكن غاية جهدي أنني أنزلت هذا المشروع في طلبة النور فهم نموذج مصغر للوحدة الاسلامية المنشودة"

١٣ - طلبة النور نموذج مصغر للوحدة :

إن كل ما سبق من الأركان والقواعد للوحدة الإسلامية قد رسخها النورسي في طلبة النور، فهم مثال واضح للعمل بالأخوة واتقاء كل معوقاتها، والعمل والمجاهدة المستمرة لتزكية النفس وتعهدها بالتربية الإيمانية، والتحلي بالتواضع والعمل بروح الجماعة ومراعاة الخلاف والتزام الشورى، والتعاون مع جميع أهل

---

(١) ينظر " أسس الوحدة الفكرية عند بديع الزمان النورسي " عبد الكريم عكيوي ص ٦٢٧٩.

الإسلام. فمن وصاياه لطلبته: "صونوا آراءكم من التشتت بإقامة الشورى الشرعية بينكم، اجعلوا دساتير رسالة الإخلاص نصب أعينكم دائما. وبخلاف هذا فإن اختلافا طفيفا في هذا الوقت يمكن أن يلحق أضرارا بليغة برسائل النور."[1] وكان رحمه الله يتتبع بدقة عمل طلبته وتنافسهم في الخدمة الإيمانية من خلال نسخ رسائل النور ونشرها وذلك حتى تزكو نفوسهم وترسخ في قلوبكم روح الإخلاص والتواضع والذوبان في الجماعة ونبذ الأنانية. فمرة رأى أحد طلبته يفتخر بتفوق غيره عليه في الخدمة فاغتنم الفرصة للتنويه بهذا الخلق العظيم فيه، وهو التفاني في حب التعاون والاجتماع، وأن المعتبر هو سير العمل وتمام الخدمة، وليس الشخص الذي حصلت منه. يقول رحمه الله: "إن الشعور الأخوي الخالص الذي أبداه أخونا "الحافظ علي" تجاه أحد إخواننا الذي سيكون منافسا له في الاستنساخ اليدوي (أي لرسائل النور) جدير بأن تطلعوا عليه. أذكره لكم وهو الآتي: جاءني "الحافظ علي" وقلت له إن خط الأخ "فلان" أجود من خطه وإنه أكثر منه عملا ونشاطا. وإذا بي أجد أن الحافظ علي يفتخر بإخلاص ومن الصميم بتفوق الآخر عليه، بل التذ بذلك وانشرح، وذلك لأن الآخر قد استطاع جلب محبة أستاذه وثنائه عليه. راقبت قلبه وأمعنت فيه بدقة، وعلمت أنه ليس تصنعا قط، بل شعرت أنه شعور خالص، فشكرت الله تعالى على أن في إخواننا من يحمل هذا الشعور السامي، وسينجز هذا الشعور بإذن الله كثيرا جدا من الخدمات. والحمد لله فإن ذلك الشعور الأخوي قد سرى تدريجيا في صفوف إخواننا في هذا المنطقة."[2]

(١) " الملاحق " ملحق قسطموني ص ٢١٢.
(٢) " الملاحق " ملحق بارلا ص ٥٩ ٦٠.

وفي التعاون مع سائر جماعات المسلمين وفق ضوابط الوحدة وشروطها يقول: "إننا نتحد مع الجماعات المتشكلة بدافع محبة الدين وخدمته، وذلك على وفق شرطين اثنين: الشرط الأول: المحافظة على النظام العام للبلاد والحرية الشرعية. الشرط الثاني انتهاج نهج المحبة، وعدم محاولة إظهار مزايا لها بانتقاص الجمعيات الأخرى، بل الأولى مراجعة مفتي الأمة وجماعة العلماء فيما إذا ظهر خطأ."[1] بل يبدي رحمه الله استعداده للتعاون مع غير المسلمين إذا كان فيه مصلحة شرعية فيقول: "نحن نقبل يد المعاونة، ولا نقبل يد المعاداة، فهما شيئان متغايران، لأن كل صفة من صفات الكافر ليست بكافرة أو ناشئة من كفره، لذا لا مشاحة في مصافحة يد الكافر الذي مدها لمعاونة الإسلام، وذلك لدفع عدو الإسلام المعتدى العريق، بل قبولها إنما هو خدمة للإسلام"[2]

ولما تلقى رسالة من أحد أعضاء جماعة الإخوان المسلمين بحلب كتب يقول: "إخوتي الأعزاء الأوفياء ... بالنسبة للتهنئة التي كتبها إلي من حلب أحد أعضاء الإخوان المسلمين، فإننا نهنئه بالمقابل ونهنئ الإخوان المسلمين من صميم قلوبنا وأرواحنا ونقول لهم: بارك الله فيكم ألف مرة. إن طلاب النور – الذين هم بمثابة حلف الاتحاد المحمدي السابق – يمثلون الاتحاد الإسلامي في الأناضول.أما في البلاد العربية فالإخوان المسلمون هم الذين يمثلون الاتحاد الإسلامي.. إن طلاب النور والإخوان المسلمين – من بين صفوف عديدة – يشكلان صفين مترافقين ومتوافقين ضمن حزب القرآن، وضمن دائرة الاتحاد الإسلامي المقدسة، وقد سعدنا باهتمامهم الجدي برسائل النور وبعزمهم على ترجمة بعضها إلى اللغة العربية، ونحن نحمل لهم شعور العرفان بالجميل. لذا

---

(١) " سيرة ذاتية" ص ٩٩.

(٢) " صيقل الإسلام " ص ٥٥٢.

فأرسلوا جوابا لمن أرسل إلي بطاقة التهنئة باسم جمعية الإخوان المسلمين، وأرجو منهم أن يقوموا برعاية طلاب النور ورسائل النور هناك."[1]

وفي العمل مع المعترضين الذين يجرحون ويتهمون، كان المنهج المتبع عنده رحمه الله هو عدم الرد بالمثل وإنما الكف عن المواجهة والتعنيف وإبداء روح المصالحة ومراعاة آداب الخلاف، وهذا هو التوجيه الذي وجهه النورسي لطلبته لما قال: "على طلبة النور حسب الأسس المذكورة ألاّ يواجهوا المعارضين بالحدة والتهور، ولا يقابلوهم بالمثل، بل عليهم أن يكتفوا بالدفاع عن أنفسهم فحسب، مع إظهار روح المصالحة، والإجابة بوضوح عن نقاط الاعتراض، حيث إن الأنانية في عصرنا هذا قد تطاولت واشرأبت بعنقها حتى أصبح كل شخص لا يريد أن يذيب أنانيته – التي هي كقطعة ثلج بطول قامته– ولا يرغب في تغييرها بل يسوغ لنفسه ويراها معذورة دائما. وها هنا ينشأ النزاع والخصومة ويكون موضع استفادة أهل الباطل والضلال على حساب أصحاب الحق وأهله."[2]

فعلى هذا المسلك ربى النورسي طلبته فقدم من خلالهم الأنموذج الذي يتصوره للوحدة الإسلامية، وعلى ذا المسلك عهدنا طلبة النور منذ أن عرفناهم فأحببنا فيهم جميل أخلاقهم وحسن خصالهم وسداد منهجهم، فنسأل الله لهم التوفيق.

- خلاصة

هذه هي أركان الوحدة الإسلامية وقواعدها كما يتصورها النورسي، فهي تبدأ من قلب كل مسلم ثم ترتقي حتى تصل جميع أهل الإسلام.

---

(١) " الملاحق " ملحق أميرداغ ص ٣٣٧.

(٢) " الملاحق " ملحق قسطموني ص ١٩٩ ٢٠٠.

فهي أولا تعهد للنفس بالتربية على الإيمان، والمجاهدة والتزكية من الأدران لترسيخ أخلاق التواضع والإخلاص والمحبة والإنصاف في القلوب، ثم ترسيخ أصول الشريعة وقواعدها التي تجعل الوحدة فريضة شرعية وعبادة عظيمة، ثم تعليم الفكر وتحريك العقل بحقائق الحياة التي تعد الوحدة والاجتماع أهمها، ثم ضبط الاجتهاد وتنظيمه، وتدبير الشورى في الفكر والعلم وفي الحكم والسياسة، ثم ترسيخ آداب الخلاف وقواعده وشروطه.

وفي الختام نصغ إلى لمعتين من جماليات النورسي في قوله: "إن قطرات المطر ولمعات النور كلما بقيت متفرقة وظلت متناثرة، جفت بسرعة وانطفأت حالا. فينادينا رب العزة سبحانه قائلا: ﴿وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران:١٠٣) ﴿لاَ تَقْنَطُوا﴾ (الزمر:٥٣) ليحول بيننا وبين الانطفاء والزوال.."[1] ويقول رحمه الله: "إن كنت تريد أن تعادي أحدا، فعاد ما في قلبك من العداوة، واجتهد في إطفاء نارها واستئصال شأفتها. وحاول أن تعادي من هو أعدى عدوك وأشد ضررا عليك، تلك هي نفسك التي بين جنبيك، فقاوم هواها، واسع إلى إصلاحها، ولا تعاد المؤمنين لأجلها. وإن كنت تريد العداء أيضا فعاد الكفار والزنادقة، فهم كثيرون. واعلم أن صفة المحبة محبوبة بذاتها جديرة بالمحبة، كما أن خصلة العداوة تستحق العداء قبل أي شيء آخر. وإن أردت أن تغلب خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فبه تخمد نار الخصومة. أما إذا قابلت إساءته بمثلها فالخصومة تزداد، حتى لو أصبح مغلوباً- ظاهراً، فقلبه يمتلئ غيظاً عليك، فالعداء يدوم والشحناء تستمر. بينما مقابلته بالاحسان تسوقه الى الندم، وقد يكون صديقاً حميماً لك، إذ إن من شأن المؤمن أن يكون كريماً، فإن أكرمته فقد ملكته وجعلته أخاً لك، حتى لو كان لئيماً ظاهراً إلا أنه كريم من حيث الايمان."[2]

---

(١) " صيقل الإسلام " ص ٣٩٢.

(٢) " المكتوبات " ص ٣٤٣

اللهم اجمع كلمة المسلمين على الحق والدين، ووحد صفوفهم، وألف بين قلوبهم. وارحم اللهم الأستاذ النورسي، وصل اللهم وسلم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٧
الموطأ في رسائل النور[*]

الأستاذ الفاضل إحسان قاسم الصالحي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فأشكر لكم جميل عنايتكم ووافر رعايتكم وجميل حدبكم. وأما عما تفضلتم بطرحه من إشارة النورسي إلى فائدة الموطأ وتقديمه مثالا لما يجب أن تكون عليه كتب الفقه الإسلامي، فإنني تدبرت كلامه رحمه الله فخرجت بالفائدة الآتية:

في سياق استعراض النورسي لتاريخ الفقه الإسلامي وتأمله في كتب الفقه، خاصة في العصور الأخيرة لاحظ من مظاهر القصور فيها :

- العناية الكبيرة بمسائل الخلاف وتشعب قضاياه، وقلة العناية بالأصول التي هي محل اتفاق حتى يخيل للقارئ أن الشريعة نزاع وخلاف.

- غلبة منهج التقرير الفقهي في غفلة عن الأدلة والشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية، فتجد الكتاب عبارة عن أحكام فقهية مجردة. والحال أن المطلوب كما قرر النورسي أن يكون القرآن مهيمنا في هذه الكتب إلى درجة أن يظهر أن روح القرآن الكريم وقدسية السنة النبوية هي التي تسري في أحكام الفقه وفروعه. وبتعبير النورسي أن "يستشف منها فيض القرآن الكريم"[1].

(*) هذا المقال سبب كتابته إشارة علمية مفيدة من الأستاذ إحسان قاسم الصالحي بارك الله فيه – وهو العارف الخبير برسائل النور – خلاصتها أن النورسي له اهتمام خاص بالموطأ وكان يذكره في سياق كتب الفقه التي ينبغي الاعتماد عليها.

(١) صيقل الإسلام ، السنوحات، هيمنة القرآن الكريم.

- فقر هذه الكتب من الناحية الوجدانية الروحية بسبب عرضها لأحكام الفقه مجردة تصف الأعمال الظاهرة في غفلة عن المقاصد والحكم، ودون تحري موعظة القلوب، فلا يشعر القارئ بالانجذاب الوجداني نحو الشريعة وأحكامها.

- وجود العصبية المذهبية عن طريق التفاني في نصرة المذهب على النحو الذي يفهم منه الحط من المخالف.

وبناء على هذه الملاحظات قدم رحمه الله الموطأ أنموذجا من بين كتب الأئمة المجتهدين التي ينبغي الاقتداء بها في تأليف الفقه، وكأنه ينصح طالب العلم الشرعي بقراءته وتشرب منهجه. ووجه هذا الاختيار – فيما ظهر لي – هو :

١ – **إن الموطأ أقدم كتاب في الفقه والحديث،** لأن مؤلفه من علماء أتباع التابعين وعهدهم قريب من عهد الصحابة، ولم يتشعب بعد الخلاف كثيرا، وهذا ما أعطاه صفاء العلم وقوة الحجة لقربه من زمن الحجية وأخذه علم أهل المدينة الذي هو وراثة لعلم الصحابة، خاصة زمن الخليفة عمر بن الخطاب لما أبقى كثيرا من الصحابة بالمدينة وكثر الاجتهاد، ولهذا كان الموطأ في حقيقته جامعا لعلم أهل المدينة القائم على السنة وعلى علم الصحابة واجتهادات عمر بن الخطاب ومن كان معه بالمدينة من الصحابة. فهو تعبير عن إجماع أهل المدينة التي هي من أهم أمصار الإسلام وهي دار السنة ومستقر الرسول صلى الله عليه سلم. ولهذا اعتبر كثير من علماء الإسلام مذهب مالك في الفقه إنما هو في الحقيقة مذهب أهل المدينة وهو وراثة عن النبوة في زمن مالك لقرب العهد.

٢ – **الموطأ جامع بين الفقه والحديث،** فهو مصدر فقهي ومصدر حديثي. والحديث فيه هو الأصل، بحيث تبرز فيه حجية السنة النبوية. كما تظهر فيه أيضا ما سماه النورسي هيمنة القرآن الكريم. فقبل أن يقرر الإمام مالك الحكم الفقهي يذكر الآية من القرآن المتعلقة بالموضوع إن وجدت، ثم يخرج الأحاديث في

الموضوع، ثم يتبعها بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، وينقل عمل أهل المدينة في المسألة. وإن كان في المسألة رأي ذكره في الأخير موجزا. وعلى هذا المنهج تظهر قوة الاحتجاج من خلال الارتباط بالأدلة من القرآن والسنة مما يمنح الأحكام صفة القدسية التي أشار إليها النورسي والتي تفتقدها كثير من كتب الفقه.

٣ – **إن هيمنة القرآن الكريم ظاهرة في الموطأ** إلى درجة أن الإمام مالك قد يتوقف في بعض الأحاديث إذا ظهر له أنها لا توافق ما ورد في القرآن الكريم. فمثلا في مسألة حكم لحم الخيل ورد حديث صحيح في جواز أكله. لكن الإمام مالكا توقف فيه لما ظهر له أنه يخالف ظاهر القرآن الكريم وهذا ما يبنه بقوله كما ورد في الموطأ:

"بَاب مَا يُكْرَهُ مِنْ أَكْلِ الدَّوَابِّ :

حَدَّثَنِي يَحْيَى عَنْ مَالِك أَنَّ أَحْسَنَ مَا سَمِعَ فِي الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ أَنَّهَا لا تُؤْكَلُ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْأَنْعَامِ ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ قَالَ مَالِك و سَمِعْت أَنَّ الْبَائِسَ هُوَ الْفَقِيرُ وَأَنَّ الْمُعْتَرَّ هُوَ الزَّائِرُ. قَالَ مَالِك فَذَكَرَ اللهُ الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِلرُّكُوبِ وَالزِّينَةِ وَذَكَرَ الْأَنْعَامَ لِلرُّكُوبِ وَالْأَكْلِ. قَالَ مَالِك وَالْقَانِعُ هُوَ الْفَقِيرُ أَيْضًا."

ومعنى هذا أن الله ذكر في القرآن الكريم الخيل مع البغال والحمير في سياق الامتنان بنعمة الركوب والزينة. وذكر الأنعام في سياق الامتنان بنعمة الركوب والأكل، فلما غاير بين الموضعين دل على اختلاف الحكم وهو أن الخيل للركوب دون الأكل. فانظر كيف جعل رحمه الله معاني القرآن ومضامينه مهيمنة

حاضرة في ذهنه وهو ينظر في القضايا الفقهية، وكيف جعل معاني القرآن أنوارا يستضيء بها فلا تغيب عنه وهو يقلب نظره في الأحاديث النبوية ليستنبط منها الأحكام. ولهذا عرف عن الإمام مالك منهج التوقف في الحديث ولو صح سنده إذا عارض ظاهر القرآن، فيقدم القرآن على الحديث.

٤ - **إن مالكا لم يخل كتابه من النفحات الروحية والآداب الشرعية والأخلاق الإسلامية**، وإنما مزج فيه الفقه مع أصوله وأدلته من القرآن الكريم والسنة النبوية وفتاوى الصحابة، مع مباحث أخرى في الزهد والرقائق والآداب ونحوها وذلك ما نجده في ما عقده من الكتب في آخر الموطأ مثل : كتاب الجامع، وكتاب القدر، وكتاب حسن الخلق،كتاب الشعر، وكتاب السلام، وكتاب الكلام، وكتاب العلم، وكتاب الصدقة، وكتاب جهنم.

٥ - **إن الموطأ ومؤلفه نموذج على ما ينبغي أن يتحلى به أهل العلم والفقه من آداب الخلاف** ومراعاة المخالف واحترام تنوع الأنظار والأفكار وهذا ما ذكره النورسي وتأسف كثيرا على فقده في بعض محطات تاريخ الإسلام. ومن يقرأ الموطأ ويتمعن منهجه يخرج بفائدة في منهج الفقه والخلاف العالي وهو أن الفقه إنما هو اتساع النظر وسعة المدارك من أجل استيعاب أنظار علماء الإسلام المختلفة والإفادة من تنوع فهومهم، واعتبار ذلك ثراء وغنى. ويتجلى هذا في الموطأ في قصد الإمام مالك إلى نقل عمل أهل المدينة وهو ما وجد الناس عليه من العمل بالأحكام الشرعية مما ورثوه عن زمن النبوة والصحابة. وفي نقله هذا العمل كان يستعمل عبارة دقيقة فكان يقول: "العمل عندنا" و" الذي عليه العمل عندنا" و" الذي أدركت عليه أهل العلم عندنا" فآثر رحمه الله هذه العبارة "عندنا" ليفيد أن الأمر قد يكون على خلاف ذلك عند غيرنا أي عند غير أهل المدينة. وهذا من الاعتداد بالمخالف واعتباره، ومنحه الحق في النظر. ومما يدل أيضا

على حضور هذا المنهج عند الإمام مالك أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، لما اطلع على الموطأ أشار على مالك بأن يجعله المرجع الوحيد في الفقه وأن يبعث به إلى جميع الولاة على الأمصار ويأمرهم أمرا رسميا أن يأخذوا بما فيه من غير أن يتعدوه إلى غيره، فرفض الإمام مالك قائلا له "دع الناس على ما هم عليه في العلم، فإن الناس في أمصار الإسلام بلغهم من العلم ما لم يبلغنا" ومعنى ذلك أن كمال العلم وجماع الصواب لا يمكن أن يجتمع في جهة واحدة ولا أن يحيط به عالم واحد، وإنما علم الشريعة مفرق عند عامة العلماء فيوجد عند بعضهم ما لا يوجد عند البعض الآخر، فلا مناص من اعتبار ذلك كله واعتداد بعضهم ببعض ومراعاة بعضهم بعضا.

فهذه بعض مميزات الموطأ من الناحية العلمية والمنهجية والتي يظهر أن النورسي رحمه الله اعتبرها فقدمه مثالا لكتب الأئمة المجتهدين التي ينبغي العناية بها من أجل تشرب منهجها واستيعاب مسلكها في التصنيف وفي الاستدلال، وحضور هيمنة القرآن وحجية السنة، وسعة النظر ومراعاة الخلاف.

٨

اعتبار المآل واستشراف المستقبل عند بديع الزمان النورسى (*)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وأزواجه وذريته الطيبين وأهل بيته الطاهرين وأصحابه الغر الميامين، والتابعين لهم ومن تبعهم بإيمان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الغرض من هذا العرض الكشف عن منهج في المعرفة الإسلامية، أصله في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، سار عليه المحققون من علماء الإسلام واعتمده أهل التربية والسلوك، واهتدى به أهل السياسة وتدبير الشأن العام. وقصدنا خاصة أن نبرز معالم هذا المنهج عند أحد أعلام الفكر الإسلامى المعاصر، الداعية المربى الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسى الكردي المتوفى عام ١٩٦٠م، والذي كان له ولدعوته بالغ الأثر وجميل الفائدة على بلده تركيا ثم سائر بلاد الإسلام التى امتد إليها إشعاعرسائله ودعوة طلبته من بعده. إن من يتأمل حياة هذا الرجل لابد أن يأخذ العجب بقلبهوعقله، عندما يرى ما كان عليه من الإخلاص لدعوته والتجرد الكامل لنشر هداية القرآن الكريم وإنقاذ الإيمان في النفوس وتجديده في القلوب بعد أن كاد يندثر بسبب رياحعاتية هبت على العالم الإسلامى في عصره تبتغى نشر الإلحاد وتزيين التحلل من الدين والفضيلة. وقد ذاق رحمه الله من أجل ذلك أصناف العذاب من السجن والنفي والبعد عن الأهل والأحبة.

(*) ألقي هذا البحث في ندوة "فقه المقاصد والحكم في فكر بديع الزمان النورسي" بكلية الشريعة جامعة القرويين بأكادير بالمغرب بتاريخ ١٣ -١٤ مارس ٢٠٠٨.

وقد كان له رحمه الله منهج واضح في العلم والعمل استخلصه من خبرته في الحياة وتقلبه بين الأفكار المتداولة في عصره، ومن مجاهدته في مواجهة قضايا الحياة وخطوب الزمان، ومن إدمانه على تدبر القرآن الكريم وطلب الأنس والسلوان منه دون سواه. وهذا المنهج واضح من خلال "رسائل النور" التى أودعها خلاصة تجربته في تدبر القرآن الكريم وتنزيل هديه على أحوال الحياة المتجددة.

ومن معالم مسلكه في الفكر والدعوة، التى تبدو للناظر الباحث في رسائل النور، منهج التدبر في حقائق الحياة والتأمل في دقائق الأمور لمعرفة وجه الحكمة في ذلك كله. إن الكون كله في النظرة النورسية من أصغر أجزائه إلى أكبرها، من الذرات إلى المجرات – بأجسامه ومعانيه، بأشباحه وأرواحه،كل ذلك – بمنزلة ألسنة ناطقة بحسب حالها. فهى ليست مجرد أشكال هندسية، وأجسام متحركة، وأرقام محدودة، إنما حقيقتها أكبر من ذلك وأعمق.

وفي سعيه رحمه اللّه لمعرفة وجه الحكمة، وعمله على ربط كل مسألة بحكمتها، كان ينظر في القضية حتى إذا استوعبها ونفذ إلى حقيقتها، عبر منها إلى امتدادها عبر الزمان وتصورها في سيرها في مستقبل الأيام، مقارنا بين أحوال الحاضر والمستقبل، بين الحال والمآل.

وهذا المنهج حاضر عند علماء الإسلام، خاصة عند علماء أصول الفقه في الأصل الذي سموه "اعتبار المآل". وقبل استخلاص معالمه عند النورسى أرى من الواجب أن أقدم له بخلاصة موجزة جامعة لقضاياه عند علماء الأصول.

– اعتبار المآل عند علماء أصول الفقه

إن "اعتبار المآل" من أمهات القواعد المعتمدة عند النظر في النصوص الشرعية بقصد العمل بها وتنزيها على محالها. وقد وضع الأئمة هذا الأصل بعد

تدبر نصوص الوحى وتتبع موارد الأحكام، فتبين أن الشريعة وضعت لحكم وغايات في العاجلة وفي الآخرة، فاهتمت بالوسائل الموصلة إلى هذه الحكم بل جعلت لهذه الغايات أثرا في حكم الوسائل المفضية إليها. فالشارع الحكيم يعطى للعمل والوسيلة حكم الوجوب القطعى إذا كانت تؤول إلى مصلحة عظيمة، وينزل عن ذلك كلما نزلت المصلحة عن هذه المرتبة، ويعطيها حكم المنع قطعا إذا كانت تؤول إلى مفسدة عظيمة. ولهذا كانت مآلات الأفعال وما يترتب عنها في العاجل والآجل محل نظر وموضع عناية عند المجتهدين، لأنها مما يتوقف عليه حكم الأفعال التى يأتيها المكلفون، ولهذا قرر علماء الأصول ضرورة اعتبار ما سيؤول إليه الحكم المأخوذ من النص الشرعى، فقالوا: إن مآلات الأفعال معتبرة شرعا. وفي معنى ذلك يقول الشاطبى: "النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا... وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل."[1] فالمجتهد حين يجتهد ويفتى عليه أن يقدر مآلات الأفعال التى هى محل حكمه وإفتائه، وأن يقدر عواقب حكمه وفتواه، وألا يعتبر أن مهمته تنحصر في إعطاء الحكم الشرعى. بل مهمته أن يحكم في الفعل وهو يستحضر مآله أو مآلاته، وأن يصدر الحكم وهو ناظر إلى أثر أو آثاره." [2]

إن المجتهد أو المفتى عندما ينظر في النازلة ويلتمس لها الأدلة من الشريعة، لا يقتصر على بيان الدليل أو النص الوارد في المسألة، وإنما عليه أن يقدر ما سيؤول إليه العمل بمقتضى ذلك الدليل أو ذلك النص، من خلال نظره في ظروف الزمان والمكان وقرائن الحال وكل ما يحيط بالنازلة وبصاحب النازلة. ولهذا فإن

(١) " الموافقات " ' ص ١١٠ . (تحقيق الخضر حسين حسنين مخلوف. دار إحياء الكتب العربية)

(٢) " نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي " لأحمد الريسوني ص ٣٥٣ . (ط١. ١٩٩١ م. المعهد العالمي للفكر الإسلامي)

اعتبار المآل يأتي عند العمل بالنصوص وتنزيلها على محالها، فهو من مناهج تنزيل نصوص الوحى على الوقائع والحوادث. وهذا يميزه عن مجال آخر قبل هذا وهو مجال النظر في نصوص الوحى لفهم مراد الشارع منها وبيان الدلالات الصحيحة لها من غير وجود نازلة ومن غير بيان محل العمل بهذه النصوص.

وهذا ما سماه الشاطبى الاقتضاء التبعى لما قال: "اقتضاء الأدلة للأحكام بالنسبة إلى محالها على وجهين: أحدهما الاقتضاء الأصلى قبل طرء العوارض وهو الواقع على المحل مجردا عن التوابع والإضافات، كالحكم بإباحة الصيد والبيع والإجارة وسن النكاح... والثاني: الاقتضاء التبعى وهو الواقع على المحل مع اعتبار التوابع والإضافات كالحكم بإباحة النكاح لمن لا أرب له في النساء، ووجوبه على من خشى العنت... وبالجملة، كل ما اختلف حكمه الأصلى لاقتران أمر خارجى"[1] فقد جعل الشاطبى هنا من أسباب تغير الحكم الأصلى اعتبار مآل الإبقاء على الحكم الأصلى، وذكر من أمثلة ذلك قبل طرء العوارض، سن النكاح، وهو ما يستفاد من نصوص الوحى، لكن لما طرأت العوارض ودخل هذا الفعل مجال العمل وتمحضت مآلاته في بعض الأحوال وعند بعض الأشخاص، تغير الحكم الأصلى، فصار النكاح واجبا على من خشى العنت، ومباحا لمن لا أرب له في النساء. وهذا مؤيد لما سبق أن اعتبار المآل يكون عند تنزيل نصوص الوحى على محالها.

ويعد المباح أوسع مجال لاعتبار المآل بالنسبة للمكلف، فالواجب والمندوب مأمور بهما لمآلها إلى المصلحة، والحرام والمكروه وقع النهى عنهما لمآلهما إلى المفسدة. فالفعل في هذه الأحكام الأربعة ظاهر المصلحة أو ظاهر المفسدة، وبقي أعمال ليست في ذاتها ظاهرة المصلحة ولا ظاهرة المفسدة، وإنما

---

(١) " الموافقات " ٣ ص ٤٧ .

تحتمل الأمرين ويتجاذبها الجانبان، وقد تؤول إلى مصلحة وقد تؤول إلى المفسدة، وهذا العمل الذي يصدق عليه هذا الوصف هو المباح، وقد ترك الشارع أمر تقدير مآله إلى المكلف لأنه ليس منضبطا. وهذا سبب اختلاف الأئمة في المباح إلى فريقين، الأول يقول بأن المباح مطلوب الترك والثاني يقول إنه مطلوب الفعل. وهذا بناء على اعتبار مآل المباح، فمن نظر إلى ما يمكن أن يؤول إليه المباح من المفسدة قال بتركه، ومن رأى ما يحتمل أن يؤول إليه من المصلحة قال بإتيانه، وكلاهما صحيح لأن المباح يتجاذبه الأمران، لكن الخطأ في قصر المباح على جانب دون الآخر، ولهذا رد الشاطبى المذهبين معا، لأن المباح لا يبقى على أصل واحد، وإنما تختلف مآلاته بحسب الملابسات والمؤثرات، فقد تدخل عليه مؤثرات تصيره مذموما، وقد تدخله مؤثرات تدخله في جانب طلب الفعل. ولهذا قال الشاطبى: "إن المباح يصير غير مباح بالمقاصد والأمور الخارجة"[1] فقد يكون واجبا إذا كان خادما لأصل ضروري لأنه يؤول إلى المصلحة، فالتمتع بما أحل اللّه من المأكل والمشرب والملبس واجب في حدود ما يحفظ الحياة، فإذا تجاوز ذلك إلى حد المبالغة والإسراف كان مكروها أو حراما. وعلى هذا قسم الشاطبى المباح إلى أربعة أقسام هى: ١) مباح بالجزء مندوب بالكل كالتمتع بالطيبات فيما زاد عن الضرورة فهو بحسب الجزئية مباح وبحسب الكل مندوب -٢) مباح بالجزء واجب بالكل كالأكل والشرب والبيع والشراء وسائر الحرف والمهن والصنائع، فهى من ناحية الجزء مباحة، واجبة بحسب الكل لأن تركها جملة يؤول إلى المفسدة -٣) مباح بالجزء مكروه بالكل مثل التنزه وسماع الغناء المباح وسائر أنواع اللّهو واللعب المباح، فإذا فعل يوما أو في حالة ما فلا حرج وان فعل دائما كان مكروها لأنه يؤول إلى الغفلة عن

---

(١) نفسه ١ ص ١٢٨ (تحقيق عبدالله دراز. دار المعرفة)

الواجبات وترك الجد -٤) مباح بالجزء محرم بالكل مثل الإدمان المفرط على اللّهو واللعب حتى يصير حرفة لأنه يؤول إلى أن يكون عمره كله لعبا ولهوا.[1] وظاهر أن هذه الأقسام كلها إنما هى باعتبار ما يؤول إليه الفعل المباح في أصله قبل طرء العوارض والملابسات، لأن المباح هنا يكون وسيلة، والوسيلة لها حكم الغاية التى تؤول اليها، ولهذا قالوا إن ما يفضى إلى الحرام حرام، وما يفضى إلى المكروه مكروه وما يتوقف عليه الواجب أو المندوب فهو واجب أو مندوب.[2] فالبيع مثلا في أصله مباح، لكنه إذا تعلق بأمر اضطر إليه المسلمون صار واجبا في حق البائع، والنكاح أيضا إذا كان المرء لا ينفك عن الزنا إلا به وكان قادرا عليه فهو واجب عليه، وان كان لا يخاف العنت وكان سيضر بالمرأة لعاهة أو عدم نفقة كان حراما، ولهذا قالوا إن النكاح تتجاذبه الأحكام الأربعة.

ومن أمثلة اعتبار المآل في المباح عند الفقهاء قول فريق منهم بكراهة الزواج من الكتابية مع أن الآية صريحة في إباحته حيث قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (المائدة:٥). وسبب ذلك أن هذا المباح قد يؤول في بعض الحالات وبعض البلدان وبعض العصور إلى مفسدة مثل فتنة الأزواج في دينهم، والإعراض عن زواج المسلمات. ويصدق هذا على عصرنا أكثر من غيره، فقد أصبح الزواج من الكتابيات يؤول في الغالب إلى مفاسد ومحرمات، منها صرف الزوج المسلم عن دينه، وعلى نشأة الأبناء بلا دين، وهذا ثابت بالمشاهدة والمعاينة.

---

(١) ينظر : " الموافقات " ١ ص ٨٥ . " نظرية المقاصد عند الإما الشاطبي " ص ١٦٥١٦٦ .

(٢) ينظر: " نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء " د . محمد الروكي. ص ١٤٥ – ١٤٩. (منشورات كلية الآداب بالرباط)

– اعتبار المآل عند النورسى

إذا كان اعتبار المآل قد اصطبغ بصبغة أصول الفقه فظهر كأنه منهج مقصور على النظر في خطاب الشارع بقصد تنزيله على محله، فإن النورسى منحه صفة العموم والشمول فجعله منهجا في الحياة كلها، وظهر عنده خاصة في جانب التربية وترسيخ الإيمان والسلوك، بالإضافة إلى فروع الشريعة من العبادات والمعاملات.

– اعتبار المآل في فقه الخطاب الشرعى وتنزيله على محله

النورسى ممن يرى أن الأفعال التى تنزل في درجتها عن الوجوب إلى الندب، وخاصة إلى الإباحة، لابد فيها من اعتبار الآثار التى سيؤول إليه العمل بها ولا يقتصر على ما يترتب فيالحال. وهذا يختلف باختلاف مراتب المكلفين وأحوالهم وما يحتف بهم من الظروف. وهذه القاعدة لم يفصح عنها النورسى صراحة في شكلها النظري، وإنما تستنبط من تصرفاته وما اختاره في مسلكه في العلم والدعوة، والسلوك والتربية. وأظهر مثال على ذلك ما اختاره من حياة العفة والكف عن الزواج مع تنصيصه على سنيته، ثم منع تعميم هذا الحكم على غيره. ووجه ذلك أنه رحمه اللّه وضع لنفسه هدفا عظيما ومقصدا ساميا جمعه في إنقاذ الإيمان وإظهار حقائق القرآن. ثم رأى أن بلوغ هذه الغاية عسير لأن دونه حواجز كثيرة ومعوقات كثيفة. فكيف يخلص إلى غاية عظيمة هى قوام أمة كاملة، وخصومها قد جمعوا العدد والعدة وأحكموا القبضة على البلاد والعباد، وجردوا حملات ووقفوا أموالا لتزيين الباطل ونشر الإلحاد، ونصبوا المشانق لمن خالف سبيلهم؟ وكيف السبيل إلى ذلك والأمة في ركود فكري وسياسى؟ فهذه هى الظروف التي حفت بالنورسي وهو يضع غايات في حياته. فبعد طول نظر وتأمل

وتفكير رأى أن هذه الغاية لا تنال إلا بالتضحية والصبر والمصابرة وركوب المعاناة. وفي إعداد نفسه لهذه المعاناة رصد كل ما يمكن أن يكون سببا لانكسار المرء أمام معاناة الحياة أو سببا لغياب الإخلاص عنه، فظهر له أن التعلق بالدنيا ومحبتها والتنعم بأذواقها مما يسجن النفس ويضعفها عن المقاومة والمغالبة وينال من صفاء الإخلاص، ولهذا حمل نفسه على التجرد من نعيم الدنيا فاختار طريق العفة في أقوى درجاتها فلم يقبل حتى الهدية. ثم رأى أيضا أن محبة الأهل والأولاد والحدب الأبوي عليهم مما يحمل على ذلك فوضع لنفسه حكم الكف عن الزواج. ومما يدل على هذا أن هذه المسألة كانت حاضرة عنده دائما، فكان كلما وجد نفسه مسجونا أو منفيا يحمد اللّه على صحة مسلكه، لأنه ليس له من الدنيا ما يتعلق به ليداري ويداهن من أجل بقائه.

وفي وجه امتناعه عن الزواج يقول: "في الوقت الذي يلزم لصد هجوم زندقة رهيبة تُغير منذ أربعين سنة، فدائيون يضحّون بكل ما لديهم، قررت أن أضحى لحقيقة القرآن الكريم ... فلأجل أن أتمكن من القيام بخدمة القرآن على وجهها الصحيح بإخلاص حقيقى، ما كان لي بد من ترك زواج الدنيا الوقتى – مع علمى بأنه سنة نبوية – بل لو وُهب لي عشر من الحور العين في هذه الدنيا، لوجدت نفسى مضطرة إلى التخلى عنهن جميعاً، لأجل تلك الحقيقة، حقيقة القرآن. لأن هذه المنظمات الملحدة الرهيبة تشن هجمات عنيفة، وتدبر مكايد خبيثة، فلابد لصدها من منتهى التضحية وغاية الفداء، وجعل جميع الأعمال في سبيل نشر الدين خالصة لوجه اللّه وحده، من دون أن تكون وسيلة لشيء مهما كان ... لذا تركت عادة الزواج الذي أعلم أنها سنة نبوية لئلا ألج في محرمات كثيرة، ولكى أتمكن من القيام بكثير من الواجبات وأداء الفرائض، إذ لا يمكن أن تقترف

محرمات كثيرة لأجل أداء سنة واحدة."[1] ويعلم النورسى أن هذا المسلك قد يلقى من يعارضه بدعوى مخالفته للشريعة، ولهذا أورد من الأدلة ما يجعل هذا المسلك من روح الشريعة. من ذلك أن تاريخ المسلمين يشهد على عمل كثير من علما الإسلام بمنهج اعتبار المآل في الأعمال خاصة في قسم المباح، فكفوا عن المباحات م الدنيا وكفوا عن الزواج.[2] وإن من كان في مثل مقامه خاصة فيريد أن يكون دليلا على الله في مثل زمانه، لا يعتبر خارجا عن الشريعة إذا كان قصد مثل قصده. يقول رجه الله: "فلابد أن الذي يعمل لأجل سعادة باقية، لكثير جداً من المنكوبين، ويحول بينهم وبين السقوط في هاوية الضلالة، ويسعى لتقوية إيمانهم، خدمةً للقرآن والإيمان خدمة حقيقية، ويثبت تجاه هجمات الإلحاد المغير من الخارج والظاهر في الداخل، أقول لابد أن الذي يقوم بهذا العمل العام الكلى – وليس عملا خاصاً لنفسه– تاركاً دنياه الآفلة، لا يخالف السنة النبوية بل يعمل طبقا لحقيقة السنة النبوية."[3] وليس هذا عنده مسلكا عاما إنما هو استثناء من الحكم الأصلى بحسب مقام الشخص وأحواله. ولهذا ينبه طلبته خاصة لهذه القاعدة في قوله: "لا نقول لطلاب النور: تخلوا عن الزواج، دعوه للآخرين ولا ينبغى أن يقال لهم هذا الكلام. ولكن الطلاب أنفسهم على مراتب وطبقات. فمنهم من يلزم عليه ألا يربط نفسه بحاجات الدنيا، قدر المستطاع، في هذا الوقت، وفي فترة من عمره، بلوغاً إلى التضحية العظمى والثبات الأعظم والإخلاص الأتم. وإذا ما وجد الزوجة التى تعينه على خدمة القرآن والإيمان، فبها ونعمت، إذ لا يضر هذا الزواج بخدمته وعمله للقرآن. ولله الحمد والمنة

---

(١) كليات رسائل النور – ملحق أميرداغ ٢ ص ٤٠١ .

(٢) ذهب الخطيب البغدادي إلى كراهة الزواج لمن سيشغله عن العلم. وصنف الشيخ عبد الفتاح أبوغدة كتابا في "العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج" .

(٣) كليات رسائل النور – ملحق أميرداغ ٢ ص ٤٠٢ .

ففى صفوف طلاب النور كثيرون من أمثال هؤلاء، وزوجاتهم لا يقصرن عنهم في خدمة القرآن والإيمان، بل قد يفقن أزواجهن ويسبقنهم لما فطرن عليه من الشفقة التى لا تطلب عوضاً، فيؤدين العمل بهذه البطولة الموهوبة لهن بإخلاص تام."[1] فهذا مثال لحضور منهج اعتبار المآل عند النورسى في مجال الأحكام التكليفية في حكم المباح خاصة.

– اعتبار المآل في التربية والسلوك

يبقى مجال التربية والسلوك أبرز مجال أعمل فيه النورسى هذا الأصل. وقد اهتدى النورسى إلى ذلك من خلال تدبره لآي القرآن الكريم وطول تفكره في أحوال الكون والإنسان. فمن القضايا التى أخذت بعقله وسيطرت على تفكيره مسألة الزمان. فالزمان قيد تخضع له كل المخلوقات، فالإنسان والكون بجميع أجزائه الكبيرة والصغيرة، كل ذلك يجري عليه الزمان ضرورة، فهو تحت سلطانه اضطرارا. ومن آثار ذلك نفاذ الزوال إليها وجريان الفناء عليها. ومعنى هذا أن الحياة حلقات متوالية يؤدي بعضها إلى بعض ويتوقف بعضها على بعض. وإن حياة الإنسان تدل على هذا بوضوح. إن أحوال هذه الدنيا "لا قرار فيها ولا ثبات، كلها تقلبات تلحّ على فكر الإنسان بهذا السؤال: إن جميع ما نملك لا يستقر ولا يبقى في أيدينا، بل يفنى ويغيب عنّا، أليس هناك من علاج لهذا؟ ألا يمكن أن يحل البقاء بهذا الفناء؟!"[2] فالعمر ليس على صفة واحدة وإنما محطات متسلسلة تؤدي كل منها على التى تليها ضرورة. فالطفولة تؤدي إلى الشباب، والشباب إلى الرشد، والرشد إلى الكبر والكبر إلى الهرم، ولا يعقب الحياة إلا الموت. فلماذا لا يتخلف الترتيب ولو مرة واحدة، أو عند شخص واحد على الأقل؟ إنه قانون

(١) كليات رسائل النور – ملحق أميرداغ ٢ ص ٤٠٢٤٠٣ .
(٢) كليات رسائل النور – الكلمات ص ٢٣ .

مطرد قطعا لأنه من آثار اسم اللّه المحيى واسم المميت واسم القهار وغيرها من أسماء اللّه الحسنى التى من آثارها حركة التجدد في الكون في كل لحظة.

والفائدة التى أقامها النورسى على هذه الحقيقة في مجال التربية والسلوك هى أن كل لحظة من لحظات حياة الإنسان تتوقف في صفتها على استحضار المكلف للحظة التى تؤول إليها. فليس سواء في الحال والسلوك من يحيا مستحضرا مستقبل أيامه ومن يحيا غافلا عنه.

ولهذا فإن مآلات الأحوال ومستقبلات الأيام والحياة ملك على النورسى أقطار نفسه وتفكيره، فكان مستحضرا لها مستشرفا لتفاصيلها، فكثيرا ما تجده يتحدث عن المآلات كأنه يراها في شاشة معنوية منصوبة أمامه، وأحيانا ينتقل بنفسه وبالقارئ معه في سفر خيالي إلى بعض محطات المستقبل فيستشرف كل التحولات ويصور جميع الصفات التى تؤول إليها الأحوال. فالقوة مآلها الضعف، والغنى مآله الفقر، والشباب مآله الهرم والشيخوخة، وجمال الصورة مآله قبح الهرم، وفتوة الجسم مآلها العجز، والحياة مآلها الموت، والوجود مآله الزوال، والحياة الدنيا مآلها الفناء، والدار الدنيا كلها مآلها ومنتهاها إلى الآخرة، فالدار الآخرة إذن غاية كل شىء ومستقبل كل مخلوق، وكل مستقبل من هذه المستقبلات إنما هو اقتراب منها وإيذان بدنوها.

والغرض المقصود من هذا أن يحصل الجمع في التفكير بين الحال والمآل، فالوقوف عند الحال وحده قصور. فعلى هذا النحو تحدث النورسى في رسائله عن الإنسان والحياة، فلا يذكر الشىء إلا مقرونا بمآله ولا اللحظة من الحياة الخاصة للفرد المكلف أو للحياة العامة في الكون إلا مستحضرا مآلها، لما في ذلك من التربية للمكلف. من ذلك مثلا أنه لما كان في السجن دخل في لحظة تفكير عميق يتأمل فيها شاشة معنوية أوحت له بها مشاهد الشباب فلنستمع إليه

يحكى هذه الحادثة ذات العبرة له ولغيره، يقول: "كنت في أحد أيام عيد الجمهورية جالسا أمام شباك سجن "أسكى شهر" الذي يطل على مدرسة إعدادية للبنات.. وكانت طالباتها اليافعات يلعبن ويرقصن في ساحة المدرسة وفنائها ببهجة وسرور، فتراءت لي فجأة على شاشة معنوية ما يؤول إليه حالهن بعد خمسين سنة، فرأيت أن نحواً من خمسين من مجموع ما يقارب الستين طالبة يتحولن إلى تراب ويعذبن في القبر، وأن عشرة منهن قد تحولن إلى عجائز ذميمات بلغن السبعين والثمانين من العمر، شاهت وجوههن وتشوه حسنهن، يقاسين الآلام من نظرات التقزز والاستهجان من الذين كنّ يتوقعن منهم الإعجاب والحب، حيث لم يصنّ عفتهن أيام شبابهن!.. نعم رأيت هذا بيقين قاطع، فبكيت على حالهن المؤلمة بكاء ساخناً أثار انتباه البعض من زملاء السجن، فأسرعوا إليّ مستفسرين. فقلت لهم: "دعوني الآن وحالي... انصرفوا عنى". أجل، إن ما رأيته حقيقة وليس بخيال، إذ كما سيؤول هذا الصيف والخريف إلى الشتاء، فإن ما خلف صيف الشباب ووراء خريف الشيب، شتاء القبر والبرزخ. فلو أمكن إظهار حوادث ما بعد خمسين سنة من المستقبل مثلما يمكن ذلك لحوادث الخمسين سنة الفائتة – بجهاز كجهاز السينما – وعرضت حوادث أهل الضلالة وأحوالهم في المستقبل، إذن لتقززوا ولتألموا ولبكوا بكاء مراً على ما يفرحون منه الآن ويتلذذون به من المحرّمات في الوقت الحاضر."[1] ونظر مرة من نافذة السجن إلى ضحكات البشرية المبكية، ثم نظر إليها من خلال عدسة التفكر في المستقبل والقلق عليه، فانكشف أمامه نظر خيالي عبر عنه بقوله: "مثلما تشاهد في السينما أوضاع الحياة لـمن هم الآن راقدون في القبر، فكأننى شاهدت أمامى الجنائز الـمتحركة لـمن سيكونون في الـمستقبل القريب من أصحاب القبور.. بكيت على

(١) كليات رسائل النور – الشعاعات ص ٢٤٧ .

أولئك الضاحكين الآن، فانتابني شعور بالوحشة والألـم. راجعت عقلي، وسألت عن الـحقيقة قائلاً: ما هذا الـخيال؟ قالت الـحقيقة: إن خـمسة من كل خـمسين من هؤلاء البائسين الضاحكين الآن والذين يـمرحون في نشوة وبهجة سيكونون كهولاً بعد خـمسين عاماً، وقد انـحنت منهم الظهور وناهز العمر السبعين. والخـمسة والأربعين الباقية يُرمـّون في القبور. فتلك الوجوه الـملاح، وتلك الضحكات البهيجة، تنقلب إلى أضدادها. وحسب قاعدة (كل آت قريب) فإن مشاهدة ما سيأتي كأنه آتٍ الآن تنطوي على حقيقة، فما شاهدته إذاً ليس خيالاً." [1]

***

وتحت هذا الأصل حمل المصائب التى تنزل بالإنسان على أنها من رحمة الله لأنها تحمل المبتلى على التفكر في المآل واستحضار المستقبل، وإن العافية قد تكون بلاء وفتنة لما تسببه من توهم الأمن والسلامة فتحصل الغفلة عن المآل وينسى المستقبل. فعن المرض والصحة يقول وهو يخاطب المريض: "فـحاول التجمل بالصبر والثبات أمام هذا الـمرض، حتى تتحقق لك الإفاقة والصحوة؛ إذ بعد أن ينهى الـمرض مهامه سيشفيك الـخالق الرحيم إن شاء ... إن قسماً من أمثالك يزعزعون حياتهم الأبدية بل يهدمونها مقابل متاع ظاهري لساعة من حياة دنيوية، وذلك لـمضيـّهم سادرين في الغفلة الناشئة من بلاء الصحة، هاجرين الصلاة ناسين الـموت وغافلين عن اللّه عز وجل. أما أنت فترى بعين الـمرض القبرَ الذي هو منزلك الذي لا مناص من الذهاب إليه، وترى كذلك ما وراءه من الـمنازل الأخروية الأخرى، ومن ثـم تتحرك وتتصرف على وفق ذلك. فمرضك

---

(١) كليات رسائل النور – اللمعات ص ٤٤٦.

إذاً إنـما هو بـمثابة صحةٍ لك، والصحة التى يتمتع بها قسم من أمثالك إنـما هى بـمثابة مرض لـهم"[1] فعلى هذا المشرب فالصحة مرض والمرض صحة.

وبهذا المشرب الخاص أيضا فإن الموت -وهو أكبر المصائب- يغدو ذا وجه منور جميل، وما ذلك إلا باستحضار مآله وما يعقبه. إن الموت – باعتبار المآل- ليس فناء نهائيا ولا فراقا سرمديا، وإنما هو تسريح من مهمة، وإعلان عن إنهاء وظيفة التكليف في الدنيا، واستبدال دار بدار وحياة بحياة، وتسريح من سجن الدنيا، واستراحة من أعباء الحياة وتخلص من بلائها، ووصال مع الحبة ممن رحل إلى عالم البرزخ، من الأجداد والآباء، والصالحين من عباد الله، ويكفى من هذا الوصال الوصال مع سيد البشر ورأس الأحبة عند المسلم محمد رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم، وأعظم من هذا كله أنه دخول في رعاية الله تعالى الودود. فالموت في ظاهره زوال وفناء، لكن باعتبار مآله طريق البقاء وسبيل الوصال مع أعظم الأحبة، وعبور نحو الجمال الباقى في كنف رحمة الخالق العظيم ورؤية وجه الجليل الجميل حيث قمة السعادة وغاية اللذة،[2] وهذا كله مجموع بإيجاز وإعجاز في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "مَن أحبَّ لقاءَ اللهِ، أحبَّ اللهُ لقاءَهُ."[3]

***

ومن آثار هذا المسلك أيضا عند النورسى أن نعيم الدنيا ولذاتها ليس مقصودا لذاته، لأنه ليس جمالا حقيقيا وإنما هو لذة متوهمة، ودليل ذلك أنه ليس نعيما

---

(١) كليات رسائل النور – اللمعات ص ٣١٩ .

(٢) ينظر " نحو نظرية إسلامية للجمال من خلال رسائل النور " عبد الكريم عكيوي. ص ٧٥ – ٧٦ . (ضمن أعمال ندوة الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر: النورسي نموذجا. نظمت بكلية الآداب جامعة ابن زهر بأكادير بالمغرب)

(٣) " صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

خالصا وإنما مشوب بمشقة العيش وخطوب الحياة، ولأنه زائل فان وحقيقة الجمال تقتضى البقاء وليس الزوال. ومعنى هذا أن نعيم الدنيا ليس مقصودا في الخال لأنه غير خالص، ثم لأنه قد يورث عذابا غامرا وشقاء سرمديا مثل نزوة يقضى بها لذة عابرة تورث أمراضا جسدية ونفسية وعقلية، وتؤول إلى عذاب في الآخرة. وليس من الجمال واللذة شهوة يسيرة عابرة تؤول إلى شقاء عظيم دائم. فلم يبق لنعيم الدنيا من مقصد في الحال إنما المقصد منه المآل. فالإنسان في الدنيا يرشح نفسه ويعدها لكمال الجمال وتمام السعادة عند رؤية الله تعالى الجليل الجميل في بحبوحة الجنة، ومن رحمة الله به أن جعل له لذة الدنيا بمنزلة قبس يسير وظل حقير من اللذة من أجل التذكير وفتح الشهية إلى هذا المقام.[1]
وهذا هو الوجه المحبوب شرعا من الدنيا لأنه يجعل لذات الدنيا طريقا سالكا إلى مرضاة اللّه تعالى ويجعل الدنيا معرضا لتجليات أسماء الله الحسنى وإظهار آثارها الجميلة. يقول النورسى: "أما محبتك للدنيا محبةً مشروعة، أي محبتك لها مع التأمل والتفكر في وجهيَها الجميلين اللذين هما: مزرعة الآخرة ومرآة التجليات للأسماء الحسنى فإن نتيجتها الأخروية هى أنه: سيُهَب لك جنة تسع الدنياكلها، ولكنها لا تزول مثلها، بل هى خالدة دائمة. وستظهر لك في مرايا تلك الجنة تجليات الأسماء الحسنى بأزهى شعشعتها وبهائها، تلك التى رأيت بعض ظلالها الضعيفة في الدنيا. ثم إن محبة الدنيا في وجهها الذي هو مزرعة للآخرة، أي باعتبار الدنيا مشتلاً صغيراً جداً لاستنبات البذور لتتسنبل في الآخرة وتثمر هناك، فان نتيجتها هى: أثمار جنة واسعة تسع الدنيا كلها... ولما كانت محبتك للدنيا ليست لذلك الوجه المذموم الذي هو رأس كل خطيئة، وإنما هي محبة متوجهة

---

(١) ينظر "نحو نظرية إسلامية للجمال من خلال رسائل النور" عبد الكريم عكيوي. ضمن أعمال ندوة الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر: النورسي نموذجا. نظمت بكلية الآداب جامعة ابن زهر بأكادير بالمغرب. ص ٥١ – ٥٢.

على وجهَيها الآخرين أي إلى الأسماء الحسنى والآخرة، وقد عقدت -لأجلهما- أواصر المحبة معها وعمّرت ذينك الوجهين على نية العبادة، حتى كأنك قمت بالعبادة بدنياك كلها.. فلابد أن الثواب الحاصل من هذه المحبة يكون ثواباً أوسع من الدنيا كلها، وهذا هو مقتضى الرحمة الإلهية وحكمتها." [1]

ولعل قائلا يقول أليس التفكر في هذا المآل له مفاسد لأن فيه شؤما من الحياة والمطلوب التفاؤل وتحريك قوى الإبداع والعمل في الدنيا؟ إن النورسى يسعف في الجواب فيبين أن هذا المشرب وحده هو الذي يورث التفاؤل واللذة ويمنح القوة المعنوية الكافية للحياة. ويكفى من ذلك أن النورسى نفسه بعد أن سلك هذا المسلك كانت حياته كلها حياة جد وعمل وصبر وصابرة وتحمل للمعاناة، مع لذة نفسية وروحية غامرة. فلنستمع إليه وهو يصف الفائدة التى حصلت له من اعتبار هذا المآل. فبعد أن وجد نفسه وحيدا منفيا في بارلا، ممنوعا من التواصل مع الناس، يعاني آلام المرض والشيخوخة والغربة، يذهب ويجيء في وديان بارلا حزينا وحيدا، إذا بنور من أنوار القرآن الكريم يعلو قلبه لما قرأ قول الله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص:٨٨). ففكر في مآله ومآل الدنيا كلها فوجد اللذة والسلوان قال رحمه: "أجل!. رأيت نفسى بسرّ هذه الآية الكريـمة، وعبر تلك الوديان الـخالية، ومع تلك الـحالة المؤلمة، رأيتها على رأس ثلاث جنائز كبرى.. الأولى: رأيت نفسى كشاهد قبر يضم خـمساً وخـمسين سعيداً ماتوا ودفنوا في حياتي، وضمن عمري الذي يناهز الـخامسة والـخمسين سنة. *الثانية*: رأيت نفسى كالكائن الـحى الصغير جداً – كالنملة – يدب على وجه هذا العصر الذي هو بـمثابة شاهد قبر للـجنازة العظمى لـمن هم بنو جنسى ونوعى، والذين دفنوا في قبر الـماضى منذ زمن آدم عليه السلام. *أما الثالثة*: فقد تـجسّـمت أمام خيالي – بسرّ هذه الآية الكريـمة – موت هذه الدنيا الضخمة، مثلما تـموت دنيا

---

(١) كليات رسائل النور – الكلمات ص ٧٧٧ -٧٧٨ .

سيارة من على وجه الدنيا كل سنة كما يـموت الإنسان.. وهكذا فقد أغاثني الـمعنى الإشاري للآية الكريـمة ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة:١٢٩) وأمدني بنور لا يـخبو، فبدد ما كنت أعانيه من الـحزن ... واهباً لي التسريَ والتسلي الـحقيقي. نعم لقد علمتني هذه الآية الكريـمة أنه مادام الله سبحانه وتعالى موجوداً فهو البديل عن كل شيء، وما دام باقياً فهو كافٍ عبده، حيث إن تـجلياً واحداً من تـجليات عنايته سبحانه يعدل العالـم كله، وإن تـجلياً من تـجليات نوره العميم يـمنح تلك الـجنائز الثلاث حياة معنوية أيـما حياة، بـحيث تظهر أنها ليست جنائز، بل مـمن أنهوا مهامهم ووظائفهم على هذه الأرض فارتـحلوا إلى عالـم آخر."[1] فقد منحه هذا المآل قوة معنوية عظيمة يعلو بها على الدنيا ويقوى بها على كل ما يلتبس بها من المشاق والمعاناة. ويزيد في الإفصاح عن هذه الفائدة فيقول : ليرحل مَن يرحل يا إلـهي فأنت الباقي وأنت الكافي، وما دمتَ باقياً فَلَتجلٍّ من تـجليات رحـمتك كافٍ لكل شيء يزول، ومادمتَ موجوداً فكل شيء إذاً موجود لـمن يدرك معنى انتسابه إليك بالإيـمان بوجودك ويتحرك على وفق ذلك الانتساب بسر الإسلام، فليس الفناء والزوال ولا الـموت والعدم إلاّ ستائر للتجديد، وإلاّ وسيلة للتجول في منازل مـختلفة والسير فيها.. فانقلبتْ بهذا التفكير تلك الـحالة الروحية الـمحرقة الـحزينة، وتلك الـحالة الـمظلمة الـمرعبة إلى حالة مسرّة بهيجة ولذيذة، والى حالة منورة مـحبوبة مؤنسة، فأصبح لساني وقلبي بل كل ذرّة من ذرات جسمي، يردد بلسان الـحال قائلاً: الـحمد لله. ولقد تـجلى جزء من ألف جزء من ذلك التجلّي للرحـمة بهذه الصورة." [2]

---

(١) كليات رسائل النور – اللمعات ص ٣٧٥ – ٣٧٦ .

(٢) كليات رسائل النور – اللمعات ص ٣٧٦ – ٣٧٧ .

- **استشراف المستقبل**

ومن منهج النورسى أيضا استشراف المستقبل عن طريق التدبر في أحوال الحاضر وتحكيم سنن الاجتماع وقوانين المعاش، ومحاولة الاهتداء إلى ما تؤول إليه الأحوال. ففى غمرة التحولات التى حصلت في الدولة العثمانية نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين من إعلان الدستور ورفع شعار الحرية، كان للنورسى نظر دقيق إذ وهى أن هذا التحول إنما هو سير نحو العلمانية لأن الحرية في ظل تلك الظروف لا تعنى سوى شيئا واحدا هو التحلل من الدين. ولهذا أعلن عن نتيجة نظره فقال مستشرفا مستقبل العالم الإسلامى ومستقبل أوروبا بالنسبة لعصره: "كان سعيد القديم يخبر طلابه – في مؤلفاته القديمة – .... ويقول لهم مكرراً: ستحدث زلزلة اجتماعية بشرية عظيمة، زلزلة مادية ومعنويةً.... حتى إنه في السنة الأولى من عهد الحرية سأل الشيخ بخيت – مفتى الديار المصرية – سعيداً القديم: ما تقول في حق هذه الحرية العثمانية والمدنية الأوربائية؟ فأجابه سعيد: إن الدولة العثمانية حاملة بدولة أوروبائية وستلد يوماً ما، وإن أوروبا حاملة بالإسلام وستلد يوماً ما."[1] وبالنسبة لحركة الإصلاح في العالم الإسلامى فإنه من خلال نظرة فاحصة يحكمها الإنصاف والتجرد عن العواطف، رأى أن الركود الفكري والعلمى والسياسى والاقتصادي في العالم الإسلامى في عصره أكبر من أن يتم إصلاحه في ظرف وجيز، فخلص إلى أن التغيير المنشود لن تكتحل عينه برؤيته وشهوده، فخبر حال عصره، ووضع نفسه موضعها، وجعل غايته أن يبذر بذور الربيع، أما نموها واستواؤها فذلك ليس له وليس مما ينال في زمنه أو قريب منه، لكنه آت، لأن زمانه زمان الغرس وسيأتي الحصاد في زمانه، لكن لا حصاد من غير غرس، لأنه كما قيل:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ندمت على التفريط في زمن البذر

(١) كليات رسائل النور – ملحق أميرداغ ٢ ص ٣٨٦ .

وكما قيل أيضا:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا   فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وقد عبر النورسى عن هذه الحقيقة وهو يحاور نفسه وهى تعاني الألم والحسرة من هذه الحقيقة المرة فقال: "ماذا أفعل؟ إن قدري دفعنى إلى هذه الدنيا في زمان غير زماني... إنه شتاء الإسلام الكابى الحزين، لا حيلة لي إلا أن أبذر بذور الربيع القادم الذي لا يريد أن يبصره هذا العصر. وحين تنبت هذه الزهور وتتسنبل ويأتي ربيعها أكون قد فارقت الدنيا، لكنى سوف أتنسم نسمات ربيع الإسلام وأنا راقد في قبري. فاستشراف مستقبل الإسلام هو عزائى وسلوتي في غربتى." فكأنه هنا يستعمل معنى إشاريا لحديث النبوي: (إنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِناسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرسَهَا فَلْيَفْعَلْ).[1]

ومن حكمة النورسى وعمله بمنهج المقاصد والغايات، استشرافه لمستقبل دعوته ومآل فكره ورسائله التى تفانى في نشرها هو وطلبته. فقد خبر رحمه الله طلبته فرأى شدة محبتهم له وقوة تعلقهم برسائل النور بسبب ما وجدوا فيها من السلوان الفكري والروحى، و آنس منهم حسن الخلق وعلو الهمة والتفاني في أنوار الهداية القرآنية التى أشربتها قلوبهم من خلال رسائل النور، ورغبتهم الشديدة في نشرها وتبليغا، ومن خلال كل ذلك تصور مآل دعوته ورسائله بعد موته وهو ما عبر عنه بقوله: "أما من حيث العمل للقرآن فقلد وهب لي الله سبحانه وتعالى إخوانا ميامين في العمل للقرآن والإيمان، وستؤدى تلك الخدمة الإيمانية عند مماتي في مراكز كثيرة بدلا من مركز واحد. ولو أسكت الموت لساني فستنطلق ألسنة قوية بالنطق بدلا عنى وتديم تلك الخدمة... فآمل أن يكون موتي كذلك وسيلة لخدمة القرآن أكثر من حياتي"[2]

---

(١) مسند أحمد، مسند أنس بن مالك.

(٢) كليات رسائل النور – المكتوبات ص ٥٤٩ .

هذه بعض معالم اعتبار المآل واستشراف المستقبل عند النورسى، في مجال فهم الخطاب الشرعى وتنزيله على محله، وفي مجال التربية وترسيخ السلوك، وفي مجال السياسة وعلم المستقبليات.

***

وأختم هذا العرض بموقف روحى رقيق للنورسى، في لحظة تأمل وتفكر، وقد رأى ملامح وجهه وجسده يسري فيها الزمان وتقدم العمر، فجعل يستحضر مآله المحتوم، فرحل بعقله وقلبه وخياله إلى بعض محطات مستقبل حياته ووجوده، في مناجاة رقيقة في منازل القربى إلى ربه تبارك وتعالى. وفي سبب كتابته لتضرعه هذا يقول: "إني قد أكتب تضرّع قلبى إلى ربّى مع أن من شأنه أن يُستَر ولا يُسطَر، رجاءً من رحمته تعالى أن يقبل نُطق كتابى بدلاً عنى إذ أسكت الموت لساني.. نعم، لا تسع توبة لساني في عمري القصير كفارة لذنوبى الكثيرة، فنطقُ الكتاب الثابت الدائم أوفى لها. فقبل ثلاث عشرة سنة وأثناء اضطراب روحى عارم وفي غمرة تحول ضحكات "سعيد القديم" إلى بكاء "سعيد الجديد" أفقت من ليل الشباب على صبح المشيب فسطرت هذه المناجاة باللغة العربية." فيقول رحمه:

"يا ربى الرحيم ويا إلهى الكريم!

قد ضاع بسوء اختياري عمري وشبابى، وما بقى من ثمراتها في يدي إلاّ آثام مؤلمة مُذلّة، وآلام مضرّة مُضلّة، ووساوسٌ مزعجة معجزة، وأنا بهذا الحمل الثقيل، والقلب العليل، والوجه الخجيل متقربٌ – بالمشاهدة، بكمال السرعة بلا انحراف وبلا اختيار كآبائى وأحبابى وأقاربى وأقراني – إلى باب القبر، بيت الوحدة والانفراد في طريق أبد الآباد، للفراق الأبدي من هذه الدار الفانية الهالكة باليقين، والآفلة الراحلة بالمشاهدة، ولا سيما الغدارة المكارة لمثلي ذي النفس الأمارة.

فيا ربى الرحيـم ويا ربى الكريـم أراني عن قريب لبستُ كفنى وركبت تابوتي، وودعت أحبابى، وتوجهت إلى باب قبري، فأنادي في باب رحـمتك: الأمان الأمان يا حنان يا منـّان، نـجنى من خجالة العصيان.

آهٍ.. كفنى على عنقى، وأنا قائم عند رأس قبري، أرفع رأسى إلى باب رحـمتك أنادي: الأمان الأمان يا رحـمن يا حنـّان، خلصنى من ثقل حـمل العصيان.

آهٍ.. أنا ملتف بكفنى وساكن في قبري وتركنى الـمشيعون، وأنا منتظر لعفوك ورحـمتك.. ومشاهدٌ بأن لا ملـجأ ولا منـجأ إلاّ اليك، وأُنادي: الأمان الأمانَ من ضيق الـمكان، ومن وحشة العصيان، ومن قبـح وجه الآثام. يا رحـمن يا حنان.. يا منـّان.. ويا ديان نـجنى من رفاقة الذنوب والعصيان..

الـهى! رحـمتك ملـجئى ووسيلتى، وإليك أرفع بثى وحزني وشكايتى.

يا خالقى الكريم، ويا ربى الرحيم، ويا سيدي، ويا مولاي.. مـخلوقك، ومصنوعك وعبدك العاصى العاجز، الغافل الـجاهل، العليل الذليل، الـمسىء الـمسن، الشقى الآبق، قد عاد بعد أربعى سنة إلى بابك ملتـجأً إلى رحـمتك، معترفاً بالذنوب والـخطيئات مبتلى بالأوهام والأسقام، متضرعاً إليك.. فإن تقبل وتغفر وترحـم فأنت لذاك أهلٌ وأنت أرحـم الراحـمين والاّ فأيّ باب يُقصد غير بابك.. وأنت الرّبُ الـمقصود والـحق الـمعبود. ولا الـه الاّ انت وحدك لا شريك لك.. آخر الكلام في الدنيا وأول الكلام في الآخرة وفي القبر: أشهد أن لا إلـه إلاّ الله وأشهد أن مـحـمداً رسول الله."[1]

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) كليات رسائل النور – اللمعات ص ١٩٦ – ١٩٨ .

فهرس المصادر والمراجع

- " أسس الوحدة الفكرية عند بديع الزمان النورسي" د. عبد الكريم عكيوي. شركة سوزلر للنشر القاهرة
- " الإسلام بين الشرق والغرب" علي عزت بيغوفيتش. ترجمة محمد يوسف عدس. مجلة النور الكويتية – مؤسسة بافاريا. ١٩٩٤ .
- " الأسماء والصفات" لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨) (ط١ – ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م. دار الجيل)
- " الحِكم العطائية بشرح أبي العباس أحمد بن عجيبة المسمى "إيقاظ الهمم في شرح الحكم" (المكتبة التوفيقية).
- " سنن الترمذي" لأبي عيسي محمد بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩). تحقيق أحمد شاكر. ١٤٢٦ – ٢٠٠٥ . دار الحديث.
- " شرح النووي على صحيح مسلم" ط ٢. ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م. مؤسسة قرطبة.
- " صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري" دار الفكر.
- " صحيح مسلم مع شرح النووي" ط ٢. ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م. مؤسسة قرطبة.
- " صيد الخاطر" لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت٥٩٧ هـ) (تحقيق عامر بن علي ياسين. ط ١. ١٤١٨ – ١٩٩٧ دار ابن خزيمة)
- " طبقات الشافعية الكبرى" لتاج الدين السبكي (تحقيق: محمود الطناحي- عبد الفتاح لحلو. ١٣٨٣ – ١٩٦٤. مطبعة عيسى البابي الحلبي)
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني. دار الفكر.
- "كليات رسائل النور" (ترجمة إحسان قاسم الصالحي. ط ٣ – ٢٠٠١. شركة سوزلر- القاهرة)

- " منهاج السنة النبوية" أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم. ط: ٢- ١٤١٩هـ - ١٩٨٨م - المغرب.
- " الموافقات" لأبي إسحاق الشاطبي. تحقيق الخضر حسين- حسنين مخلوف. دار إحياء الكتب العربية.
- " نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء" د. محمد الروكي. (منشورات كلية الآداب بالرباط)
- "نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي" لأحمد الريسوني. ط١. ١٩٩١م. المعهد العالمي للفكر الإسلامي)

المجلات

- مجلة " بصائر الرباط" تصدرها دائرة الرباط العلمية للبحث في الدراسات الإسلامية.
- مجلة " النور للدراسات الحضارية والفكرية" تصدرها مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم.

الندوات والمؤتمرات

- ندوة الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر بديع الزمان النورسي أنموذجا (ط١- ١٤٢٧ - ٢٠٠٦، سوز للطباعة والنشر- إسطنبول). نظمت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير بالمغرب بتعاون مع مركز استانبول للثقافة والعلوم بتاريخ ٣١/ ٠٣ - ٠١/ ٠٤/ ٢٠٠٥.
- أعمال المؤتمر العالمي السابع لبديع الزمان النورسي المنعقد بإسطنبول بتاريخ ٣-١٠ - ٢٠٠٤.
- جهود بديع الزمان النورسي في تجديد الفكر الإسلامي (مارس ١٩٩٩. الرباط - المغرب)
- أعمال المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان النورسي - إسطنبول ١٩٩٥.
- ندوة التربية السلوكية بين بديع الزمان النورسي وابن المؤقت المراكشي بكلية الآداب

جامعة القاضي عياض بمراكش بالمغرب بتاريخ ١٤-١٦ يناير ٢٠٠٣ بتعاون مع مركز استانبول للثقافة والعلوم

- المؤتمر العالمي حول بديع الزمان النورسي .إسطنبول -١٩٩٢ م.
- فقه المقاصد والحكم في فكر بديع الزمان النورسي بكلية الشريعة جامعة القرويين بأكادير بالمغرب بتاريخ ١٣- ١٤ مارس ٢٠٠٨. بتعاون مع مركز إسطنبول للثقافة والعلوم

فهرس الموضوعات